رواية

جوزِبّه كاتو تسيلا

لكنك ستفعل

مكتبة

ترجمها عن الإيطالية: يوسف وقاص

خالد سليمان الناصري

جوزبه كاتوتسيلا

لكنك ستفعل

رواية

ترجمة

يوسف وقاص

منشورات المتوسط 2019

مكتبة t.me/t_pdf

إشارة إلى وقائع حدثت بالفعل، أو إلى أشخاص كانوا أو ما زالوا على قيد الحياة، ليست سوى مصادفة بحتة.

إلى بيا، لحياتك

أتى النّهارُ، فانخرطْنا نحن أيضاً في اللُّعبة

بما كنَّا نملكه من ملابس وأحذية ووجوه.

انسحبت الأرانبُ البرِّيَّة، والدِّيَكَةُ تصيح،

وعاد وجه أُمِّي إلى المَوْقِد.

روكُّو سكوتيللارو

كثيرةٌ جداً الحرائقُ

على الأرض،

لكنَّ أكثرَ ما يروقني منها

تلك التي تشتعل بين البراعم

لتجعلها بيضاء وحمراء

في لحظة .

ألبينو بييرّو

1

لنكن صريحين من البداية، نحن قومٌ غُزاة في أرض غنيَّة بالثروات والنفائس، غزوْناها سرَّاً لنعمل - هذا ما أخبرتْنا به الراهبة في الروضة، وجرَّاء علاقتها الخاصَّة بالرَّبِّ، فما كان لها أن تُخطِئ.

في ذاك اليوم، ولم أكنْ قد تجاوزتُ الرابعة من عمري، صوَّبتْ تلك المرأة الصغيرة المتَّشحة بالسواد إصبعَها نحوي. ليلاً داهمتْني الكوابيس. وفي الصباح، أقسمتُ ما إن فتحتُ عينَيَّ، بأنني لن أكون على شاكلة أَبَوَيَّ، شخصاً منبوذاً، يستولي على عمل الآخرين، ويحتلُّ البيوت، والحدائق، والشوارع، وكل الأشياء الاستثنائية: سأكون دائماً موضع ترحيب، لا، بل مُحتفَى به، إن صحَّ القول. تطلَّب ذلك الكثير من الشجاعة،

وتضرَّعتُ إلى الرَّبِّ كلّ ليلة أن يهبَني إيَّاها، وأن يكتسبَ أبواي لهجة قريبة من لهجة أهل الشّمال، لئلَّا يُفتضَح أمرُنا.

بعدئذٍ، أي بعد أن سبقتْنا أُمُّنا في درب الحياة - واسمها روزالبا، وقد درج الجميع على مناداتها روزي - ولم تعد تعيش معنا، بل أمستْ في مكان أجمل، حيث ينعم الجميع بالسعادة، طرأ بعض التغيير على كل شيء. بتُّ أسمع صوتها في رأسي يُكلِّمني، وقبل أن أخلدَ للنوم ليلاً، كانت تغنِّي لي ولنينا، رغم أنه أبي مَنْ كان يُحرِّك شَفَتَيْه. نقول: "طابتْ ليلتكَ، يا أبي"، بينما تقول نينا، "تصبح على خير، يا أبي"، وأقول أنا في سرِّي: "تصبحين على خير، يا أُمِّي"، ولم أكن أتقاسم ذلك إلَّا مع نينا، التي أسَرَّتْ لي يوماً بأنها هي، أيضاً، فعلت ذلك من قبل. لكنها توقَّفت، وباتت حين تقول "طاب مساؤكَ، يا أبي"، فهي تعني ذلك تماماً ..

عمري الآن اثنا عشر عاماً تقريباً، ومذ وُلدتُ ونحن نعيش في شارع غرامشي، في مكان على مشارف ميلانو، نُسمِّيه ميلانوكس (لأنه تقاطع بين ميلانو ومكان سيِّئ السُّمعة، يُسمَّى برونكس(1))، معظم سُكَّانه من المهاجرين الأجانب والجنوبيِّيْن. في المبنى الذي نسكنه - وهو مؤلَّف من عشرة طوابق وشُقق كثيرة - يُشكِّل الآتون من مقاطعة بوليا ومن صقلّية الأغلبية، ويعيشون كخليط مع مغاربة وهنود وبعض البيروفيِّيْن، ولكن الأكثرية الساحقة هي من مقاطعة كالابريا. بينما تتحدَّر عائلتي من لوكانا، من بلدة بالقُرب من ماتيرا، وفي الواقع نحن عُملة نادرة.

لم أكن أدري أننا يتامى، لحين إعلان المعلِّمة ذلك في أحد الأيَّام أمام جميع تلاميذ الفصل، انتابَني على إثرها شعور فظيع، ليس للأمر بحَدِّ ذاته، ولكنْ، لوقع الكلمة، فأنا ما كنتُ في وارد أن تكون موجَّهة إليَّ تحديداً. حتَّى إنني أجهشتُ بالبكاء، وظنَّ الجميع أنني أبكي جرَّاء ذلك، ولكنْ، كما هو الحال دائماً، لم يفهموا شيئاً. كفكفتُ دموعي، وهززتُ رأسي نافياً، لكنهم أصرُّوا على ظنِّهم، فعاودتُ النحيب، لأنني حسبتُ أنهم يعنون بتلك الكلمة أولئك الذين فقدوا أبوَيْهما، وتحرَّروا منهما مرَّة

واحدة، وإلى الأبد، إلَّا أنها بدت ملائمة أيضاً لِمَنْ لديهم أُمٌّ مثلنا، والتي سبقتْنا وقرَّرتْ أن تنتظرَنا هناك، لتستقرَّ وتجعلنا نجد كل شيء جاهزاً ونظيفاً. ثمَّ إن لديَّ نينا، وقد أصبحت مسؤوليَّتي الآن. بكيتُ لأن تلك كلمة تقال لأطفال تعساء، وليس لنا، أنا ونينا، فقد كنَّا نملك كلّ شيء. وهكذا، عندما كنتُ في الصَّفِّ الخامس الابتدائي، وكانت نينا في الثالث، اكتشفْنا أننا يتامى، وهذا يعني أن أُمَّنا بدلاً من تواجدها في الخارج، باتت تعيش في داخلنا.

ثمَّ إن أُمَّنا كائن لطيف حقَّاً، يهوى المزاح، لدرجة تسبَّبتْ فيها برسوبي العام الماضي في الأوَّل إعدادي، وها أنذا أُعيدها الآن، فقد درجتُ حين كانت تعيش عندنا باستثارة دهشتنا عبر أشياء تضعها لنا بين صفحات كتاب أو كرَّاس، بطاقات من الورق المُقوَّى الأحمر بحواشٍ مذهَّبة أشبه ببطاقات المعايدة في عيد الميلاد. أحسبُ أن في ذلك متعتها، فقد كانت تتراءى لي مساءً، ترفل بثوب نومها، وشَعْرها أجعد، في يدها أقلام الخطَّاط المذهَّبة، بينما أبي -الذي يُدعى بْيَاجو، الملقَّب جينو - يغطُّ في نومه في الصالة أمام التلفاز، ونسخته من "المسيح توقَّف في إيبولي" (كتابه المقدَّس) تتوسَّد بطنه مغلَقة.

امتحنتْنا يوماً معلِّمة اللغة الإيطالية، وكانت ميكيلا الجالسة في المقعد المجاور، منكبَّة على الورقة، وهي الوحيدة في الفصل التي ما كانت لا أجنبية ولا جنوبية، بل الجميلة رغم بؤسها وشحوب بشرتها. انزلقتْ من الكرَّاس الكبير إحدى بطاقات أُمِّي، التي كانت تتركها هناك للذكرى. انتابَني الذهول، ورحتُ أُحدِّق في السقف مثل أبله. ثمَّ استعدتُ نفسي، ناديتُ ميكيلا، ومرَّرتُ لها البطاقة. لم أسمح أبداً لأيِّ شخص أن يقرأ تلك البطاقات، إلَّا أنني رغبتُ بأن تقرأها ميكيلا، لأن كنزتها الصُّوفيَّة الخضراء تُزيِّنها تلَّة مَكسوَّة بالأقحوان. وبمجرَّد أن قرأتْها، انفجرتْ ضاحكة. يا للنساء! بدأت المعلِّمة بالصراخ: "ڤيسكونتي!"، التي هي ميكيلا. "كورسانو!"، الذي هو أنا. انتزعتِ البطاقة من يَدَي ميكيلا، وعادتْ إلى منضدتها.

"سوف أقرؤها الآن بصوت عالٍ، وهكذا سنضحك جميعاً"، قالت ذلك، وارتدت نظَّارتها: "... إذنْ، البطاقة تقول ... هل تعرف أنكَ داخل الدُّرْجِ بينما الأحلامُ في الخارج؟". توقَّفتْ وأخذتْ تُفكِّر: "وماذا يعني هذا؟". هذا يعني أنّكِ فضولية، هذا ما تعنيه، خلصتُ إلى ذلك من دون البوح به، فأنا رجل مهذَّب بالنهاية. ثمَّ أدارتِ البطاقة، وقرأتْ في الخلف: "... عبارة أشبه بتلك مقتبسة من أحد كُتَّابِيَ المُفَضَّلين: 'استيقظوا، إذا كنتُم حقَّاً تريدون أن تحلموا. قُبلاتي". نزعتْ نظَّارتها، ونظرتْ إلى ميكيلا: "أنا لا أفهم ما علاقة هذه العبارات السخيفة والتافهة مع موضوع دَرْسنا. أنا مندهشة منكِ، يا ڤيسكونتي". ثمَّ نظرتْ نحوي: "أمَّا أنتَ، فلستُ مندهشة منكَ". أحسستُ بأنني على وشك الانفجار بنوبة غضب عارمة، تخيَّلتُ بأنني أُفجِّر العالَم، إذ لا يمكن لأحد إهانة أُمِّي. لا بُدَّ، إذنْ، من البقاء في حالة تأهُّب، فلا يمكن التَّكهُّن أبداً بما قد يحدث. نهضتُ، وقد رغبتُ بالخروج، غير آبه بالمعلِّمة، التي اعترضتْ طريقي، وانتهى الأمر بي أن اصطدمتُ بها، فارتطمتْ بمقعد ميكيلا، وسقطتْ أرضاً. لم ينبس أحد ببنت شفة. نظرتْ المعلِّمة إليَّ بغضب، والتقطتْ بعدئذٍ النَظَّارَة، وتفحَّصتْها (إحدى العَدَسَتَيْن أُصيبتْ بتصدُّع بالغ السوء)، ثمَّ ارتدتْها، ونهضتْ بهدوء. رتَّبت بلوزتها وتنُّورتها، وقالت: "ستُرافقني الآن إلى مدير المدرسة"، ثمَّ تابعتْ بهدوء "سأُعلِّق دراستكَ، يا كورسانو، ولن تنجحَ في نهاية هذا العام. سأفعل ذلك مهما كلَّف الأمر". وقد وَفَتْ بوعدها، رغم أنني كنتُ يتيماً، وعندها تساءلتُ: وما جدوى ذلك؟

يتيمٌ! وغبيٌّ أيضاً! ضحكْنا في البيت. وهاكم ما حدث بالفعل، منذُ أن قرَّرتْ أُمِّي أن تسبقَنا: بما أنها كانت هي مَنْ تُطلق النكات دائماً ونحن نضحك، (لقد كانت تقول دائماً "الحياة فيلم بفصل واحد فقط، وينتهي على نحو رديء"، ما يعني أن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو أن نضحك)، وعليه فقد ضحكْنا كثيراً ذلك المساء. وإن كان من حوادث مؤلمة، فلها أن تُؤجَّل إلى اليوم التالي، وكم ضحكْنا مساء

اليوم الذي تلقَّيتُ فيه خبر رسوبي! حتَّى إن أبي كان قد فتح زجاجة نبيذ، وثمل، واضح لماذا يضحك من نكاتي إذاً (منذُ أن فَقَدَ عمله، أصبح يشرب غالب الوقت).

على كلٍّ، ها قد فارقَنا الصيف، والذي كان من المفترَض أن أذهب فيه للمرَّة الأولى في إجازة لمدَّة ثلاثة أسابيع مع أصدقائي في مخيَّمٍ صيفيٍّ، إلَّا أن كل شيء انقلب رأساً على عقب. لم تكن الأمور بهذا السوء، إذ ما زال بمقدوري أن أروي لكم تفاصيل ما ألَمَّ بي في ذلك الصيف، فقد حدث شيء فاق خيالي، وبه تغيَّرتْ حياتي. وعندما تتبدَّل أحوال الإنسان، فإن تأثير ذلك سيطغى على الجميع لاحقاً.

باختصار، قام أبي في إحدى أُمسيَّات أوائل شهر حزيران، برَبْط سوار مضحك حول معصمَيْنا مع اسم الوجهة - بيت جَدِّي والد أُمِّي - وأرسلَنا إلى تلك البلدة المغمورة بين تلال بازيليكاتا، التي هرب منها، هو وأُمُّنا منذُ سنوات طويلة.

وضَعَنا في حافلة متَّجهة إلى محطَّة ماتيرا، وعاد إلى المنزل، من دون حتَّى أن يلتفتَ خلفه.

(1)أحد أحياء نيويورك. كان مشهوراً بسُمعته السَّيِّئة، بالأخصِّ في ستِّينيَّات وسبعينيَّات القرن العشرين، بسبب انتشار الجرائم فيه على نطاق واسع.

2

كانت الشمس ترتفع ببطء من بين التلال، ومع أوَّل خيوط الضوء، استيقظْنا أنا ونينا. كنَّا قد وصلْنا إلى لوكانيا(2). إنها عالَم آخر، وفي ليلة واحدة تغيَّر كل شيء.

وكلَّما انعطفت فينا المرتفعات، تكشَّفت من تحتنا الغابات وحقول الزيتون، وحوَّطتْنا التلال المغطَّاة بسنابل القمح الأصفر. حين تبدَّت الصخور الناتئة، فَرَكْنا أنا

ونينا أعيننا، وبدأنا نُهيِّئ أنفسَنا، لقد شارفْنا الوصول. وما كانت تلك الجروف الجبلية والكثبان والمنخفضات سوى أسود عملاقة من الصلصال فاغرة الأشداق. كنَّا في صغرنا، نلعب مع ريفِهْ على تلك الجروف الملوَّنة بالأحمر والأصفر والأخضر، ونمتطي البغال، كما في أفلام "الكاوبوي". كانت تلك أخاديدنا، وعلينا حمايتها من أطفال القرى المجاورة. كنَّا نقفز مثل الجَدَاجِد: كل شيء كان لنا.

أريليانا تقع هناك، متشبِّثة بجبل، تكسوه الغابات، وسط نهرَيْن بعيدَيْن، أغري وبازينتو، فوق سيل أوملو الذي يقطع الوادي ويُوَحِّده. إنها بلدة مؤلَّفة من خمسين بيتاً حجريّاً، وما يربو عن مائَتَيْن من السُّكَّان. لم يحدث أيُّ شيء هناك في الأعالي منذُ مئات السنين.

بعد أن تجاوزْنا المنعطف الأخير من غابة كيانوزا، دخلْنا البلدة.

الساحة كما هي، خالية من المارَّة، والبرج النورماندي يتوسَّطها. كانت الجَدَّة بانتظارنا، وحين رأتْنا، ركضتْ نحونا، واعتصرتْنا وهي تعانقُنا.

الجَدَّة كما طالعتْنا في السنة الماضية، ترتدي مريول المطبخ الأزرق حتَّى الركبَتَيْن، وتحته تظهر رَبْلَتَا ساقَيْن، هما الأكثر ضموراً في العالَم، بينما عيناها نقطتان سوداوان. إنها جميلة جدَّاً، ولا يُغيِّر من هذه الحقيقة انتفاخ بطنها: بدت كما الحمامة وهي تضحك بفرح بينما تضمُّنا إليها مثل محاربة فايكنغ حقيقية، كانت تجدل شَعْرها في ضفائر، تلتفُّ وتلتقي جميعاً في مؤخِّرة رأسها. وحين حلَّتْهُ في إحدى المرَّات، بدا طويلاً جدَّاً.

ظَلَّ الجَدُّ في هذه الأثناء في قمَّة المرتفع المؤدِّي إلى البيت. حيَّانا بيده من بعيد. هو، أيضاً، كان كما هو في السنة السابقة، نحيفاً جدَّاً مع رأس يغزوه الشَّعْر الأبيض المقصوص كالفرشاة، كما لو أنه جنرال في الجيش. مَنْ يدري ماذا يُفكِّر العجائز؟ لربَّما يشعرون بالحزن عندما يرون الأطفال، لأنهم يتغيَّرون باستمرار، بينما هم يبقون على

حالهم دائماً: آمل ألَّا أُصاب أبداً بمرض سَيِّئ مثل الشيخوخة.

الجَدَّان يعيشان في قمَّة المرتفع، في بيت حجري كبير يعود لعائلة الجَدِّ منذُ أجيال عديدة. كانوا مُلَّاك أراضٍ، ولكنْ، في شباب الجَدِّ حدث ما لا يمكن الحديث عنه، فخسروا كل شيء. لكن ذلك البيت يروقُنا كثيراً، أنا ونينا، لأنه كبير حقَّاً، وجدرانه سميكة مثل كهف. في غرفة الطعام في الطابق العلوي، يوجد موقد عملاق استعملوه، على مرِّ القرون، لتدفئة البيت والطهو، يتدلَّى من سقفه كُلَّاب حديدي صدئ، يُعَلَّق عليه القِدْرُ. في صغرنا، عندما كنَّا نلعب الاستغماية، كنتُ أختبئ داخل الموقد، ولا يتمكَّن أحد من العثور عليَّ.

من الخارج، لا يتناهى إلى مسامعنا سوى صوت واحد، إنها أجراس الكنيسة التي تدقُّ كلّ ساعة. ومساء، تغنِّي الجَدَاجِد في الحقول، وتُرَى من الشرفة أضواء القرى الأخرى متناثرة على قمم التلال.

كل شيء مُعلَّقٌ وراقص. أريليانا تتداخل ومشهد ميلاد السَّيِّد المسيح في المِعْلَفِ، وأكثر ما يُعجبني فيها رائحتها، رائحة الحجارة تحت وهج الشمس.

عدا عن البيت، فقد بقي بحوزة جَدَّيَّ متجر يقع هناك، قُبالة البيت، ما زالت جَدَّتي تُديره، رغم أنه متهالِك مثل كل العجائز، وثمَّة أراضٍ مترامية، إلَّا أنها جدباء، ولا تصلح لشيء.

وكثيراً ما جلبت الجَدَّة إلى البيت طيوراً بأجنحة مكسورة وسلاحف صغيرة، أو فراخاً، لتضعَها داخل علب الأحذية مع فتحات للتهوية، وكان يمكننا، أنا ونينا، التَّلصُّص عليها، وإطعامها بالقَدْر الذي نشاء.

وقبل بضع سنين، أحضرتْ فرخ بَبَّغاء بريش أخضر وأصفر، وعلَّمَتْه أن يقول "بييترو"، الذي هو أنا، وأن يقول "نينا" أيضاً، وأمسى يُردِّد اسمَيْنا عشرات المرَّات على

الأقلِّ في اليوم، لذا سألتْنا الجَدَّة مبتهِجة: "هل تريدون عصفوراً دُوريَّاً صغيراً؟". أجابت نينا على الفور "بلى ... دوري ... دوري!". أنا أيضاً آمنتُ بأنْ لا شيء يفوق المرح، حتَّى لو كان المرء حزيناً.

كان الجَدُّ غاضباً على الدوام، وحين يُؤنِّبنا (فعل ذلك باستمرار)، فإن الجَدَّة تكون له بالمرصاد، فيسعى إلى إخراسها هي أيضاً، ولكنْ، عبثاً، لأن الجَدَّة صعبة المراس، وأراضي عائلتها جدباء، ما عادت تصلح لشيء. لقد سكنت قُرَادَةٌ بطنَ الجَدِّ، ولم تتركْه بسلام، فهو العجوز الوحيد الضامر، مثل جُنْدُب، في أريليانا، وكلّ مَنْ في البلدة يعرف أن مَردَّ ذلك هو الحَنَق المستوطن دواخله، وليس داء السَّكَّريِّ.

في المطبخ، إلى جانب المناخل، وأوعية القلي ولوح الخشب الذي تُحضِّر عليه الجَدَّة معجَّناتها يوم الأحد (معجَّنات الجَدَّة التي تُحضِّرها في البيت، هي أفضل شيء في العالَم)، تواجدت لوحة صغيرة، قرَّر الجَدُّ أن ينحتَ عليها استسلامه واستياءه متى طاله أيُّ شيء ... وهي ما تزال مُعلَّقة على الجدار:

المسيحُ لم يصلْ إلى هنا أبداً،

ولا الزمنُ أيضاً، ولا الأملُ،

ولا المنطقُ، ولا التاريخُ.

إنها عبارة من رواية " المسيح توقَّف عند إيبولي"(3)، كتاب جَدِّي وأبي المقدَّس. فبالنسبة إلى جَدِّي، يرتبط الظلم الذي حاقَ بأرضه المَنسيَّة من الرَّبِّ والرجال، بالعمِّ روكّو، المحظور الكلام عنه.

"أجل، ولكنْ، نحن كنَّا ندفع. لقد كنَّا دائماً أهل خير. نحن فلَّاحون قبل أن نكون أصحاب أراضٍ، لم نتوقَّف أبداً عن حَرْث الأرض"، يقول جَدِّي في المرَّات النادرة التي

يُذكَر فيها اسم العمِّ روكّو في حديثه. هو يهوى كثيراً عبارة "أصحاب أراضٍ"، يلوكها في فمه مثل كراميل بطَعْم النعناع، وحرف الصاد يصفِر في طقم أسنانه، وأنا ونينا نضحك مثل المجانين. كانت كلّ عائلة موسومة بلقب، ولقب عائلة جَدِّي كان بوسّيدِنْتْ (المُلَّاك) تحديداً. لكنْ، وبعد أن ساءت أحواله، توعَّد كل مَنْ يستمرُّ بمناداته بهذا اللقب، إلى أن تلاشى في نهاية الأمر. أمَّا في القرية، فيستخدمون لقب عائلة الجَدَّة، "أليتْشيتْ" (أنشوفة)، لأن أفراد عائلتها كانوا في شبابهم يشبهون قليلاً السّمك الصغير. لذا، حين نمرُّ أحياناً أمام منزل أحد العجائز، كانوا يناديننا: "بييترو ونينا أليتْشيتْ". كان ذلك يروق لنا كثيراً: بييترو ونينا أليتْشيتْ. لم أخبرْ نينا أبداً أنها تبدو صغيرة أيضاً مثل سمكة أنشوفة.

"يبدو أنهم توقَّفوا عن حَرْث الأرض، حيث لازالوا يملكون الكثير منها، بينما نحن لا نملك شيئاً"، كانت الجَدَّة تستفزُّه، ويبدآن في الجدال.

"أنا لم أُسمِّم حقول الآخرين! ولم أقضِ على نصف أراضي أريليانا!". لم أسمع أحداً يتشاجر مثلهما أبداً.

كان الجَدَّان يتشاجران حول كل شيء، ولكنْ، عندما يَرِدُ اسم العمِّ روكّو، يَفقِد جَدِّي صوابه تماماً.

لمرَّة واحدة فقط، عندما كنتُ في السابعة، اعتبرَني راشداً بما يكفي لأكون وريثه، وصحبَني إلى أعلى نقطة في الساحة العالية من البلدة، حيث توجد كهوف حفظ النبيذ، وتُشرف على الوادي، وروى لي كل شيء، بالتفصيل. لم أنسَ ذلك قطُّ، وهو لم يعدْ إلى الموضوع ثانية.

هناك من الأعلى، كان يُرَى مجرى سيل أوملو كثعبان طويل جدَّاً، يقطع الحقول من جانب إلى آخر، وقد تحوَّل الآن إلى مجموعة من الحجارة، لكنه، ولوقتٍ خلا، كان

متدفِّقاً بالمياه "أرضنا كانت هناك، وراء السَّيْل"، قالها لي جَدِّي وهو يشير بإصبعه نحو الوادي المفتوح. وراء ذلك الحوض المتعرِّج الجافِّ، بدت الأراضي كلّها برِّيَّة صفراء، محروقة ومهجورة وميتة. كان المنظر صادماً. وفي منتصف السهل المُقفِر، ظهرت مزرعة مهجورة. "في وقتٍ من الأوقات، كانت تلك هي حياتي" قال جَدِّي، "وقبل ذلك، كانت مِلْكاً لأبي وجَدِّي، وقبلهما أيضاً، كانت لوالد جَدِّي". بناها جَدُّه الثاني، وسمَّاها مزرعة لوكانيا، أوَّل مزرعة تُشيَّدُ في أريليانا، وهم من أوائل الملَّاكين، وهي الآن مجرَّد كتل من الطوب، تحملها عوارض السقف الخشبية الضخمة. "بينما من جانب السَّيْل الآخر، تتواجد أراضي العمِّ روكّو"، بالكاد لفظ ذلك الاسم، ثمَّ بصق. شكَّلت امتداداً رائعاً من المربَّعات بألوان مختلفة، نسيج ثوب باذخ جدَّاً، تُثير غبارها الجرَّارات، ورؤيتها تبعث الطمأنينة في النَّفْس وهي تعمل. في الوسط، توجد الشركة الزِّراعيَّة العملاقة. تنهَّد الجَدُّ. لم أره قطُّ مضطرباً هكذا، وراحت يداه ترتجفان من الغضب وهو يتكلَّم، أدركتُ ذلك حين داعب شَعْري.

هاجر العمُّ روكّو إلى ألمانيا، ثمَّ عاد إلى القرية. تعلَّم هناك كيف يكسب المال، توقَّف عن بيع ثمار الأرض، كما كان يفعل أبوه وجَدُّه سابقاً، وشرع في صنع منتجات معلَّبة لمحلَّات السوبر ماركت في شمال إيطاليا. لكنْ، لتحقيق ذلك، أحتاج أن يكون بلا منافسين. لم يتردَّد. استغلَّ عيد منتصف آب(4)، عندما تلتقي البلدة بأكملها في الساحة لمشاهدة الألعاب النَّاريَّة، وصخب المفرقعات يطغى على كل شيء، واستأجر طائرة مروحية مع أتباعه، ورشَّ السُّمَّ من علٍ. في ليلة واحدة فقط، قضى على كل الأراضي الواقعة وراء السهل: أراضي الجَدِّ وأراضي بعض الملَّاكين الصغار. بعد بضعة أسابيع، بدأت النباتات تذوي، وبعد ثلاثة أشهر، لم تعد هناك شجرة زيتون واحدة، أو كرمة، أو سنبلة قمح، أو شجرة جوز، لا شَتْلة فاصولياء، ولا شجرة يقطين، ولا حتَّى نبتة بندورة. لا شيء إطلاقاً يمكنه أن يُثْمِر. عرف الجميع بفعلته تلك، لكنْ، لا أحد امتلك الدليل على ذلك. قام الجَدُّ بشراء أراضٍ جديدة وحيوانات أخرى، فتراكمت عليه ديون كثيرة، وبسبب التأخير في التسليم، توجَّب عليه بيع كل

الحيوانات والمعدَّات، كي يحتفظ بالأرض، أو يُعلن إفلاسه، ويُغلق مزرعة لوكانيا إلى الأبد.

خفَّض العمُّ روكّو فيما بعد أسعار القمح، والزيتون، والبيض، والجوز، والفاكهة، والبندورة، والخضروات، وكل شيء. وبهذا، فإن أولئك الذين ما زالوا يمتلكون بعض الأراضي على هذه الناصية من السَّيْل، قد أفلسوا بدورهم، واحداً تلو الآخر. لم يتمكَّنوا من منافسة أسعاره. ثمَّ بدؤوا يطرقون بابه: الجيران، وأبناء العمومة، والأقارب ... فاشترى حقولهم بأبخس الأثمان.

في غضون أربع سنوات، صار هو المُنْتِجُ الوحيد. في قبضته ثلاثون هكتاراً، وكلّ الأراضي الواقعة ما بين البلدة والسهل. عندها، أنشأ شركة لتعليب الخضار، ونكاية بعائلة جَدِّي، أسماها مزرعة لوكانيا. وكل الذين عملوا لدى جَدِّي، قصدوه للعمل عنده، في ظلِّ غياب أيِّ خيارٍ آخر، ودفع لهم العمُّ روكّو أكثر بقليل ممَّا يحتاجونه للعيش.

منذُ ذلك الحين، لم تطأ قَدَمَا جَدِّي أراضيه مطلقاً. كان ألم الإفلاس كبيراً جدَّاً، بحيث مات معه.

عندما انتهى من الحديث، أمسك الجَدُّ درابزين الساحة العليا بقبضَتَيْه، مثل كمَّاشَتَيْن.

التفتُّ نحوه بقامتي القصيرة. ثبَّت جَدِّي ناظرَيْه في الفراغ، محدِّقاً في الحقول. عيناه مُسمَّرتان، وشَعْره قصير كجندي.

"لا تخبرْ جَدَّتكَ بما قلتُهُ لكَ"، جعلَني أُقسِمُ، ثمَّ ابتسم ابتسامة قَسْرِيَّة. مع ذلك، قبَّلتُ أصبعَيَّ المتصالبَتَيْن بفمي.

(2) مقاطعة بازيليكاتا، التي كانت تُدعى سابقاً "لوكانيا"، تقع في جنوب إيطاليا، عاصمتها الإدارية "بوتينسا".

(3) رواية شهيرة من تأليف كارلو ليفي.

(4) هو عيد روماني قديم، يُحتفَل به حاليًّاً في 15 آب / أغسطس من كل عام في إيطاليا وجمهورية سان مارينو وكانتون تيتشينو في سويسرا. كان يُحتفَى به في الأصل في الأوَّل من شهر آب/ أغسطس، ويرجع هذا التَّحوُّل إلى الكنيسة الكاثوليكية التي أرادت أن تجعل هذا الحدث متزامناً مع العيد الدِّينيِّ لانتقال السَّيِّدة مريم العذراء، بالنَّفْس والجسد، إلى السماء.

.3

متجر جَدَّتي جميل جدًّاً، وهو واحد من الأسباب القليلة التي تَسْتَحِقُّ أريليانا لأجلها الزيارة.

إنه عالَم مسحور، فكل شيء يُباع فيه: كراميل موُو، وورق تواليت ملوَّن، ورغوة حمَّام مصنوعة من السَّرخس الأزرق، ودرَّاق معلَّب، وطماطم مقشَّرة، وسجائر، والقرفة، والفجل الحارّ، ورقائق بطاطس سان كارلو، وأزرار، ومعكرونة من كل الأصناف، وأعواد تنظيف الأُذن القطنية، ومناديل معطَّرة، هي الأكثر ضوعاً في العالَم. كل شيء يعبق برائحة سِحْرِيَّة طيِّبة، وجَدَّتي تبيع هذه السلع بعد لفِّها بورق الجرائد، وهذا هو الاستخدام الأوحد للصُّحُف في بيت الجَدَّيْن، وحدها المجلَّة المعنون اسمها باللون الأحمر أفلتت من هذا المصير، فقد كان جَدِّي مشترك بها، ونالت إعجابي أيضاً، لأنها احتشدت بصور نساء بحمَّالات صدر وسراويل دَّاخليَّة.

يرتاد الجميع المتجرَ، فهو ملتقى أكثر من كونه متجراً. لكن الناس، وتحديداً العجائز، كانوا يطلبونه للثرثرة فحسب، ولم يكن ذلك مناسباً للعمل، حتَّى لو أنّ الجَدَّيْن يتقاضيان الحَدَّ الأدنى من رواتب التقاعد - وهذا مصدر فخر، بالنسبة

إليهما.

بالنسبة إليَّ، شكَّلت ملازمتي المتجر مصدر راحة على الدوام، فهو في طريق الجميع، بمَنْ فيهم أصدقائي، ومع ذلك، لم تتأثَّر لهفتي لِلِقائهم. كانت نينا أقلَّ خجلاً، ففي يوم وصولنا إلى القرية، ذهبتْ لتقرعَ باب القاضي لوبيانو لرؤية التوأم المثالي ڤاليريا وإِيمَّا، وبعده قصدتْ منزل الجزَّار، حيث كانت هناك باسكوينا، وهي، بعكس التوأم، مسترجلة، وتُطلق الشتائم في أحايين كثيرة. وظلَّ ريفِهْ، مثل كل عام، مرتقباً، متسائلاً إن كان قد تغيَّر، ففي سنِّنا، تقوم الطبيعة بألاعيب سيِّئة، حيث تجد نفسكَ، بين ضحية وعشاها، قد بلغتَ من دون أن تُدرك ذلك.

يعيش ريفِهْ(5)، الذي يُدعى رفائيل في شهادة المعمودية، تحت بيت الجَدَّة تماماً، لذلك، فإنه، أو شقيقته ماريّا أنجيلا أو أخاه الصغير، دوناتينو(6)، عَرفوا بوصولنا حتماً - ففي الفُسحة الواسعة يفضي باب خفيض داخل القبو الذي تعيش فيه عائلة ريفِهْ. يحتوي القبو على غرفة كبيرة رطبة، تسمَّى لامْيُون(7)، وهي بلا نوافذ، تتقدَّمها ثلاث أو أربع درجات، تقود الى بابها، وقد سكنتْها العفونة جرَّاء كونها فيما مضى حظيرة للحيوانات، من حمير وخنازير ودجاج. عاش ريفِهْ في لامْيُون منزل أجدادي، أو مأوى الحمير التي تحمل جَدِّي وأباه كل مساء من الحقل إلى البيت. في الخارج، وعلى الجدار، تتدلَّى من كُلَّابات حديدية صدئة أربعة صفوف من الفلفل الأحمر ورؤوس الثوم المتروكة، لتجفَّ في الهواء. وبالقُرب من الباب، يوجد جرن حجري، كانوا في زمن ما يغسلون فيه الملابس، وتشرب منه الحيوانات، ثمَّ أصبح لاحقاً سيَّارة سباق الفورمولا 1 خاصَّتنا.

كان ريفِهْ طفلاً فقيراً، يتجوَّل، أحياناً، في الأرجاء مرتدياً قمصاني، التي كانت أُمِّي تهديها له دون أن تُخبر أحداً. في المرَّة الأولى التي رأيتُهُ فيها يرتدي واحدة منها، حاولتُ أن أنتزعها منه بالقوَّة.

"أعِدْ لي قميص سوبرمان!". صرختُ.

"لا، إنّه لي!"، صاح ريفِهْ.

"إنّه لي، أنتَ حرامي!".

"هل اسمكَ مكتوب عليه في مكان ما؟"، وحدَّق بي بعينَيْن ثابتَتَيْن كما عينَي الذئب.

مزَّقتُ القميص، وأنا أعضُّه في أُذنه، وأينما أُتيح لي. كنتُ أفعل ما كان يفعله هو، رغم أنه يصغرني بسنة واحدة.

بينما كنتُ ونينا نملأ أكياساً صغيرة من القماش ببذور الشُّمَّر، وصل دومينيكو وابن عمِّه إنتسوتشو(8)، ابنا النَّجَّارَيْن، إلى المتجر.

قفزتُ في مكاني، لأنني، وفور رؤيتهما، تلاشى خجلي على الفور.

كانت عيناهما متماثلَتَيْن دائماً، مصباحَيْن أماميَّيْن، يلتمعان بالخبث. كان دومينيكو على متن دراجة فيسبا نارية حمراء (معدَّلة إلى CC250 وإشكمان شاحنة)، أدار المحرِّك بقوَّة، وأصدر صوتاً صاخباً. لقد كبرا بالفعل، ويبدوان شابَّيْن يافعَيْن في الرابعة والثالثة عشرة، يُغطِّي الزغب ذقنَيْهما. أنا في الحادية عشرة من العمر ما زلتُ مجرَّد طفل ينتظر أن يكبر، وفي صبيحة كل يوم، أنظر إلى نفسي في المرآة بحثاً عن الشارب، ولكنْ، لا شيء. في العام الماضي، شكَّل دومينيكو من أصابعه كمَّاشة، وبات يُمسك عضوي، ويشدُّ السروال قائلاً: "إنه ينمو؟ إيه، إنه يكبر؟!". آلمني ذلك، وعضوي لم ينمُ بعد.، أنا الذي حلمتُ بأنه بات كبيراً جدَّاً، وأن خبره انتشر بين معشر الفتيات، فصرنَ يَصطففنَ لِلَمسه.

عندما رآني، ازدادتْ عينا دومينيكو السوداوان لمعاناً. أطفأ الفيسبا، وقال: "لقد كبرتَ، يا بييتري"(9)، ولكنْ، من الواضح أنه لا يعتقد ذلك، وبالفعل ضحك ابن عمِّه إنتسوتشو: "أجل، كيف لا! ربَّما في العام المقبل"، واجتاحتْهما نوبة ضحك صاخب.

"لقد كبرتُ بالفعل"، قلتُ، بينما يواصلان ضحكاتهما.

ثمَّ وقفتُ عند باب المحلِّ، وتمازحْنا قليلاً. كان دومينيكو قد أغرق نفسه بعطر ما بعد الحلاقة، ووضع على شَعْره الأجعد كمِّيَّة كبيرة من زيت الشَّعْر، وكذلك فعل إنسوتشو. كانا أبناء عمومة، لكنهما يُشبهان بعضهما البعض مثل أخوَيْنِ، ويمتلكان كل ما يجعل منهما ممثِّلَيْن سينمائيَّيْن، فوجهاهما منحوتان، وفكَّاهما مربَّعان، أمَّا أنفاهما، فمستقيمان، وعيونهما مُسدَلَة.

بينما كنَّا نتجاذب أطراف الحديث، ظهر ريفِهْ من زقاق في الساحة الصغيرة ذات النافورة، ومشى بخطوات قصيرة ومتثاقلة، حليق الرأس تماماً.

عرفتُهُ في الحال، وإن بدا ذلك غير حقيقيٍّ بالنسبة إليَّ. أردتُ أن أناديه، ولكنْ، أحسستُ كما لو أن صوتي قد انحبس في حلقي. بدا طيفاً، ومحاطاً بهالة من الضوء. نظرْنا إليه وهو يقترب، فظَّاً، مُطأطِئ الرأس، وقد تراءى كما دائماً متفكِّراً بشيء ما.

عندما أصبح على مبعدة أمتار قليلة، حيَّاه دومينيكو بسخرية، قائلاً: "ريفيللوو"، محدِّقاً فيه بنظرة استعلاء، هو العائد من الحقول، قَذِرَاً، تفوح منه رائحة الحيوانات. ثمَّ ناداه إنتسوتشو بلقبه، "سانابورتشي" (مَخصيّ الخنازير)، لأن عائلة ريفِهْ كانت تجول البلدة دائماً لخَصي ذُكُور الخنازير، وتعقيم إناثها للمُربِّين الآخرين. لم تعد تلك العملية تُنفَّذ باليد الآن، ولكن اللقب التصق بهم، إذ إنه ونحن صغار، قام بالعملية، لكي أشاهدها عن كثب. كان الخنزير سهلاً، لأن خصيَتَيْه ظاهرتان، يكفي أن تسحبَهما، فتخرجان. بينما يجب إجراء شَقٍّ على جانب بطن الأنثى، وسحب الأمعاء باليَدَيْن، ونزع المبايض من مكانها. قام ريفِهْ بكل ذلك، ثمَّ أعاد كل شيء إلى موضعه، وألقى بالبويضَتَيْن إلى لوبو، كلب الراعي الهَرِم الذي يُمضي أيَّامه معه. التهمَهما لوبو. وبعدئذٍ أخاط الشَّقَّ بإبرة كبيرة. نخرت أُنثى الخنزير، وعادت بين رفاقها. تظاهر ريفِهْ أنه لم يسمع إنتسوتشو، لأن ذاك لم يكن لقباً جميلاً. عندئذ أرسل دومينيكو له

شتيمة بيده، أدار محرِّك الفيسبا، ضغط على البوق، ليُحيِّي الجَدَّة، ثمَّ انطلقا.

عندما ابتعد صخبُ المحرِّك، مرَّ ريفِهْ من أمام المتجر، وقال لجَدَّتي: "مساء الخير، يا عمَّة بياتري"(10).

عندها فقط لاحظَني بجانب الباب، ولم يتعرَّف عليَّ. لوَّحتْ نينا بيدها من منضدة البيع، عندئذ ركَّز ريفِهْ نظره، فتبيَّن مَنْ نكون، فابتسم. بدا كما لو أنه قادم من عالَم آخر.

لقد زاد طوله قليلاً، ولم يستبدلْ سروال العام الماضي القصير، ولا حتَّى القميص، بلونهما الأزرق، وقد طُبعت عليهما كواكب ونجوم بيضاء. كان قد ازداد مَكْراً، ولم يتجاوز العاشرة من عمره بعد.

وأخيراً التقت عيوننا. "ريفِهْ"، ناديتُهُ. حدَّق بي، وابتسم مرَّة أخرى. هذه المرَّة كانت ابتسامته الحقيقية.

ثمَّ قال إنه ذاهب ليغتسل.

اتَّخذ صوت الجَدَّة نبرة حنوناً، "ريفيللوو، كيف تسير الأمور؟". سألتْهُ، لكنْ، بعد فوات الأوان، فقد كان ريفِهْ قد اختفى.

دفعتْني نبرة صوت جَدَّتي إلى الغَيْرة، إذ استشعرت رابطاً قويّاً (بين ريفِهْ والجَدَّة) يجمع مَنْ يعملون في الأرض، وكنتُ أنا خارج ذلك. في الحقيقة، أنا أُحبُّ تنسُّم رائحة الأرض، رائحة الطين والهِنْدِبَاء والفجل، وتروقني أكواز الذُّرة المسلوقة، يتصاعد منها البخار والملح، تُحضِرها الجَدَّة إلينا مساء. أحببتُ رؤية المحاريث وهي تحرث، والحصَّادة وهي تحصد. كنتُ أُحبُّ أن أركض بين السنابل، وألعب لعبة "الكابوي" بين الصخور الناتئة. وبقي العمل في الأرض أمراً غير مُحبَّب، أن أستيقظ في الرابعة،

وأكسر ظَهْري في تسوية الأرض، وحَرْثها، وعَزْقها، وتنظيفها من الأعشاب الضَّارَّة، وتسميدها، تلك هي الأعمال التي كان ريفِهْ يقوم بها.

ثمَّ قالت جَدَّتي إنه ينبغي عليها الذهاب إلى المستودع للتَّأكُّد من البضاعة الوافدة، وطلبت منَّا أنا ونينا الاعتناء بالمتجر. فقلْنا لها بصوت واحد: "نعم، نعم، يا جَدَّتي، اذهبي، اذهبي".

حالما خرجتْ، تبادلْنا النظرات.

لم نكن ننتظر سوى ذلك. كان ذاك الطقس الذي نمارسه كل عام.

كنَّا نعرف ما علينا القيام به.

نظرْنا من الباب، لا أحد في الجوار.

كانت هناك خزانة مقفَلَة دائماً في زاوية الجدار الخلفي، لا تُفتَح على مصراعَيْها إلَّا في شهر آب. اقتربْنا منها بحذر شديد.

"افتحيها أنتِ"، قلتُ لنينا التي كانت ترتجف رُعباً.

"كلَّا، افتحْها أنتَ".

حينها تشجَّعتُ، وأنزلتُ ضربة قاصمة على المصراعَيْن اللَّذَيْن انفتحا معاً.

وبدت عذراء فيجّانو السوداء(11)، كحالها دائماً، في مكانها، تحت الناقوس الزُّجاجيِّ: جامدة، وبعينَيْن جاحظَتَيْن ورهيبَتَيْن. إنها شفيعة لوكانيا.

كان يوجد أمام الزجاج شمعتان كهربائيَّتان، بضوء أحمر خافت، وصورة نذر. هذه العذراء زنجية، ولا تبدو أنها أُمُّ يسوع الطفل، بشَعْرها الأشقر، ورِدائها الأزرق مثل أميرة.

كانت تزرع الرُّعب في القلوب.

"ماذا تفعلان؟!"، تردَّد الصوت بقوَّة.

قفزْنا إلى الوراء من الخوف.

كان الجَدُّ، الذي دخل إلى المحلِّ دون أن ننتبه له، ونحن واقفان بلا حراك أمام العينَيْن الرهيبَتَيْن للسَّيِّدة العذراء.

"أَحسِنا التَّصرُّف، أنتُما الاثنَيْن، ولا تبدآ بالتخريب، وإلَّا سآخذكما إلى مِنْزاسنيور!".

وضعتْ نينا يدها على فمها. وسَرَتْ في بدني القشعريرة. يا للهول، يا جَدِّي.

فمِنْزاسنيور هذه مخلوقة رهيبة موجودة بالفعل، وتعيش في قصر كبير مسحور بالقُرب من منزل جَدِّيَّ، خلف منزل العمِّ سلفاتور. كانت امرأة نبيلة ماتت قبل مائَتَي عام، بعد أن أَقدَمَ زوجها على قَطْعها نصفَيْن، وبعد موتها، تحوَّلت إلى شبح، وهامت على وجهها في البلدة بحثاً عن زوجها، لتنتقم منه، لكنه فرَّ هارباً، فعادت لتعيشَ في القصر، وتنفثَ حقدها على أيِّ شخص، فتجزّه بضربة قاصمة من عنقه، زاك! ... لم يكن هناك أيُّ التباس في الإشارة التي أعطتْها للذين اختارتْهم: ضوء صغير. إذا رأيتَ فجأة ضوءاً صغيراً، فهذا يعني أنكَ انتهيتَ، هلكتَ، أصبحتَ في عدادِ الأموات. كان قصر مِنْزاسنيور خطيراً للغاية، ولم يدخله قطُّ أيُّ شخص في كل تاريخ أريليانا. قصر غير مأهول، مَحمِيٌّ ببوَّابة سوداء ضخمة، وستائر داكنة مُسدَلَة على النوافذ، وعشب الحديقة بطول متر، والفناء يغصُّ بالقاذورات.

في صغري، كنتُ أرى أضواء صغيرة في كل مكان، فلا أنام لِلَيالٍ عديدة. وهذا ما يدهمُني الآن، وفي أحايين أخرى، فحتَّى الجَدُّ نفسه لم يمتلك الشجاعة قطُّ للاقتراب من ذاك القصر، نعم، هذا صحيح، وإلَّا لكانت أتتْ وأخذتْهُ هو أيضاً. ولكنْ، بما أنّ أُمِّي لم تعد تعيش معنا، فلربَّما كانت هي التي تهتمُّ بحمايتنا.

(5) تصغير لاسم رفائيل.

(6) تصغير لاسم دوناتو.

(7) يتكوَّن اللَّامْيُون، في شكله الأساسي، من امتداد لخارج القبو (أو العقد القنطري)، وهو هيكل تسقيفي معماري مكوَّر من الداخل.

(8) تصغير لاسم إنتسو.

(9) بييتري وبِيْ وبييتروتسو هي أسماء دلع أو تصغير لاسم بييترو (بطرس).

(10) تصغير لاسم بياتريس.

(11) شفيعة مقاطعة (لوكانيا) بازيليكاتا، يقع حِرْزُها المقدَّس على قمَّة جبل فيجّانو في المقاطعة نفسها، وتحوَّل لون التمثال إلى الأسود، لأن سُكَّان مدينة كرومنتو اضطرُّوا إلى إخفائه في شَقٍّ، يمكن مشاهدته حتَّى الآن خلف الكاتدرائية التي أُقيمت احتفاء بها، بعدما دمَّر الساراسين (العرب والمسلمون بشكل عامٍّ، كما كانوا يُسمُّونهم آنذاك) مدينَتَهم في القرون الوسطى.

.4

في صباح اليوم التالي، رنّ الهاتف، وفي كل مرَّة يرنُّ فيها الهاتف، يُخيَّل لي أنّ أُمِّي تريد أن تُخبرَني شيئاً. في الواقع، فإن رنين الهاتف في منزل جَدِّي سابقاً، كان يعني أن أُمِّي هي المتَّصلة دائماً، أمَّا الآن، فأبي هو الذي يريد أن يسأل عنَّا، فقد أصبح أكثر لهفةً علينا من السابق.

في الحقيقة، كنتُ قد سألتُ أُمِّي سؤالاً في الصباح قبل أن تغادر، وهي لم تملك

الوقت الكافي، لتُجيبَني. قالت لي: "عليَّ أن أخرجَ الآن، يا بِيْ، سنتحدَّث عن ذلك مساءً"، ثمَّ ذهبتْ إلى البيت الآخر، وأنا لم أحصلْ أبداً على جواب لسؤالي ذاك. لذا، في كل مرَّة أسمع فيها صوتاً، أو متى ما رنَّ الهاتف، أظنُّ أنها هي التي تتَّصل، لتُجيبَني.

ثمَّ إنني فعلتُ شيئاً ما كان لي أن أُقدِم عليه ، وإذا كنتُ قد فعلتُهُ، فلأنني متأكِّد من أن أُمِّي قد تركت الإجابة مكتوبة في مكان ما قبل أن تغادر، كما كانت تفعل مع ملاحظاتها، أو حين ذهابها للتَّسوُّق مُدوِّنة على ورقةٍ قائمة باحتياجاتها. كان أبي قد طلب منَّا ألَّا نقترب من أغراض أُمِّي، وبشكل خاصٍّ علبة الكرتون الموجودة أسفل خزانتها، ولكنْ، أنا ونينا، كنَّا نفتحها، وننظر إلى ما بداخلها عندما نكون بمفردنا في الظهيرة.

ليس ذنبنا أنّ المنزل صغُر علينا نحن الاثنَيْن فجأة، وكان علينا أن نعثر على شيء نقوم به. وداخل تلك الدَّرَفات ضِعْنا، أنا ونينا، لأننا كنَّا عرضة لرائحة أُمِّي، التي بقيتْ كما هي، وسط كل تلك الملابس المعلَّقة، خصوصاً ذلك الفستان الجميل، الأبيض المزهَّر بزهور عبَّاد الشمس الصفراء، الذي ارتدتْهُ في يوم مناولتي للقربان المقدَّس. كم بكيتُ فوقه ... إنه أمر لا يُصدَّق كيف أن خزانة يمكنها أن تحفظ الرائحة لنفسها، ولا تتركها للآخرين. أنانية الخزائن شيء غير معقول.

كنَّا أنا ونينا نهيم داخل تلك العلبة في الظهيرة، فهي تحتوي على كل شيء، كلّ الأشياء التي نسيتْها أُمِّي في المنزل، وكان مجرَّد لَمْسِها، يجعلنا نشعر، كما لو أنها هنا، فالأوراق كما لو أنها طُوِيَت الآن، والمناديل كأنها استُخدمَت للتَّوِّ، وأقلام التخطيط كأنها رُتِّبَتْ قبل لحظات.

ثمَّة أزرار مختلفة في داخلها، وبقايا كرات صوفية، وبعض مِزَق بنطلونات من الجينز، وقد قصَّتْها من جميع بناطيلنا، لتُعدِّل طولها بماكينة الخياطة (كانت أُمِّي قصيرة القوام، وحلَّتْ تلك المشكلة بالكعب العالي). كان في الخزانة أيضاً بعض أحمر

الشفاه الذي لم يُستعمَل بعد، ومستحضرات تجميل كثيرة، مثل أقلام الكحل. وكان يحدث لنا، أنا ونينا، أمر غريب، فكلَّما كنَّا نُمسك تلك الأشياء، ونلعب بها متظاهرين أن أُمَّنا معنا، كنَّا نتعرَّض لعضَّات كلب، كلب يأتي من داخلنا، وتلك العضَّات كانت مؤلمة، لأنها تُرغمنا نحن الاثنَيْن على إهراق الكثير من الدمع. لكننا، مع ذلك، واصلْنا العبث بها. هل كنَّا أغبياء إلى هذا الحَدِّ؟ في إحدى المرَّات وعلى السرير، تحدَّثْنا أنا ونينا، عن ذلك الكلب أيضاً، لأن كلَيْنا أحسَّ به، حتَّى إننا أَسميناهُ "كلبون"، ليُصبح فيما بعد كلبنا. وكلبون لم يكن شرِّيراً، فقد كان مثل الجِرَاء التي تعضُّ بقوَّة، لأنها تجهل العضَّ بلطف في أثناء اللعب. لذلك، عندما كنَّا نريد الدخول إلى الخزانة، كنَّا نقول: "لَنَذهَبْ ونَزُرْ كلبون". وهكذا، استحال على أبي فَهْم ما نقول.

ولكنني، في ظهيرة يوم من الأيَّام كانت فيها نينا في بيت إحدى رفيقاتها تؤدِّي معها الواجبات المدرسية، تماديتُ أكثر، وبدأتُ أبحث داخل السترات والسراويل المعلَّقة، في الجيوب تحديداً (لا أعرف ماذا حدث لي، لكن الرائحة الزَّكيَّة كانت قوية)، وهكذا وجدتُ في إحدى السترات شيئاً كنتُ أتذكَّره جيِّداً، وعندما رآه كلبون، بدأ ينبح، ثمَّ يعضُّ، ويشدُّ بكل قوَّته.

لا أعرف لِمَ كانت محفظة أُمِّي في جيب تلك السترة بدلاً من الحقيبة، وهي تحتوي بضع أوراق نَقْديَّة وقِطَعَ عُملة معدنية.

ثمَّ ظهرت تلك الصورة الصغيرة.

في الواقع، كانت مقتطَعة من صورة، وصغيرة جدَّاً، وبدا وضوحاً أن الصورة الأصلية المأخوذة منها صغيرة أيضاً، ومربَّعة، من القياس القديم، ربَّما أربعة أو خمسة سنتيمترات لكل طرف، بألوان باهتة، وحوافّ متآكلة.

وهكذا، أخذتُ قُصَاصَة الصورة الصغيرة، وقلَّبتُها بين يَدَيَّ، على أمل العثور على واحدة من عبارات أُمِّي العاطفية، وكم كنتُ متيقِّناً من ذلك، عبارة منقولة عن أحد

الكُتَّاب، فقد كانت تقرأ كمِّيَّة مَهولة من الكُتُب. لكنْ، لم يكن هناك أيُّ شيء، فقط عبارة " استوديو أريليانا"، ما يعني أنه قد ظُهِّرَت وطُبِعَت في مكان ما في أريليانا. وتحتها مباشرة، كُتِبَ بخطِّ اليد، أريليانا ماتيرا، 13 آذار -197، وهذا كل شيء. إنه خطُّ أُمِّي بلا ريب. وصورتها صورة فتاة تُشبه نينا كثيراً، لكنها أكبر سنَّاً، ربَّما كانت تكبرني بسَنَتَيْن، لنقل إنها في الثالثة عشرة من العمر. ترتدي معطفاً صوفيَّاً جميلاً، بلون ريش الكناري الأصفر، وتبتسم بسعادة. كانت في ساحة أريليانا، المختلفة قليلاً عمَّا هي عليه الآن، ويظهر خلفها البرجُ الذي بقي على حاله.

تمعَّنتُ في الصورة، ثمَّ تمعَّنتُ بدقَّة أكثر، لأفهمَ مَنْ هي تلك الطفلة الغريبة التي سرقت عينَي نينا، وتنظر إليَّ من الماضي، من داخل صورة: لها عينا (بيرتوسيد(12)) أنفسهما، وتعني في لهجة أريليانا ثقبَيْن أسوَدَيْن عميقَيْن جدَّاً، لكنْ، لا يمكنها أن تكون أُمِّي، فقد كانت أُمِّي كبيرة دائماً، ولم تكن طفلة أبداً مثلي ومثل نينا. وإذا كانت هي أُمِّي، فلا أستطيع حتَّى أن أتخيَّل الأمر، لأن هذا يعني أن شخصاً ما كان يعتني بها، ولم تكن تعتني بنا فقط، وهذا لا يمكن له أن يكون، فأُمُّنا كانت أُمَّنا، وانتهى الأمر. وبالفعل، فمن بين كل الأشياء، كان هذا الشيء الأكثر استحالة.

على أيَّة حال، وضعتُ قُصَاصَة الصورة تلك في جيبي، وقرَّرتُ أن أحملَها معي دائماً، دائماً، نعم دائماً، معي دائماً، كتعويذة، وكما فعلتْ أُمِّي فيما مضى.

عاودتُ البحث داخل العلبة: ثمَّة كيس قماشي صغير، يعود لإحدى حفلات تعميد طفل، ولا تزال حبَّات حلوى بيض الحمام في داخله. أفرغتُهُ، فلن يُلاحِظَ أحد ذلك، على كل حال، ووضعتُ بداخله قُصَاصَة الصورة. ثمَّ تناولتُ خيطاً، ربطتُ به الكيس، وعلَّقتُهُ على رقبتي، تحت قميصي.

(12) Pertusidd’ تعني حَرْفِيَّاً باللهجة السائدة في مقاطعة لوكانيا “ثقب صغير”، وبالتالي يقولون إن لديه عينَيْن مثل ثقبَيْن أسوَدَيْن صغيرَيْن أو عيون النملة، كما هو شائع عندنا.

.5

بعد بضعة أيَّام، أتى ريفِهْ عصراً، وقرع الباب.

كنتُ مستلقياً على كنبة في الصالة أقرأ الكتاب الذي كلَّفتْنا المعلِّمة بقراءته في العطلة الصَّيفيَّة "مائة ألف قَصْعَة من الجليد". رغم أنني رسبتُ، إلَّا أنني لم أشأ أن أتأخَّر عن زملائي، وكان من المعيب أن يقرأه الجميع، ولا أقرؤه أنا.

بدا ريفِهْ مثل كلب متشرِّد، بلا شَعْر، ومحمرّ العينَيْن، بهيئة مقزِّزة بعض الشيء. "انقطعت المياه"، قال، وهَرَشَ رأسه (اعتاد قصَّ شَعْره مرَّة كل أسبوع، ليتفادى عثَّ الحيوانات). "لم أتمكَّن من الاغتسال". أعتقد أنه عُذر لا أكثر. لكنْ، بين الحين والآخر، كانت المياه تنقطع - حقَّاً - عن البلدة، وكان على النساء الصعود للنوافير، ليملأنَ العبوات البلاستيكية، بخلافنا نحن. لم يمتلك أهل البلدة خزَّان مياه. كان جِلْد ريفِهْ مسفوعاً بالشمس، ويداه خشنتَيْن، وأشبه بذئب، لا ينبس بكلمة بالإيطالية، وهكذا كنتُ مضطرَّاً لاسترجاع ما تيسَّر لي من لهجة أهل أريليانا: بالكاد كان ريفِهْ يقرأ ويكتب اسمه، وما كان لذلك أن يعنيني.

ينبغي علينا أن نلتقيَ في ساحة البلدة مع الآخرين، لنلعب كرة القَدَم، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يبدأ معها الصيف كل عام، منذُ كنَّا صغاراً. كان موعداً ثابتاً. لم أكن أعلم أنه، وبسبب تلك المباراة تحديداً، ستتغيَّر الأمور في أريليانا إلى الأبد.

لم يكن هناك أحد في الجوار سوانا، نحن وبعض المُسنِّين الثَّمِلين الذين كانوا يدخلون ويخرجون من مقهى بيبّينو.

لعبْنا كما لو أنها المباراة النِّهائيَّة لبطولة كأس العالَم، وتدافعْنا بقوَّة، وكان كل شيء مسموحاً، عدا العضّ. نينا حضرت أيضاً، والتوأم، وباسكوينا، وجلسْنَ على المقاعد الرُّخاميَّة في الساحة، يتظاهرْنَ بالهتاف، وهنَّ منشغلات بحديثهنَّ عن الباليه والخُطَّاب المزَيَّفين في التلفزيون. وحدها باسكوينا بدت وكأنها تريد أن تلعب كرة القَدَم معنا، لكنْ، وبما أنها أُنثى، فلا يمكنها ذلك.

كنَّا أنا، ودومينيكو، وإنتسوتشو، وريفِهْ، وجوفانّينو(13)، ابن نينو الصَّيدليّ، الذي كان يتوافق مع جميع مَنْ في البلدة، حسب مزاجه اليومي. كان جوفانّينو سعيداً دائماً، ولا أحد يعرف السبب، فقد جُبِلَت شخصيَّته على هذا الشكل. كان بديناً، ولكنه بارع جدّاً كحارس مَرمَى، ومن المستحيل تقريباً أن يُسجَّل عليه هدف. ثمَّ كان هناك مارادونا أيضاً، وهو يضاهي في مهارته جميعنا مجتمعين، وقد دُعي مارادونا، لأنه يشبه تماماً مارادونا الحقيقي، قصير ومكتنز، وشَعْره أجعد فاحم، لكنه قويّ جدّاً. كنَّا نجزم جميعاً بانضمامه يوماً إلى صفوف المنتخب الوطني، فهو يستطيع تنطيط الكرة ألف مرَّة على قَدَمَيْه دون انقطاع، وبات يتوقَّف عند التنطيطة السبعمائة جرَّاء مَلَلِهِ من رَقْمه القياسي. عندما رآه ريفِهْ اكتسى وجهه فوراً بملامح القسوة. فلم يكن مارادونا يروقُهُ، وقد اجتمعا على قواسم مشتركة، فهو أيضاً كان يعمل في حقول العمِّ روكّو، مثل جميع أفراد عائلته، وقصير وقوي مثله، ويلعبان كخصمَيْن دائماً.

كنَّا نلعب أنا ودومينيكو ومارادونا ضدَّ إنتسوتشو وريفِهْ وجوفانّينو، واثقين تقريباً من فوزنا.

كلَّما لامس مارادونا الكرة، خاطر ريفِهْ بكسرٍ في كاحله، فقد كان لا يجيد اللعب، وساقاه تبدوان كأنهما جذعا شجرة. كنَّا ندرس بعضنا البعض، ولا نتمكَّن من تجاوُز

التعادل بلا أهداف.

سدَّد دومينيكو، فجأة، ضربة قوية، فاصطدمت الكرة بسياج الساحة، وانتهى بها المطاف على حَرْف البرج.

كنتُ أكثرهم قُرباً منه، فذهبتُ لاستردادها. تسلُّق البرج كان يُشعِرني بقوَّةٍ وحشية، فيتهيَّأ لي وكأنني واحد من أهل القرية، أو مثل ريفِهْ عندما يسرد أسماء كل النباتات والأشجار، بقصد التَّبجُّح. ذهبتُ خلف البرج، كما كنَّا نفعل مع ريفِهْ ونحن صغار، حين كنَّا نذهب لتسلُّق البرج، فتسلُّقه من هناك أكثر سهولة. رسمتُ إشارة الصليب، وبدأتُ التَّسلُّق.

تسلَّقتُ حتَّى نهاية قاعدة البرج، وتفقَّدتُ المكان جيِّداً، ولم أعثر على الكرة، ولم تكن حتَّى عالقة بين جدارَي البرج والكنيسة القريبة جدَّاً. كائناً مَنْ كان ذاك الذي بنى الكنيسة، فإنه بناها بدقَّة متهالكة، فالجدران تلتقي في القاعدة، ثمَّ يبدأ جدار البرج بالميلان، وهناك عند المنتصف، يكون الفراغ، بالكاد، يتَّسع لجسم طفل. لا بُدَّ أن الكرة استقرَّت في الأعلى، حيث تنمو الأعشاب، وتمتلئ ببراز القطط والغربان. أطلقتُ صرخة نحو الآخرين:

"أنا قادم! الكرة ليست هنا، لا بُدَّ أن تكون في الأعلى".

"تحرَّكْ، يا عصيدة الذُّرة"، صرخ دومينيكو. "لقد جلبتْ أُمُّكَ القهوة!". كان يناديني متقصِّداً بـ "عصيدة الذُّرة"، مثل أيِّ شخص آتٍ من الشمال، وهو يعرف أن ذلك يُغضِبني.

وصلتُ إلى حَرْف القاعدة بخُطوات ثلاث، حيث يوجد بابٌ مع دَرَج حَلَزُونِيٍّ للصعود نحو الأعلى. قمتُ بدورة كاملة، وأخيراً رأيتُ الكرة: كانت قد انتهتْ بين شجيرات العُلَّيْق. تناولتُها وركلتُها إلى الأسفل، حتَّى إنهم لم ينتظروني، وعادوا لِلَّعب مباشرة.

نظرتُ حولي. شاهدتُ، من ذاك المكان العالي، الجزءَ العلوي من أريليانا، وسقف

بيت الجَدَّة أيضاً.

وبتُّ أسمع، بعد كل تمريرة، صوتَ مارادونا متداخلاً مع صيحات الجمهور. وبينما كنتُ أنزل، وضعتُ قَدَمِي على الحافَّة السُّفلى لثغرة كنَّا في صِغَرِنا، أنا وريفِهْ، نتوقَّف عندها، لنرى فيما إذا كانت لا تزال تتَّسع لرأسَيْنا، فقد كانت مثل تجربة، فإذا دخل رأسانا، فهذا يعني أننا ما زلْنا صغيرَيْن.

اقتربتُ على مهل، وجرَّبتُ. اتَّسعت الثغرة لرأسي. لا بأس، سأصبح كبيراً في العام المقبل.

فجأة، ومض أمامي ضوء في عمق ظلام البرج، ضوء آتٍ من عتمة الزنزانات. بقيتُ متحجِّراً في مكاني. الضوء! وأغمضتُ عينَيَّ، إنه الضوء الصغير!

كانت مِنْزاسنيور. جاءت تطلبني.

صارت يداي وساقاي ترتعدان، ولوَهْلَة كدتُ أنهار. استجمعتُ كل شجاعتي، ونظرتُ مرَّة أخرى، لأتيقَّن من أنني لم أكن أحلم. فتحتُ عينَيَّ رويداً رويداً.

كان الضوء لا يزال هناك.

لقد تدمَّرتُ، لقد انتهتْ حياتي.

ثمَّ نظرتُ ثانية، وبعد بُرْهَة اختفى الضوء.

لم أعد أقوى على الحركة، لا إلى الأعلى، ولا إلى الأسفل. صَعِدْتُ إلى منتصف قاعدة البرج، مقابل الثغرة: كانت، بالضبط، مثلما تخيَّلتُها دائماً. لقد أتتْ لتأخذَني.

بدأتُ أتصبَّب عَرَقاً، وقلبي يدقُّ مثل طبل. كان الضوء الخافت قادماً من العَدَم، من مكان، كان، دائماً وأبداً ولقرون خَلَتْ، مظلماً. كنَّا قد دخلْنا إلى ذلك المكان ألف مرَّة، ولم نُصادف أيَّ شيء أبداً.

ناديتُ الآخرين، لأن سماع أيِّ صوت يمنح الشجاعة دائماً، حتَّى لوكان صوتكَ فقط. "إييه!"، صحتُ، "إيييه!".

لكن صوتي خرج مخنوقاً. لم يجبْني أحد. كنتُ على الجانب الآخر من السُّوْر، لو مددتُ ساقَيَّ إلى الوراء، لَلَامستُ جدار الكنيسة.

"إيييييه!"، حاولتُ مرَّة أخرى بصوت أقوى. "يوجد ضوء هنا! دومي(14)..! إنتسو! ريفيييهْ!".

لا شيء.

ثمَّ بدؤوا يصرخون من الساحة كالمجانين. لقد سجَّل دومينيكو هدفاً، أدركتُ ذلك، لأنه صرخ كما لو أنه سجَّل هدفاً في نهائي كأس العالَم.

عندها، عاودتُ النظر إلى الداخل.

لم يكن هناك أثر للضوء الخافت.

لكنّني كنتُ قد رأيتُهُ.

أغمضتُ عينَيَّ، وفعلتُ كما أفعل في المواقف اليائسة. دسستُ يدي تحت القميص، وشددتُ بقوَّة على الكيس مع قُصَاصَة الصورة. تشجَّعتُ.

وبقفزة لمستُ الأرض، وانضممتُ إلى الآخرين. كنَّا متقدِّمين (واحد، صفر).

لعبْنا لساعَتَيْن إضافيَّتَيْن، وكانت أطول مباراة في التاريخ. كنتُ مُشتَّت الذهن،

أُخطِئ في كل التمريرات، ودومينيكو يُؤنِّبني، وفي لحظة معيَّنة، أسند إليَّ حراسة المَرمَى بشكل ثابت.

فزْنا، في النهاية، بأحد عشرة هدفاً مقابل تسعة أهداف. كان مارادونا قويَّاً جدَّاً، سجَّل هدفاً في كل مرَّة وصلتُهُ فيها بالكرة، رغم محاولات ريفِهْ الدائمة لكسر ساقه.

عندما انتهيْنا، قاد دومينيكو درَّاجة الفيسبا النَّاريَّة على العجلة الخلفية احتفالاً بالنصر. "من الأفضل لكَ أن تمارس قيادة الدَّرَّاجة النَّاريَّة، لأنكَ بائس في كرة القَدَم"، صرخ ريفِهْ.

زاد دومينيكو من السرعة، وراح يئزُّ بالعجلات على بُعد ثلاث سنتيمترات من قَدَمَيْه. قفز ريفِهْ إلى الوراء وهو يشتمه.

ثمَّ ركب إنتسوتشو خلفه على الدَّرَّاجة.

"دَعْنا نذهب إلى الفيلَّا"، قال دومينيكو. كانت حديقة البلدية تقع في الجزء السُّفليِّ من القرية. الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هناك، هو السير ذهاباً وإياباً، ولكنْ، كان هناك مقهى على الأقلِّ.

"أنتُم ذاهبون لاحتساء البيرة"، قالت باسكوينا، وقد أرادت أن تُرافقَنا، ومن الواضح أنها تكاد تموت من رغبتها في الذهاب معنا. غَمَزَها دومينيكو.

خرج ثلاثة رجال مُسنِّين من مقهى بيبّينو المجاور، وقد انتهوا من لعب الورق. ذاك

الذي يتوسَّطهم، هو العمُّ فينتشينسينو، كان ثَمِلاً تماماً، يسنده الآخران، كيلا يقع. منذُ وعيتُ على الدنيا وأنا أراه دائماً جالساً في بار بيبّينو، يحتسي "أمارو لوكانو"(15). "مسكين". قالتْ باسكوينا، وعقَّبتْ: "لا أريد أن أكون مكان العمَّة أنّينا". العمَّة أنّينا زوجته، ومنذُ سنوات لم يرها أحد في الجوار، ولا في البلدة. مَنْ يدري ماذا تفعل، وهي حبيسة البيت دائماً؟!

أدار الرجالُ العجائز رؤوسَهم نحونا، فرفع دومينيكو وريفِهْ أيديَهما احتراماً: كان كبارُ السِّنِّ أصدقاءَ الأطفال، والعمَّال المياومون أصدقاءَ القُضاة، والنَّجارون أصدقاء الصيادلة، والرعاةُ أصدقاء أصحاب الأراضي.

ذهب دومينيكو وإنتسوتشو إلى منزلهما، بينما عُدنا أنا وريفِهْ وجوفانّينو ونينا وباسكوينا والتوأم، إلى بيوتنا. تظاهرتُ باللَّامبالاة، ولكنني كنتُ لا أزال أرتعد من الخوف.

(13) تصغير لاسم جوفانّي.

(14) تصغير لاسم دومينيكو.

(15) أمارو لوكانو هو مشروب كحولي حلو محضَّر من الأعشاب، وهو مشروب ذائع الصيت، يتمُّ تناوله عادة بعد الوجبات الرئيسة، لأنه يساعد على الهَضْم.

.6

كل أولئك الذين رأوها من خلف زجاج النافذة، قالوا إن مِنْزاسنيور شاحبة، والشَّعْر الأبيض القليل الذي يُغطِّي رأسها منتصب. منهم مَنْ يُقسم أن عينَيْها حمراوان، بينما

يقول آخرون إنها طبيعية مثلها مثلنا، ولهذا السبب تحديداً تعاظم الخوف منها. لماذا أتت لتبحث عنِّي أنا بالذات؟! ربَّما لأنني فتحتُ الخزانة في بيت جَدَّتي، واكتشفتُ أن الضوء الصغير لا يزال في الداخل. وكان لزاماً عليَّ السعي لتناسي كل شيء، مُواصِلاً طمأنةَ نفسي بأنها ليست سوى بدعة من نسج خيال أهل البلدة، فأنا لم أسمع قطُّ في ميلانو قصَّة سخيفة مثلها.

ومع ذلك، لم يُفارِقْني الاضطراب، ولفَّقتُ عُذراً لنينا، لزيارة العمِّ سلفاتور، بدل العودة إلى البيت، فهو وحده مَنْ بمقدوره أن يمنحَني الطمأنينة. كان يعيش وحيداً مقابل منزل جَدَّيَّ، في بيت مؤلَّف من طابقَيْن مع دَرَج داخلي شديد الانحدار. حين كان شابَّاً، قصد أمريكا على متن باخرة، واستغرق شهرَيْن للوصول إليها. أتقن مهنة النجارة، التي صارت مهنته هناك. ثمَّ تزوَّج فتاة أمريكية من أصول إيطالية، كانت تعيش في بروكلين. بعد ثلاثين سنة واثنَيْن من الأبناء، ودون أن يعود أبداً إلى مسقط رأسه، تلقَّى برقية من أريليانا، تفيد بأنّ والدته على وشك الموت، وهكذا عاد بالطائرة، لكن أُمَّه استغرقت شهوراً لتموتَ، والأشهر تحوَّلت إلى سَنَتَيْن، ولم يعد العمُّ سلفاتور ثانية إلى بروكلين، لأنه لم يتمكَّن من الانفصال مرَّة ثانية عن أريليانا. في هذه الأثناء، ماتت زوجته، وكبُر أولاده، وكلّ واحد منهما أصبح لديه ولدان. كانا يتَّصلان به هاتفيَّاً في الأعياد السَّنويَّة، وفي عيد ميلاده. كانا يفتقدانه كثيراً، والأحفاد أيضاً، حتَّى لو أنهم لم يعرفوه سوى من الصور، وهو أيضاً اشتاق إلى أمريكا، لكنه تقدَّم في السِّنِّ كثيراً، وما عاد قادراً على الذهاب إلى أيِّ مكان، فالشيخوخة تُبقِي الجسد متسمِّراً، والعقل هائماً. كان العمُّ سلفاتور يُعيد عليَّ الحديث نفسه مراراً وتكراراً، ودائماً ما يبدأ بالبواخر، موضوعه المفضَّل، هو الذي لم يركب سوى واحدة منها فقط في كل حياته، تلك التي حملتْهُ إلى أمريكا، في رحلة لم تُفارِق ذاكرته قطُّ، كذلك هي الباخرة التي منحتْهُ أحلاماً جميلة، وليالٍ أمضاها يراقب النجوم من على متنها، نجوم أكبر حجماً وسطوعاً وتألُّقاً من تلك التي في سماء أريليانا، غير آبه طيلة رحلته بما ينتظره لحظة وصوله.

كان عمل العمِّ سلفاتور نجَّاراً مكتوباً على يده، إذ لم يبقَ من يده اليسرى سوى الإبهام والخنصر، أمَّا الأصابع الأخرى، فقد تركها في بروكلين، هذا ما كان يقوله دائماً. حين كنَّا صغاراً أنا ونينا، كنَّا نُشكِّل بأيدينا سمَّاعة هاتف، أو وضعية مَسْك القنِّينة للشُّرب منها، لنسخرَ منه، وذلك هو شكل يد العمِّ سلفاتور.

لم أكن قد زرتُهُ منذُ عام، لكنني عرفتُ أنه ينتظرني، ليكتب رسائل جميلة جدَّاً لوَلَدَيْهِ ولعائلتهما، فقد كان لا يُتقن الكتابة. وكما هو الحال دائماً، فإنه يجلس أمام البيت، ويُحدِّق في الجدار الحجري المقابل له، وعُكَّازه مُعلَّقٌ على مقبض الباب. وعلى ذلك الجدار، هناك حلقة من الحديد، كانوا، فيما مضى، يربطون الحمير المتعرِّقة عندما تعود من الحقول في آخر النهار، كيلا يدعوها تدخل إلى الأقبية الرطبة، وهي تتصبَّب عَرَقَاً. الآن باتت تلك الحلقات، بعد أن وصلوها بالحبال، تُستخدَم لنشر الغسيل.

"لقد كبرتَ"، قال لي العمُّ سلفاتور عندما وصلتُ، وبدا جَليَّاً أنه يعني ذلك حقَّاً، وبالفعل عاملَني كشخص بالغ، ومدَّ لي يده، ليُصافحَني، كما لو أنه أمر طبيعي - لحسن الحظِّ كانت اليد اليمنى.

دخلْنا ببطء إلى البيت، وجلسْنا إلى الطاولة. ما زال الفونوغراف الذي جَلَبَهُ من أمريكا في مكانه، وقد كان الأوَّل من نوعه في أريليانا. في شبابه، كان الجيران يستمعون، بفضله، إلى كلاوديو فيللا، فالعمُّ مُولَع بالموسيقى، مثل والده، ولديه في الطابق العلوي بيانو متهالِك، لم يُعرَف كيف وصل إلى هناك، وقد حاول في طفولته العزفَ عليه، ثمَّ ... عاد بلا أصابع.

سألَني إذا ما كنتُ أرغب بفنجان من القهوة، لكنني لم أكن كبيراً بما فيه الكفاية! مَنْ يدري كيف يراني؟ بعد ذلك، أخذْنا ورقة وقلماً؛ ومضى يُخبرني بما يريد كتابته، وأنا أرتجل .. لقد كانت صُحْبته مُجدية على الدوام، وفيها الشفاء من مخاوفي.

"اكتبْ أن راتبي التَّقاعديَّ يكفيني للعيش، بل، في الواقع، يمكنني ادِّخار بعض منه لشراء الهدايا للأحفاد"، قال.

"أنا أكتب كل ما تقولونه لي". كنتُ أخاطب العمَّ سلفاتور بضمير الجمع، أنتُم، لأنه معتاد على ذلك، وإلَّا لكان شَعَرَ بالإهانة. (هو أيضاً، في بعض الأحيان، كان يُخطِئ، ويُخاطِبني بالضمير نفسه). وبالتالي كتبتُ:

لم تكن النقود بهذه الوفرة هكذا، هنا. تصوَّروا حتَّى إني أستخدم راتبي التَّقاعديَّ للمشتريات الصغيرة اليومية فقط. لقد حقَّقتُ ثروة كبيرة من السباقات التي يشترك فيها حصاني رينغو ستار.

كان لدى العمِّ سلفاتور حصانٌ، لكنه مات منذُ سنوات. وكان يفوز بها جميعاً، وفي كل مرَّة يجني الكثير، الكثير من المال. وفوق كل شيء، ربحتُ في اليانصيب، ولم أعد أعرف أين أضع النقود بعد الآن، فلم يعد من متَّسع تحت الفراش.

ثمَّ قال لي: "اكتبْ أنه، للأسف، فقدتُ بعض أصدقائي، لكنني عثرتُ على صديق جديد، هو أنتَ".

وأنا كتبتُ:

هنا ليس كل شيء كما كان من قبل، لأن العديدين رحلوا، ليسبقونا إلى العالَم الآخر، ويُجهِّزوا الأمور لنا. ولكنْ، لديَّ صديق جديد، اسمه بييترو، وهو حفيد العمَّة بياتريس والعمِّ نونتسيو، وهو ألطف وأفضل شخص رأيتُهُ في حياتي، وربَّما يمكنه أن ينسجمَ مع أحفادي، إذا جاؤوا إلى هنا، ليتعرَّفوا إليه. ثمَّ إن بييترو مجدٌّ أيضاً في المدرسة، وقد تمَّت ترقيته بعلامات كاملة.

تابعْنا لبُرْهَة من الوقت، وخلصتُ بالفعل إلى رسالة طويلة وجميلة جدَّاً.

قرأتُها مجدَّداً، من البداية إلى النهاية، بصوت خافت، وجاء وَقْعُها لطيفاً. قبل إغلاق

المغلَّف، وضع العمُّ سلفاتور بداخله بعض الأوراق النَّقْدِيَّة، ليظهرَ لهم أن لديه مالاً. لعق الظرف، وطلب منِّي أن أذهب وأضعه في صندوق البريد في الساحة.

أَتعبَهُ كل هذا النشاط، فذهب ليستريح قليلاً. لحسن الحظِّ أنه كان مُتعَباً، لدرجة أنه نسي مصافحتي.

ثمَّ غادرتُ، وعليَّ أن أعترف بشيء فعلتُهُ، واحدة من نزواتي تلك، لأنني قمتُ بفَتْح شَقٍّ دقيق في حافَّة الظرف، وسحبتُ واحدة أو اثنَتَيْن من تلك الأوراق النَّقْدِيَّة، ربَّما ثلاثة، ولكنْ، لا أكثر، وعزوتُ ذلك إلى الاضطراب الذي عاودَني، بمجرَّد أن غادرتُ بيته، وحاجتي للقيام بشيء ما للتخفيف من حِدَّته. ثمَّ عرَّجتُ على مقهى بيبّينو، وطلبتُ منه الحصول على شريط لاصق. أعدتُ لَصْق كل شيء جيِّداً، وأرسلتُ الرسالة إلى الطرف الآخر من العالَم، إلى أمريكا، لا أكثر ولا أقلّ. مَنْ يدري كم من الوقت ستستغرق ريثما تصل؟!

.7

قبل أن أخلد إلى النوم، تضرَّعتُ إلى الرَّبِّ، ليقيَني رؤية الضوء، وبدلاً عنه، ويجلب لي في الحُلم شخصاً أُحبُّه، لأن أُمِّي سبق ورأتْني مرَّة في المنام، وأنا أتذكَّر جيِّداً أنها في صباح اليوم التالي، عندما روتْ منامها لي، أحسستُ بأنني شخص مُهمٌّ في الحياة. أمَّا في تلك الليلة، فلم أستطعْ نزع ذلك الضوء من رأسي.

روَّعني حضور مِنْزاسنيور في تلك الأيَّام، إذ كنتُ أهلع إن أنارت نينا المصباح بجانب السرير، أحسبه ضوئي الذي جاء ليأخذني، وما إن يطالعني ضوء الثَّلَّاجة إن فتحتُها حتَّى أحشرَ نفسي في إحدى الزوايا، وأبكي. وأموت من الفزع ما إن تتهيَّأ دراجة التوكتوك التي يملكها فرنكو والد ريفِهْ - للرجوع ، ويخرج عنها ذلك الضوء

الأبيض.

عندئذ، لذتُ بالحمَّام، وتكلَّمتُ مع أُمِّي لمدَّة ساعة تقريباً.

"لا يمكن للرجل الحقيقي أن يقضيَ حياة كاملة تحت التهديد"، هكذا قالت لي، وداعبتْ شَعْري، وإن كنتُ جالساً على مقعد المرحاض.

فكَّرتُ قليلاً في الأمر، ثمَّ أمسكتُ يدها. راقَني أن أُمسكَها، لأنها كانت طَرِيَّة. "لو لم أكن كذلك، لَأَخذتْني مِنْزاسنيور بالفعل"، أجبتُ.

"لكنَّكَ لا زلتَ حَيَّاً".

يا إلهي، كم كانت مُحقَّة.

فجأة، استحال كل ذلك الرعب إلى شجاعة.

"شكراً، يا أُمَّاه"، قلتُ، وفتحتُ باب الحمَّام.

لو تأخَّرتُ دقيقة واحدة أخرى، لكنتُ استسلمتُ لِمِنْزاسنيور. وإن كان عليَّ أن أموت، فهذا ممَّا سأُقرِّره أنا بنفسي.

"بِيْ"، نادتْني هي.

"ماذا، يا أُمِّي؟".

"تذكَّرْ: الخوف كذبة".

فكَّرتُ في الأمر للحظة. "حسناً". وخرجتُ راكضاً من الحمَّام.

"لم تسحب السيفون"، قالت نينا، التي كانت قد آوت إلى السرير.

"أجل، لقد سحبتُهُ"، أجبتُها، لكن ذلك لم يكن صحيحاً.

ثمَّ قلتُ إنني عليَّ الذهاب إلى مكان ما. "سأرجع حالاً".

"وإذا متَّ؟".. إنها تفهم كل شيء، وأنا لا زلتُ أحسبها صغيرة. إنها شبه عبقرية. هل تبنَّاها أبواي، أو أنهما تبنَّياني أنا؟!

"لن أموتَ".

"ولكنْ، إذا مِتَّ، ماذا يجب أن أقول للجَدَّة؟".

"قولي لها إنني ذهبتُ، لأُطعِمَ لوبو، وإن لوبو التهمَني".

ابتسمتْ نينا. كان من المستحيل على لوبو أن يلتهمَ أحداً، فهو كلب هَرِم جدَّاً، عمره عشرون عاماً تقريباً. "حسناً، ولكنني سأعود باكراً".

"حسناً، ولكنْ، عُدْ بسرعة".

نزلتُ إلى المطبخ مثل سبع الجبل، وأخذتُ من أحد الأدراج مصباحاً يدويَّاً. ثمَّ صَعِدْتُ إلى غرفتي، وخرجتُ إلى الشرفة الصغيرة، وتسلَّقتُ مستعيناً بكُلَّابات المزراب. عندما وصلتُ إلى السطح القِرْمِيْديِّ، قفزتُ إلى سطح البيت المجاور، ثمَّ نزلتُ إلى الأسفل عبر مزراب آخر، ووصلتُ إلى الدَّرَج الحجري المقابل للشارع. كان ثمَّة بوَّابة، لم يكن لها قفل أبداً. دقَّت ساعة الساحة الحادية عشرة ليلاً، ولم يكن يوجد أيُّ كائن حَيٍّ في الأطراف.

وصلتُ إلى البرج من دون أن أقابل أشباحاً، وكان كل شيء غارقاً في الظلام.

أشعلتُ المصباح في قاعدة السور، ووضعتُهُ في فمي، فأنا بحاجة إلى يَدَيَّ للصعود. تسلَّقتُ، إلى أن وصل رأسي وفمي إلى مستوى الثغرة.

كنتُ أرتجف مثل مجنون، وأشدُّ على عينَيَّ، لأنني كنتُ خائفاً. ثمَّ فتحتُهما رويداً رويداً.

لم يكن ثمَّة ضوء هناك. حدَّقتُ بشكل أفضل. لا شيء.

عندئذ أحسستُ بأنني قويٌّ مثل ساندوكان وكلّ نمور ماليزيا مجتمعة معاً، بل أكثر من ذلك، مثل أسد حقيقي، وقرَّرتُ الدخول من الثغرة مثلما كنَّا نفعل أنا وريفِهْ. كان المصباح ثابتاً دائماً في فمي، ويُوفِّر الكثير من الضوء.

أدخلتُ إحدى القَدَمَيْن ببُطء، في البداية، ثمَّ الساق كلّها، ثمَّ القَدَم الأخرى والساق الأخرى. خلال هُنَيْهَة، كنتُ في الداخل.

كانت هناك رائحة بَوْل وعفونة. أمسكتُ المصباح بيَدِي، وسلَّطتُ الضوء في الأرجاء.

إن المكان مخيف أكثر في العَتْمَة، ولكنْ، كم من الأشخاص في أريليانا دخلوا ليلاً إلى البرج بمفردهم ؟ لو رويتُ ذلك لريفِهْ، لما صدَّقني. حينها، كنتُ سأجعله يرى بنفسه.

حين وجَّهتُ المصباح جهة السقف، بدا أنه يغصُّ ببريق عيون الخفافيش. اكتشفتُ في صغري مع ريفِهْ أنه، إذا لم تُزعَج الخفافيش، فإنها ستتصرَّف، كما لو أنكَ غير موجود.

ثمَّ سمعتُ بعض الجَلَبَة.

شعرتُ ببرودة في ظَهْري.

توقَّفتُ.

كان مثل حيوان ضخم يتحرَّك. أدرتُ المصباح في ذلك الاتِّجاه، ولكنْ، لم أرَ شيئاً.

كان الضجيج يأتي من الزنزانات، هناك في الأسفل.

ومن ثمَّ، ما من شيء يُسمَع، روع الصمت والخَوَاء فحسب.

عندئذ، عاودتُ المشي، إلى أن سمعتُ صوتاً فجأة، ثمَّ أمسى الصوت صخباً، كما لو أنه من صنيع حيوان ضخم يتدحرج. كان يوجد ثقب في منتصف الأرضية، وقد قفزْنا منه ألف مرَّة نحو الزنزانات.

ورغم قَرَفي بسبب البَول، استلقيتُ على الأرض، ونظرتُ إلى الأسفل. نقلتُ المصباح يمنة ويسرة، لكنْ، لم تكن توجد حيوانات هناك في الأسفل، إنّما شيء ما بالقُرب من الجدران، لم أُخمِّن ما هو. ربَّما حيوان، كلب أو هرَّة. ربَّما فأر.

حينئذ وضعتُ المصباح بين أسناني، ونزلتُ متَّكئاً على ذراعَيَّ: كان الفرق في الارتفاع بضعة أمتار.

كان هناك المزيد من الرائحة الكريهة. لا بولاً ولا عَرَقاً، بل رائحة عَرَق نفَّاذة قوية، كما هي رائحة مرور أحد المتشرِّدين بجانبكَ في ميلانوكس.

ركَّزتُ الإضاءة جيِّداً. ثمَّة فَرشتان مُسْوَدَّتان من الوساخة، ونصف مُهترِئَتَيْن على الأرض، بعض الكُتُب (كان أحدهما مفتوحاً ومقلوباً)، وبقايا طعام، ووعاء مملوء إلى نصفه، و هارمونيكا ملقاة على بطَّانيَّة مثقوبة، وملابس متراكمة في الزاوية/ وعقب شمعة. هذا هو الضوء ربَّما. أنا في أمان على الأرجح، وما من ضوء قادم، ليأخذني. لا بُدَّ أنه هكذا.

شعرتُ أنني قوي كالأسد. كنتُ أسداً.

أضأتُ ثانية كل الأرجاء، ولمستُ غلاف الكتاب المفتوح بقَدَمِي. كان مكتوباً بلغة ليست لغتي. تلاشت الجَلَبَة، واختفت الأضواء. ثمَّة شخص قد عاش هنا.

أُمِّي على حقٍّ، الخوف مجرَّد كذبة. نظرتُ حولي ثانية لبُرْهَة، من دون أن أعثرَ على شيء آخر. ثمَّ عدتُ إلى البيت.

نينا نائمة في الغرفة.

نزلتُ إلى المطبخ، وقبل أن أضعَ المصباح في الدُّرج، أَنَرْتُهُ. ثمَّة رأس منحوت من الخشب على الخزانة، دَرَجَ على إخافتي مراراً، ومكتوب تحته: القائد بنيتو موسوليني. هذا الاسم، سمعتُهُ سابقاً في المدرسة، رغم أنني لا أتذكَّر مَنْ هو. كنتُ أعرف فقط أنه شخص عنيف. الوجه مُحتقِنٌ جدَّاً، وفي كل مرَّة أمرُّ بها من هناك، أنظر إليه، لأنه، عاجلاً أم آجلاً، كان عليه أن يتغيَّر. لكنه لم يتغيَّر أبداً. اقتربتُ منه، ولمستُهُ. مع ذلك، حسب رأيي، عندما لا ينظر إليه أحد، يبتسم.

صَعِدْتُ ثانية إلى الغرفة، وكانت نينا تواصل نومَها والملاءة تُغطِّيها حتَّى العينَيْن. كانت تشخر قليلاً أيضاً. تصنَّعتُ السُّعال مرَّتَيْن، لأنني وددتُ لو تستيقظ. من المُجدي دائماً التَّحدُّث إلى أحد ما، بعد الإقدام على فعل جريء.

"هل عدتَ؟"، سألتْ، وبدا واضحاً أنها كانت ما تزال نصف نائمة.

"نعم".

"كم الساعة الآن؟".

"الثانية عشرة والنصف".

"كيف حال لوبو؟".

"جيِّد. تركتُهُ نائماً". انتظرتُ قليلاً، لكنها لم تسألْني مجدَّداً. عندئذ، قلتُ لها: "دَعِيْنا نتحدَّث".

لكنْ، بدا جَليَّاً أنها مُتعَبَة جدَّاً، لأنها غَفَتْ ثانية، وعندما تنام، تتبدَّى فتاة ذات جمال نادر، والغريب أنها تُبقي عينَيْها مفتوحَتَيْن قليلاً، وبالفعل، منذُ صغرها، عندما ترغب بالتظاهر بالنوم، تُغلقهما مثلما يفعل الجميع، ونحن كنَّا نكتشفها على الفور. إنه أمر نعرفه أنا وأُمِّي فقط، كلَّا، وأبي يعرفه أيضاً، بينما نينا لا تعرفه، لأنها ربَّما ستخاف، إذا علمتُ أنها تنام مثل ميتة. وأكثر ما كان يُحبِّبُني بها هو غرابتها، لأن

الأشياء العادية هي من خواصِّ الجميع، إنما نينا فريدة من نوعها. وإذا كنتُ قد تحوَّلتُ إلى أسد، فلأنها كانت تنام تماماً مثلما يجب أن تفعله أيَّةُ طفلة.

.8

أردتُ أن أُخبرَ ريفِهْ، لكن السِّرَّ عندما يُفشَى يذوب مثل الآيس كريم الذي نأكله مع الجَدَّة بعد القيلولة، ونحن جالسون على دَرَجِ البيت.

لذا خرجتُ وذهبتُ إلى سفينتي، الشيء الوحيد المتاح أمامي. لا بُدَّ من عبور بعض الأزقَّة، ومن ثمَّ الوصول إلى الساحة الصغيرة ذات النافورة، حيث يسكن القاضي لوبيانو. ها هي، على جدار منزل غير مأهول، حيث تبرز بعض قضبان الحديد الصَّدِئَة. كانت سفينتي لا تزال راسية هناك، ولم تتحرَّك منذُ العام الماضي.

"إنها سفينة"، هكذا قال ريفِهْ وهو ينظر إلى الجدار في المرَّة الأولى التي مررْنا بها من هنا، وهي سفينتي بالفعل، ويمكننا الصعود على متنها أنا وأُمِّي فقط. حتَّى ريفِهْ لم يكن مسموحاً له الصعود على متنها، ولا حتَّى نينا، أنا وأُمِّي فقط.

"ماما، إلى أين نذهب؟"، سألتُها.

كنتُ أرغب في اصطحابها، لتقوم بجولة جميلة.

"دَعْنا نذهب إلى باريس". لقد أحبَّتْ تلك المدينة كثيراً، عندما تُصِرُّ على شيء ما، ما كان بالإمكان دَفْعها إلى تغيير رأيها. تقول إنها تحتكم على كل ما يمكن لامرأة أن تحلم به، مع أنها لم تَزُرْ باريس قطُّ.

"لكنْ، أنا أريد الذهاب إلى صقلّية، إلى أتشي وتريتسا. إنه مكان جميل جدَّاً، حيث تحدث أشياء ساحرة كثيرة". لقد حدَّثتْنا المعلِّمة عن الـ "مالافوليا(16)"، ومن يومها

وأنا أنتظر الذهاب إلى هناك، لأن صقلّية هي جزيرة الساحرات، هناك الشِّرِّيرات منهنَّ، ولكنْ، أيضاً هناك الأقلّ شرَّاً.

"لكنّكَ تُحبُّ الأسود ...".

"أنا أسدٌ، يا أُمَّاه".

"إذنْ، يتعيَّن علينا الذهاب إلى ماليزيا، إلى قلب الغابة الاستوائية. لا يوجد مكان أكثر ساحرية منه. إنه المكان الذي يعيش فيه ساندوكان، الذي يُعجبكَ كثيراً، هو ونموره الماليزيُّون".

كان هذا صحيحاً، لقد أحببتُ ساندوكان كثيراً، لأنه لم يكن يخشى أيَّ شيء، وهو الرجل الوحيد على الأرض الذي تُطأطِئ النمورُ نظرَها أمامه. لا أعلم إن كانت الأسود تفعل ذلك أيضاً.

"أريد أن أذهب إلى ماليزيا! هل هي بعيدة؟".

"بعيدة جدَّاً".

أحبُّ السفر إلى الأماكن البعيدة أكثر من غيرها، لأنه لا بُدَّ من تسلُّق الصواري للسيطرة على الأشرعة، ففي المحيط تهبُّ رياح قوية جدَّاً، وإذا لزم الأمر أيضاً، يجب صنع بعض عقد التوازن، والبقاء متشبِّثاً هناك في الأعلى لفترة طويلة، مثل ذئب بحر حقيقي.

بينما كنَّا نُبحر، خرج كلبون من عنبر السفينة، وبدأ ينبح بقوَّة كعادته، ثمَّ بدأ يُزمجر ويعضُّ رَبْلَة ساقي.

عندما وصلْنا إلى ماليزيا، نزلْنا في جزيرة مليئة بالغابات، والبحيرات، والأشجار، وحيوانات من كل الأنواع، وتبعنا كلبون أيضاً، مع أنني كنتُ أرغب في تَرْكه في أعالي البحار.

كانت هناك ببَّغاوات عملاقة حمراء وصفراء. والكثير من الأسود أيضاً، التي تثير الخوف لدى مشاهدتها عن قُرب، لأنها كبيرة جدَّاً، ومتوحِّشة.

تجوَّلْنا قليلاً في الجوار، ذهبتْ أُمِّي نحو قطيع أسود مُستلقٍ في الظِّلِّ، كانوا هادئين تماماً. ثمَّ قالت: "إنه، بحقٍّ، مكانٌ سِحْرِيٌّ، لقد فعلْنا حسناً أننا لم نذهبْ إلى باريس".

"إنه المكان الأكثر سِحْرَاً، والذي لم أرَ مثيلاً له في حياتي"، أجبتُ أنا. وكنتُ قد فعلتُ ذلك لأُغطِّي على صوت كلبون، ويتوقَّف للحظة عن النُّباح، لأسمعَ صوتي.

ثمَّ أدركتْ أُمِّي أنني أقف بعيداً بعض الشيء عن الأسود، فقالت: "تعال، يا بِيْ، عليكَ أن تأتيَ وترى. إنها ليست شرِّيرة".

عندئذ، ذهبتُ وتكلَّمتُ مع إحداها. في أثناء ذلك، داعبتْ أُمِّي أسداً، كان يُخرخر ويَلعقُها. استدارتْ ونادتْني مجدَّداً. تردَّدتُ بعض الشيء، إلَّا أنني ذهبتُ، ففي أسوأ الأحوال، فإن الأسد سيلتهمها هي، أو أنه سيُخلِّصني من ذلك الجَرو اللعين. حاولتُ أنا أيضاً، ومددتُ يدي، لم يلتهمْها، بل لعقَها. عندها بدأتُ ألعب معه، نادى على صغاره، وهم نادوا أيضاً على صغار النمر، وبدأنا نلعب معاً جميعاً. أحدهم أراد مغافلتي والهجوم عليَّ، ولكنه لم يكن مثل كلبون، لأن أسنانه كانت لا نهائية العدد. حينها اقتربتُ منه، وتوعَّدتْهُ، وللحظة كاد أن يلتهمَني بلقمة واحدة. عندما رآني كلبون، توقَّف مذهولاً، ثمَّ عاد وبدأ يعضُّ من جديد.

بدأتُ أسمع صوتاً، ولم أكترثْ له.

لكن الصوت كان مِلحَاحَاً، ومن أحد الأزقَّة ظهر ريفِهْ وهو يناديني.

اقترب وقرفص على ركبَتَيْه. "ماذا تفعل هنا جالساً على الأرض؟"، سألَني، وفي الوقت نفسه عانقَني. أنا لا أعرف ما الذي جرى له، لم أره أبداً بهذا الحنوِّ. كنتُ أقوم بمهمَّة في ماليزيا، وقد أتى ليُزعجَني.

"ولكنْ، ماذا جرى؟ لماذا تبكي؟".

أخرج منديلاً من جيبه، يعلم الله كم هو مُقرِف، ومن كل عقله، كان عليَّ أن أستخدمه أيضاً. "خُذْ، امسحْ عينَيْكَ، وتمخَّط"، قال، ثمَّ تابع:

"تبدو كفتاة صغيرة، مع كل هذه الدموع". كان ذلك جنوناً تماماً، ولم أعرف أين كان يجد هذه التهويمات.

ومع ذلك، ولأجعلَه مسروراً، نهضتُ على قَدَمَيَّ، وتمخَّطتُ أيضاً، وجفَّفتُ عينَيَّ بمنديله القذر.

نظر ريفِهْ إليَّ بطريقة غريبة، كما لو أنني مُعاق.

"أنا ذاهب إلى السَّيْل"، قال بصوت خافت، وهو يستعيد ذلك المنديل المُقرِف. "هل تريد أن تأتيَ معي؟". يُؤسِفُني مفارقة ماليزيا هكذا.

نظرتُ حولي، الأسود كلّها لا تزال هناك، وأبدوا أسفاً على أنني مفارقهم. لكن كلبون كان قد توقَّف عن النُّباح، الآن فقط حين بدأنا نلهو.

بعد ذلك نظرتُ إلى ريفِهْ.

ودَّعتُ أُمِّي، وغادرتُ.

حتَّى في تلك المرَّة، كنتُ قد نسيتُ أن أطلب منها الإجابة عن ذاك السؤال، فكَّرتُ بالأمر عندما كنَّا في الطريق، لكن كلبون أيضاً أَحدثَ الكثير من الصخب، حتَّى إنني نسيتُ السؤال في تلك اللحظة.

عندما وصلْنا السَّيْل، كانت المياه أقلَّ من العام الماضي، جافَّاً تقريباً، ومليئاً بالصخور. الشيء الوحيد الذي كان يفعله ذلك السَّرَيَانُ المتعرِّج، هو رسم الحدود بين

الأراضي الميتة وتلك الخصبة. توقَّفْنا تحت ظلِّ نبتةٍ لتدخين سيجارة، فريفِهْ يُدخِّن أحياناً، خفية، وأنا أشاركه ذلك. ثمَّ قرفص على ركبَتَيْه، رفع ذراعه بين الأغصان، وأشار إلى البعيد. كان هناك زوجان مُستلقيان على صخرة أكبر من الأخريات، يتعانقان ويتحرَّكان بطريقة غريبة. كانا نصف عاريَيْن.

شعرتُ بالحَرَج، لم يسبقْ لي أن شاهدتُ شيئاً من هذا القبيل، كانا يُصدِران أصواتاً غريبة جدَّاً.

حرَّك ريفِهْ معصمَهُ إلى الأمام وإلى الخلف. "إنهما يتضاجعان"، قال، وكشَّر عن أسنانه الكبيرة. "دعْنا نقف هنا، ونتفرَّج".

لم يُعجبْني ذلك، بدا أنهما شخصان يفعلان شيئاً مثيراً للاشمئزاز، ولهذا كانا يختبآن." لا يروقُني ذلك"، أجبتُ.

"أنتَ غير طبيعي"، قال ريفِهْ، "ومتى يصادفكَ مشهد بهذا القُرب؟".

لكنني ذهبتُ لأتجوَّل.

لافتة قديمة من الصفيح المعدني مثقَّبة برصاص بندقية كانت تشير إلى سيل أولمو. كان أبي قد فَقَدَ حذاءه في ذلك السَّيْل خلال رحلة مدرسية، في أثناء مرحلته الإعدادية، عندما كان في سنِّي. كان قد خلعهما، مع البنطال والقميص، ونزل في السَّيْل، ليستعرض جُرأته أمام رفاقه. وبما أنه كان يخشى على الحذاء من السرقة، فقد حمله معه، رفعه عالياً بيَدَيْه، ونزل، لكن التَّيَّار كان قويَّاً، فبدأ أبي يترنَّح، وسقط الحذاء منه. جَلَدَهُ والدُهُ بالحزام، ولم يتمكَّن من الجلوس لثلاثة أيَّام من الألم.

التفتُّ نحو ريفِهْ، وكان واضحاً أنه يشعر بالمَلَل، فقد كان يتسلَّى بالتشمير عن ساعدَيْه. فكَّرتُ أن أبوحَ له بسرِّي، يعلم الله مَنْ يعيش داخل البرج!

ولكنْ، وأنا أهمُّ بالحديث، قال ريفِهْ: "أريد أن أرى مَنْ هم". التقط حجرة، ورماها،

لكنها سقطت بعيداً. اختار واحدة أكبر حجماً، ورماها بقوَّة أكبر.

رفع الرجل رأسه، بسبب الضَّجَّة.

"لا أعرف مَنْ هو"، قال ريفِهْ. "إنه غريب".

لكنْ، يبدو أن الرجل رآنا، فوقف على قَدَمَيْه، زرَّر بنطاله، وبدأ يعدو خلفنا. هربْنا. لم تكن السباحة في السَّيْل ممكنة.

حال وصولي للبيت، أخذتُ المصباح، وضعتُهُ في جيبي، وعُدْتُ إلى البرج. أنا كنتُ قد رأيتُ ضوءاً هناك في الداخل، وبما أنها لم تكن مِنْزاسنيور، فقد رغبتُ بمعرفة مصدره.

كنتُ أكثر شجاعة في ضوء الشمس، لم ألحظْ من قبل ما تهبُهُ الشمس من شجاعة. عندما أبلغ، سَأَشِمُ نفسي بوشم كبير، فيه شمس جميلة ملوَّنة. الهواء مُنعِش. احتطتُ لئلَّا يراني أحد، لم أشأ أن أتركَ أثراً، فالأخبار تطير في أريليانا، إذا أقدمتُ على فعل، لا ينبغي عليكَ فعله، فمن المؤكَّد أنه حين تعود إلى المنزل، ستنال صفعة من أبيكَ.

خلعتُ حذائي خلف البرج، لأُقلِّل من الضَّجَّة قَدْر الإمكان، إذا كان يوجد شخص هناك، فلا يجب أن يسمعَني، تركتُهُ هناك في الأسفل، بالقُرب من جدار الكنيسة الأُمِّ.

دخلتُ وانتظرتُ إلى أن اعتادت عيناي على الظلام.

ثمَّة ضوء كافٍ يدخل من الثغرة، يُتيح الرؤية حتَّى من دون مصباح. أردتُ هذه المرَّة أن أنزل من الثقب الرئيس، كان عليَّ فعل ذلك ببُطء شديد.

اقتربتُ من الدَّرَجَات التي تنحدر إلى الزنزانات.

رائحة البَوْل والعَرَق ما زالت هناك، ممزوجة بالطعام الفاسد والعفونة، أشعرتْني بالتَّقيُّؤ.

ثمَّ استدرتُ، وفي تلك اللحظة وجدتُهُ أمامي.

كان أطولَ منِّي.

قفزتُ خطوة إلى الوراء، وصرختُ من الخوف، ودون وعي، أمسكتُ بالكيس الذي أحمله مربوطاً على رقبتي، ووجدتُ نفسي ملتصقاً بالجدار.

رفع الطيف يده.

لم أعرفْ ما الذي عليَّ فعله، الشيء الوحيد الذي خطر ببالي هو أن أسحب المصباح من جيبي. ثمَّ رفع الطيف يده الأخرى أيضاً. حينئذ، أضأتُ المصباح في وجهه، فقلَّص عينَيْه، واستدار خائفاً، لقد أَفزعَهُ الضوء. أخفضتُ شعاع الضوء، فالتفتُّ، ولكنه ظلَّ محتفِظاً بيده أمام وجهه، ثمَّ أنزلها ببطء.

كان صبيًّاً.

شَعْره داكن، لكن عينَيْه فاتحتان، لأنهما التمعَتَا عندما خَفَضَ يَدَيْه.

"لا تُطلِقِ النارَ"، قال.

لُكْنَتُهُ أجنبية، لكنه كان يتكلَّم لغتنا.

" مجرَّد إنه مصباح. مسدَّس ليس"، أجبتُ أنا على طريقة هندي أحمر.

ثمَّ جاءت أصوات من الخلف.

صوَّبتُ الضوء نحو الأصوات، ورأيتُ في الفُسْحَة جميع أفراد العائلة، أو على الأقلِّ

مجموعة من الرجال والنساء، جالسين على الأرض، على فراش وقطعة قماش كبيرة ممدودة.

إنهم مهاجرون، وقد اكتشفتُ أمرهم.

رجل واحد منهم وقف على قَدَمَيْه ويده على رأسه، وقميصه أبيض - فلنقل أبيض - خارج من بنطاله.

ثلاث نسوة يُمسكنَ ركبهنَّ بأذرعهنَّ، وبالذراع الأخرى يقمنَ بحماية أعينهنَّ من الضوء، ورؤوسهنَّ مغطَّاة بالشالات، مثل الجَدَّة في فصل الشتاء أو عندما تذهب إلى الفرن.

رجلان آخران يضعان أذرعهما أمام أعينهما.

نحَّيتُ الضوء جانباً، فكشفوا عن وجوههم، فرأيتُ وجه الجوع. يا أُمَّاه! كم كان قبيحاً. لم أشاهد شيئاً أكثر قُبحاً أبداً في هذا العالَم. كانوا بشراً، لكنهم أشبه بهياكل عظمية، وأعينهم تكاد تخرج من محاجرها. ربَّما كانوا التهموني تماماً لو وقعتُ بين أيديهم، ولَمَا كانوا وفَّروا عظامي، ولا حتَّى حذائي.

رغم أن الشجاعة خصلة لا تنقصني، إلَّا أن عددهم كان كبيراً، وكانوا يُحدِّقون بي، كما لو أنهم يريدون افتراسي.

من الصواب أن يكون المرء شجاعاً كالأسد، لكنْ، من الضَّروريِّ أن يكون أيضاً ماكراً كالثعلب.

عندئذ، استدرتُ وهربتُ. مُمسِكاً بالكيس بقوَّة في قبضتي، ركضتُ بأسرع ما بمقدوري.

(16) رواية لجوفانّي فيرغا، أحد أهمِّ كُتَّاب الواقعية الإيطالية (1840-1922).

.9

كان يوم الاثنَيْن، وكأيِّ اثنَيْن، تعشَّى جَدِّي مع أصدقائه في النادي الاجتماعي، وبالتالي فإن الأب يوستاكيو حضر لتناوُل الطعام مع الجَدَّة وهو يقول لها طيلة الوقت إن حضور القدَّاس لم يكن ليُكلِّفها شيئاً. جَدَّتي لم تذهبْ مطلقاً إلى الكنيسة، لأن لديها دينها الخاصَّ، فهي تُحبُّ السَّيِّدة العذراء السوداء فقط، لأنها كانت تختلف عن العَذراوات الأخريات ذوات الخدود المتورِّدة، كما أنها ترسم علامة الصليب على الخبز، وتشفي الناس من عيون الحسد، وقد اعتادت الصلاة وحدها، الأمر الذي لم يمنعْني من سماعها تتلو وهي تغسل الأطباق: السلام عليكِ، يا مريم. أو تتلو الراحة الأبدية، إذا ما مات أحدهم.

لم أكن حتَّى جائعاً في الحقيقة، بعد ذاك الذي رأيتُهُ في البرج. كنتُ لا أعرف ماذا أفعل.

كان الأب يوستاكيو بديناً، ويتصبَّب عَرَقاً، وقد جاء من ماتيرا، ليحتسيَ ليترات من النبيذ، ويأكل مثل ثور، ويتحدَّث بلا توقُّف، ناثراً رَذَاذَ لُعابه من فمه.

أوَّل ما أشاح بناظرَيْه عن الصحن، نفختْ نينا خَدَّيْها، وقلبتْ جفنَيْها، لِيَبْدُوَا مثل عينَي سمكة، مُقلِّدة الأب يوستاكيو، باصقة مثله فُتات الخبز. لم تلحظْ الجَدَّة أيَّ شيء. حركات نينا هذه، عادة ما كانت تُضحِكني كثيراً، فتكشفنا الجَدَّة بعد دقيقة، لكنْ، هذه المرَّة بدا وكأن نينا لم تفعل شيئاً؛ لدرجة رمقتْني بنظرة تعتليها الحَيْرة.

التهم الأب يوستاكيو طَبَقَيْن من الأوريكييتِّي(17) بصلصة لحم الجَدْيِ، وطلب بلطف أن يأخذ معه طَبَقَيْن آخرَيْن إلى البيت لليوم التالي.

حضر نينوتشو لتناوُل القهوة، إنه رئيس البلدية والحفيد المباشر للجَدَّة، والقاضي لوبيانو، الرجل المُفضَّل للجَدَّة على جميع الناس. القاضي لوبيانو وعائلته يعيشون في قصر نبلاء، وبالنسبة إليها، لم يكن في الكون منزل أجمل منه. جلبت الجَدَّةُ النبيذَ الجيِّدَ والأبَ يوستاكيو ابتهجَ مثل رضيع.

الأسرار تُقْلَى، فحتَّى إذا كنتَ لا تريد بوحها، فإن الرائحة تُشتمُّ من بعيد.

كنتُ قد قرَّرتُ ألَّا أبوح بسرِّي أبداً لأصدقائي، لأن دومينيكو سيُشيِّعه في الساحة أمام الجميع، وبالتأكيد، سيذهب ريفِهْ، ليستطلعَ الأمر. كنتُ لا أريد أن أُخبرَ حتَّى أُمِّي بذلك، كانت ستغضب، لأنني ذهبتُ إلى البرج، ومن ثمَّ تُعاقبني.

لكن نينا كان تشمُّ رائحة القَلي، وتُحدِّق بي من بعيد.

كانت تراقبُني، من دون أن تُكلِّمَني.

والسِّرُّ أقوى منِّي، ولم يعد بإمكاني الاحتفاظ به في داخلي. وتلك اللعينة نينا، بعينَيْها الصغيرَتَيْن تراقبُ أيَّ شيء أقوم به.

ربَّما كانوا بحاجة إلى مساعدة أيضاً.

لذلك، في المساء، وبعد أن أويْنا إلى السرير، اتَّخذتُ قراري، وبُحتُ لها به.

استلقتْ نينا على جانبها، وأصغتْ إليَّ. لم أتمكَّن من توقُّع ما سيكون عليه ردُّ فعلها، فهي تلقَّتْهُ كأمر طبيعيٍّ.

"لن يعرفوا إلى أين سيذهبون"، قالت، "لعلَّهم مُجبَرون للبقاء على قيد الحياة في منتصف ذلك القَرَف".

انتابتْني بعضُ الخيبة، ولكنْ، هذا طبعها، تمنح الرضا للأشياء التي تُقرِّرها هي

فقط، وليس لتلك التي ينتظرها الآخرون.

ثمَّ قرَّرْنا معاً أن نُخبرَ الجَدَّة، وكان اليوم التالي الفرصة المثالية، حيث سيذهب الجَدُّ مع فرنكو، والد ريفِهْ، لجَمْع الحَلَزُونَات والقواقع التي تُؤكَل في أريليانا مع المَرَق.

كنَّا نجلس على الطاولة، وكنتُ متوتِّراً قليلاً، لم أعرف كيف أبدأ، وتلك الغبيَّة نينا لم تُبدِ أيَّ عون لي ، اسمتعتْ بالمشهد فحسب. عندئذ، لجأتُ إلى الحيلة التي أعتمدها في الامتحان، حتَّى إن لم تكن مُجدية بالضرورة، نظراً للنتائج، لكنّي كنتُ لا أعرف أفضل منها. أغمضتُ عينَيَّ، وتركتُ الكلمات تتوالى وحدها.

"جَدَّتي، عائلة من المهاجرين القذرين تختبئ في البرج، النساء يُغطِّينَ رؤوسهنَّ بالشالات، والرجال كُثُرٌ، ويجلسون جميعهم على الأرض، ولا ينامون، لأن ثمَّة رائحة كريهة طاغية، ولم يأكلوا منذُ عام على الأقلِّ، عليكِ أن تشاهدي وجوههم".

تلك الكلمة: "قذرين"، أضفتُها لإضحاك نينا، لأنها حسَّاسة دائماً تجاه الأشياء ذات الرائحة الكريهة. لكنها لم تضحكْ، كان جُلُّ اهتمامها مُنصبَّاً على الجَدَّة.

ظلَّت الجَدَّة متماسكة، وتابعت التحديق في الطبق. نفس تكتيك الحفيدة. "ماذا تقول؟!"، سألتْ، بينما كانت تغرس الشوكة في الكافاتيللي(18)، لكنها كانت قد أَنصتَتْ جيِّداً. بل استوعبتْ كل شيء.

"ثمَّة عائلة كاملة تعيش داخل البرج".

"وأيَّة عائلة هذه؟". كانت الجَدَّة بارعة جدَّاً في التظاهر بعدم الاكتراث، لكنني كنتُ أُضاهيها براعة.

"عائلة من الأجانب، يا جَدَّتي. استيقِظِي!".

ضحكتْ نينا أخيراً.

"وأنتَ، كيف عرفتَ ذلك؟".

"لأنني دخلتُ إلى البرج".

"وكيف دخلتَ إلى البرج؟".

كانت تُفقِدني صبري مع كل تلك الأسئلة، وكنتُ قد ندمتُ، لأنني بُحتُ لها بسرِّي.

شربتْ رشفة من النبيذ، لكنْ، كان واضحاً أن الأمر لم يرقْها، وأنها شربت النبيذ، لتُظهِر لي عدم اكتراثها. وبالفعل توقَّفتْ عن الكلام. حتَّى إنها بدأت في تقطيع الخبز، كانت تلك الجَدَّة ماكرة جدَّاً.

لم أردْ أن أكشف لها أنه منذُ صغرنا، أنا وريفِهْ، كنَّا ندخل إلى البرج، ولكنَّ عينَي نينا كانتا ترمشان، كما لو أنها يجب أن تتحدَّث، عندئذ استسلمت.

"إنه مليء بالثغرات، ويمكن لطفل الدخول منها".

استغرقت الجَدَّة في التفكير:"وهل تكلَّمتَ مع هذه العائلة أيضاً؟ ... هل تكلَّمتَ معها؟".

"لقد تكلَّمتُ مع الصَّبيِّ فقط". أرادت الجَدَّة أن تنتزع منِّي الكثير من المعلومات من دون أن أشعر بذلك. لكنني سأُريها، سأرمي بالقنبلة الآن. "وقد قال لي أيضاً: لا تُطلِق النار".

بام - بوم.

لكنها ظلَّت هادئة.

"آه ... إذنْ، كان بحوزتكَ مسدَّس؟ براڤو!". غمستِ الخبزَ في الصلصة ببرودة، كما لو أني طفل يروي حماقات كثيرة.

"كان بحوزتي مصباح!".

"وكنتَ ستُطلق عليه النار بمصباح اليد؟".

"لقد آذيتُ عينَيْه". لم تنبس الجَدَّة بكلمة بعد ذلك. كانت نينا تُحدِّق بي، وبدا واضحاً أنها تريد أن تُبدي رأيها، لأنها تُحبُّ دائماً أن تضيف شيئاً ما، إنّما هذه المرَّة لم تعرف ماذا تقول.

خيَّم صمت رهيب. عندما تريد الجَدَّة أن تكون غامضة، تُقلقُكَ حقّاً، لأنها تبدو على كوكب آخر، وليست على الأرض. نظَّفْنا الطاولة، ثمَّ قالت لي الجَدَّة: "لحسن الحظِّ، جَدُّكَ ليس هنا اليوم، وإلَّا لجَعَلَكَ تتذكَّر هذا طيلة عمركَ". أنا ونينا وضعْنا الأطباق بهدوء في المَجْلَى.

ثمَّ، وللمرَّة منذُ عرفناها، بدلاً من أن تصعد الدرج إلى غرفتها، لتستريحَ، اتَّجهت الجَدَّة نحو الباب الخارجي، وخرجتْ.

سمعْنا مَنْ يصرخ ويدعوننا بأسمائنا، عندئذ خرجْنا بسرعة، لأننا اعتقدْنا أن شيئاً ما قد حدث، لكنْ، كان العمُّ سلفاتور، مُتسمِّراً على كرسيِّه، وعُكَّازه مسنودٌ على الجدار. ربَّما كان قد رأى الجَدَّة تخرج بسرعة، ويريد أن يعرف ماذا حدث.

تملَّكني الخوف، لأني ظننتُ أنه اكتشف أنني سرقتُ نقوده، وأن هذا العجوز المعتوه سيجعلُني أدفع الثمن الآن، كان الأمر سيِّئاً، لأني شعرتُ وكأنني لصٌّ.

عندما رآني قادماً نحوه، بادرني العمُّ سلفاتور قائلاً: "كيف تسير الأمور؟ كيف تسير الأمور؟"، وهو يُحرِّك يَدَيْه المضمومَتَيْن إلى الأمام وإلى الخلف، فقد كانت طريقته للاحتفاء بي منذُ أن كنتُ صغيراً، وكان يفعل ذلك كلَّما رآني. وما أدراني كيف تسير الأمور؟ لكنه كان قد اكتشف كل شيء فعلاً، لأن كارمينِهْ، ساعي البريد، كان قد أخذ الظرف، ولاحظ الشريط اللَّاصق، وذهب ليُخبرَه بالأمر، في أريليانا، حتَّى القطط تحشر أنوفها في شؤون الآخرين. لم يكن العمُّ سلفاتور غاضباً، رغم أنه قال لي إنه

ليس من الإنصاف سرقة رجل عجوز. لكنه أدرك أنني كنتُ أُحسُّ وكأنني دودة، عندئذ عانقَني بشدَّة لفترة من الوقت. ثمَّ سأل لماذا خرجت الجَدَّة بتلك اللهفة؟ أجبتُهُ أن لديها أمراً عاجلاً تريد القيام به في المتجر، وكانت هذه كذبة بريئة أخرى.

ولكنْ، لِوَضْع الأمور في نصابها، طلب منِّي أن أصحبه لشراء الملح من بائع التبغ(19)، فقد كان نفد، ولا يستطيع ممارسة الأشياء الاعتيادية مثل المشي وفَتْح زجاجة النبيذ. ذهبتْ نينا إلى البيت. حينئذ، وضعتُ ذراعي تحت إبط الرجل المُسنِّ، وساعدتُهُ على النهوض، وبينما كنَّا نمشي، قال إنه لا ينبغي لنا أبداً البقاء دون ملح، لأن كل ما يحفظ الحياة موجود في الملح، أو بالأحرى، قال تحديداً: "ذلك الذي يحفظُ"، وفهمتُ على الفور أنه يقول ذلك لأجلي، فيجب عليَّ أن أعترف أنه، منذُ أن رحلتْ أُمِّي، ووجدتُ قُصَاصَة الصورة تلك، كنتُ أتَلفَّتُ حولي بين الحين والآخر، لأرى فيما إذا كان يمكنني العثور على النصف الآخر منها. لا يهمُّ أين، كنتُ أتحرَّى كل شيء، علَّها تكون موجودة في مكان ما، أو تركتْها هنا أو هناك، مع إحدى جُملها القصيرة المكتوبة، لتُجيبَ عن سؤالي الذي وجَّهتُهُ لها، حيث في كل مرَّة كنتُ أتحدَّث معها، كان كلبون يُثير الصخب، وينتهي بي الأمر إلى أن أنسى السؤال. "هل تعرف ما هي الأشياء التي يحتويها الملح؟"، سأل العمُّ سلفاتور بينما كنَّا نسير، متأبِّطاً ذراعي، ومُتَّكئاً بطرفه الآخر على العُكَّاز.

فكَّرتُ في الأمر، لكنه كان سهلاً. "في المعكرونة والصلصة. في الأوريكيتّي ولحوم الجَدَّة. وجَدِّي يشكو من أنها تُقلِّل الملح، رغم أنه يعاني من ضغط الدَّم المرتفع".

"ولكنْ، ماذا تقول، يا صغيري؟". عادة ما أكره كلّ أولئك الذين يخاطبونني بهذا الشكل، إنما ليس العمّ سلفاتور، فهو يمكنه أن يقول كل ما يريده، "أَصِغِ إليَّ جيِّداً. الأشياء التي يحتويها الملح هي العَرَق، الدموع والبحر".

"أين سمعتُم هذا، يا عمِّي سلفاتور؟".

لكن سؤالي كان محض مجاملة ليس إلَّا، في النهاية، كنتُ قد سرقتُ للتَّوِّ نقوده.

فكَّرَ قليلاً في سؤالي، ثمَّ قال: "لا أتذكَّره، يا بيللي الصغير". كان يُخاطبني أحياناً باسم حفيده، ولا أهتمُّ لذلك. "لقد قاله أحدهم، لكنني مُسنٌّ كثيراً لأتذكَّر اسمه، وعلى أيِّ حال مَنْ يهتمُّ بمَنْ قاله، لقد قلتُهُ أنا الآن". لدى ذلك الرجل العجوز صناديق كثيرة متراكمة في رأسه، ويبدو أنه، بين الحين والآخر، تسقط إحداها، وتصل بعض الكلمات إلى فمه. لكن قصَّة الملح تلك كانت جميلة.

ورحتُ أُفكِّر بها وأنا عائد برفقة العمِّ سلفاتور، مع كيس الملح، وكنتُ سأُخبر نينا بها أيضاً، وقد خلصتُ إلى أن الدموع ضرورية بالتأكيد. في يوم ما، أنا ونينا وأبي سنعرف ماذا تُحضِّر أُمِّي لنا، لا بُدَّ أنها تُحضِّر مفاجأة رائعة، فهي لم تستغرقْ أبداً كلّ هذا الوقت في تحضير أي شيء، ولا حتَّى مأدبة عشية عيد الميلاد حين كانت تُحضِّرها للعائلة بأكملها. سوف تكون أجمل مفاجأة في الحياة. ربَّما تُحضِّر البحر، أجل، سيكون جميلاً جدَّاً. لكني من الأفضل أن لا أذكر سيرة البحر أمام نينا، وإلَّا ستحزن، لأنها حقَّاً تُحبُّ البحر، أكثر من الناس العاديِّيْن. مع أننا ذهبْنا إلى البحر، مرَّتَيْن فقط خلال حياتنا كلها.

وبالعودة إلى ما سبق، فبودِّي القول بأنني كلَّما فكَّرتُ أكثر في العَرَق، عجزتُ عن فَهْمه. لأني عندما أتعرَّق لا أستفيد شيئاً، ثمَّ إن رائحته كريهة، ويؤدِّي إلى الاستحمام، الأمر الذي لا أُحبُّه، إلَّا في أريليانا، حيث يتوفَّر صابون (فالتِشهْ أتزورّا) في متجر الجَدَّة. وأنا مع صابونة (فالتِشهْ أتزورّا) مستعدٌّ للاستحمام مرَّة كل يومَيْن.

(17) أحد أشكال المعكرونة المشهورة في جنوب إيطاليا.

(18) أحد أشكال المعكرونة في جنوب إيطاليا.

(19) جرت العادة في إيطاليا، ولا زالت، أن الملح يُباع لدى بائعي التبغ.

انتشر الخبر بسرعة، حتَّى في البلدات المجاورة. وأفردتِ الصُّحُف المحلِّيَّة صفحاتها للحديث عن الأجانب الذين تمَّ العثور عليهم في برج أريليانا. إيجيديو الصّحفيّ أصبح أشبه بالنجم، والجميع يتَّصل به، ليرويَ كل ما لديه عن هذه العائلة من الغُزاة: كانت الصحف الأخرى تبحث عنه، ومحطَّات الإذاعة، وقد ظهر حتَّى في التلفزيون، جنباً إلى جنب مع رئيس البلدية والعمِّ روكّو، حيث تساءل الجميع ما الذي حشره في هذا الموضوع؟

وأصبحتُ أنا بطلاً بين أطفال أريليانا، لاكتشافي هؤلاء الأجانب. وتوقَّف ريفِهْ عن مبادلتي الحديث، فمن طبعه، إن لم يكن السَّبَّاق في أمر ما، أن يتظاهر بأنه لا يَعنيه. لكنْ، مع هذه القضية الضخمة على هذا النحو، كان من المستحيل ألَّا يهتمّ، إذ لم يسبقْ أن شُوهدتْ، عبر القرون، عائلة من الأجانب في أريليانا، حيث إن سُكَّانها هم مَنْ يرتحلون عنها، فيصبحون مهاجرين، مثل أبي وأُمِّي.

كان دومينيكو متحمِّساً، وإنتسوتشو أيضاً، وكانا متلهِّفَيْن لِلَّحظة التي يشاهدان فيها الأجانب بلحومهم وشحومهم. وما كانت باسكوينا أيضاً قادرة على كَبْح جماح حماستها، تلك الفتاة المتفجِّرة طاقة. بينما التوأم لوبيانو، وكالعادة، كانتا متماسِكَتَيْن ومهذَّبَتَيْن، من دون أن تتفوَّها أبداً بكلمة خارج نطاق الأدب، ولم أعرف كيف كانت نينا تتحمَّلهما. كان ريفِهْ برأسه الحليق، بين الحين والآخر، ولمجرَّد إزعاجهما، يَشتُمُ ببذاءة، فتحمرُّ خدودهما، ثمَّ تهربان، وعندها كنَّا نقع على الأرض من الضحك، لتكون باسكوينا أكثرنا ضحكاً.

أوَّل شيء فعلتْهُ الجَدَّة، بعدما رويتُ لها كل شيء، أنها ذهبت لتتكلَّم مع القسِّ. أسوة بأولئك الذين تتجاوز أعمارهم الثمانين عاماً في أريليانا، وكانت جَدَّتي تعرف نَفَقَاً، يقود من الكنيسة إلى زنزانات البرج. الجَدَّة تعرفه، وأنا لا! أن تكشف لي امرأة

عجوز في الثمانين من العمر سرَّاً بهذه الأهمِّيَّة، فهذا يُعتَبر هزيمة لي.

ثمَّ قامت بتحريك كل المياه الراكدة التي يمكن تحريكها. وهكذا اكتشف كل مَنْ في البلدة والمقاطعة أنه تمَّ إخفاء الأجانب هناك في الأسفل لمدَّة مئة يوم تقريباً، وأنهم تحت رعاية الأب يوستاكيو.

عندما روت الجَدَّة لنا ذلك، بقيْنا أنا ونينا مذهولَيْن. لم يكن هذا ممكناً. الأب يوستاكيو؟ لا بُدَّ أن ذاك القسَّ البدين المولَع بمعكرونة الأوريكيتّي بكرات اللحم، يتمتَّع بقوَّة خارقة، حتَّى يتمكَّن من القيام بعمل خطير كهذا، وإبقائه سرَّاً لأكثر من ثلاثة أشهر. وهكذا فهمْنا أيضاً مصير الأطباق العامرة التي كان يأخذها كل يوم اثنَيْن إلى بيته.

عثر عليهم يوستاكيو قبيل فجر أحد الأيَّام، يسيرون في صفٍّ منتظَم على حافَّة طريق زراعية خالية، العمُّ في المقدّمة، والمرأة في المؤخّرة، والخمسة الآخرون في المنتصف. كانوا قد فرُّوا من بلادهم، وضاعوا في طُرُقات مقاطعة بوليا، طالبين الشّمال، للخروج من إيطاليا، إلَّا أن جهلهم الطريق، وعجزهم عن معرفته، جَعَلَاهم يمشون ويمشون فحسب.

كان القسُّ عائداً من مدينة باري بشاحنة أبرشية ماتيرا، بعدما رافق مجموعة من ذوي الاحتياجات الخاصَّة إلى البحر. حين رآهم توقَّف وأَصعَدَهُم إلى الشاحنة، وفي أوَّل مقهى صادفه، قدَّم لهم الطعام والشراب، فقد كانوا يموتون من الجوع والعطش، ويرطنون بالقليل من الإيطالية، ثمَّ جَلَبَهُم على متن الشاحنة لأريليانا.

كان الليل قد حلَّ، وعددهم سبعة، وبيته صغير.

لم يعرف ماذا يفعل.

فقط، كان يعلم أنهم منبوذون من الجميع. ليس ثمَّة مكان يمكن للأجانب اللجوء إليه، وبصحبتهم نساء، وامرأة عجوز وطفل، وهكذا فكَّر أن يضعَهم داخل البرج.

كان يتذكَّرهم من وقت لآخر، ويجلب لهم بعضاً من الطعام والشراب.

وانتهى بهم الأمر لأن يمكثوا هناك مئة يوم، محبوسين كالفئران.

بعد أن تحدَّثَتِ الجَدَّة إلى الأب يوستاكيو، ذهبتْ إلى حفيدها نينوتشو، رئيس البلدية، وشرحتْ له كل شيء، بالتفصيل.

ثمَّ قرَّر رئيس البلدية ومجلس المدينة أن تلك العائلة المؤلَّفة من سبعة أشخاص، عليها أن تُغادر البرج، لعدم توفُّر الشروط الصِّحِّيَّة. كان معهم طفل أيضاً، ومع كل تلك الرطوبة، كان يمكن أن يُصابوا بالروماتيزم.

دَعَوا إلى اجتماع استثنائي لمجلس المدينة، مفتوح أمام جميع المواطنين، ليُقرِّروا سويَّاً ماذا ينبغي عليهم أن يفعلوا بخصوص هؤلاء الأجانب.

فمنذُ الصباح، كان الجميع مرتبكين، ويمشون بسرعة في أريليانا. لم يكن هناك وقت لإضاعته هذه المرَّة، فعند منتصف النهار، قبل انعقاد المجلس، سيكون هنالك استعراض، لا يريد أحد أن يفوتَهُ.

نحن كنَّا قد رتَّبْنا للاجتماع تحت منزل دومينيكو وإنسوتشو (رغم أنّهما أبناء عمومة، فإنهما يعيشان في نفس المنزل، عائلة في الطابق العلوي، والأخرى في السُّفليِّ).

بينما كانت أجراس الكنيسة تدقُّ لمنتصف النهار، تجمَّع أهل البلدة في الساحة. وكان هناك الكثير من الغرباء أيضاً الذين أتوا من القرى المجاورة بعدما سمعوا الخبر، وأرادوا أن يتأكَّدوا بأُمِّ أعينهم. تكدَّست الناس كما كانت تفعل حين تمرُّ الفرقة الموسيقية التي تصاحب جنازة ما، وحيث إنه لا يمكن التجمهر قُرب العازفين، كان لا بُدَّ من الانتقال إلى الأدراج أو إلى داخل المنازل. ذلك الغبي دومينيكو تسلَّق إلى

شرفة منزل نينو الصَّيدليِّ، وكي يُزعجَ ريفِهْ، كان يبصق على رأسه بين الحين والآخر.

حين قُرعت الرَّنَّة الأخيرة من الجرس، وبصدفة لم تكن لتحدث حتَّى لو تقصَّدوها، خرج الأجانب من بوَّابة الكنيسة.

واحداً تلو الآخر، رويداً رويداً، يُجرجرون أقدامهم. كانوا يبدون مثل حَلَزُونَات، وتحت كل خطوة من خطاهم هاوية.

كنَّا ننظر إليهم من الأعلى، كما تفعل النسور.

مشوا الواحد وراء الآخر، ببطء، في موكب واحد معاً في الساحة. قُمنا بِعَدِّهِم همساً، لكن الحاصل كان قد سُمِعَ تماماً، فكانوا مثل سبعة رعود: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستَّة، سبعة. سبعة هياكل عظمية، لم نكن قد شاهدْنا قطُّ أناساً ضامرين هكذا. بدوا مثل الطيور المحتضرة، التي كانت الجَدَّة تُحضرها إلى البيت بين الحين والآخر.

كانت الأسمال التي يرتدونها تتدلَّى من أكتافهم.

في المقدّمة، أوَّلهم، الرجل الذي يبدو أكثرهم قوَّة. وآخرهم، عجوز تُجرجر نفسها، وتشكو وتجاهد للوقوف على قَدَمَيْها. كانوا جميعهم يحمون وجوههم وعيونهم من الضوء بأذرعهم. كانوا قبيحين وقذرين، الرؤوس مُطأطِئة، والأكتاف مَحنيَّة. يحنون ظهورهم إلى الأمام، ويثيرون بعض الشفقة. رائحتهم الكريهة تصل من بعيد، كما لو أنهم تغوَّطوا في ثيابهم. حاول الرجال أن يبدوا طبيعيِّيْن، لكنهم لم يُفلِحُوا في ذلك. النساء يُجرجرنَ أنفسهنَّ، بالتنانير الطويلة والحجب التي تغطِّي رؤوسهنَّ، بينما الفتاة الأصغر سنَّاً، تشهق من البكاء. والفتاة الثانية كانت بفردة حذاء واحدة، مَنْ يدري أين فقدت الأخرى؟! والبطَّانيَّة التي تحملها تمسح من خلفها حجارة الطريق. ارتدت العجوز الأكبر سنَّاً جوارب سوداء ممزَّقة ومليئة بالثقوب. كان واضحاً أنها تتظاهر بأن كل شيء على ما يرام، لكنها ظهرت أشبه بسُلَحْفَاة صغيرة. أحد الرجال

كان حافي القَدَمَيْن، أظافره طويلة وسوداء.

كل واحد منهم يحمل بيد كيساً من البلاستيك، وضع فيه أغراضه، وباليد الأخرى يحمي عينَيْه. فقط الصَّبيُّ كان مختلفاً: فبدلاً من الكيس، كان يحمل كتاباً وكُرَّاساً أحمرَ كبيراً وغريباً نوعاً ما.

"يبدون مثل عصي مكانس، عليها ثياب"، قال ريفِهْ. نظرتُ إليه لنضحك معاً، لكنه لم يعرْني انتباهه.

"أو ربَّما أشباح"، أضاف دومينيكو من الشرفة.

"إنهم مُقرِفون"، قال إنتسوتشو. كانوا قد اسودّوا من القذارة التي تغطِّي وجوههم، ورقابهم، وأذرعهم.

أحاط أهالي البلدة بهم، من كل جانب، ويعلم الله مدى الحرج الذي أصابهم! وبدت جليَّة رغبتهم بأن تنشقَّ الأرض وتبلعهم، وأعين الأهالي مُسلَّطة عليهم، يريدون التحديق في وجوههم. إلَّا أن أذرعهم التي حموا بها وجوههم حالت دون جزمنا بما إذا كانوا مثلنا أم أنهم مختلفون. خيَّم الصمت والسكون على الساحة، وأُقسِمُ بالله، لو أن أيّاً منَّا فرقع بلسانه، لسمعه الجميع. كل شيء متوقِّفٌ وغارقٌ في الانتظار.

فجأة، رفع الرجل الأوَّل ذراعه.

وهكذا تمكَّنَّا جميعاً من رؤيته. كان وجهه غائراً مثل جمجمة، والعظام تبدو كتلك الموجودة في سراديب الكنيسة الأُمِّ، وعيناها محاطتان بهالَتَيْن سوداوَيْن، وغائرَتَيْن في محجرَيْهما. لكنه كان، مثلنا، شخصاً عاديّاً.

ثمَّ تنهَّد أحدهم، فبدأت الهمهمة.

"إنه إنسان عاديّ"، قال ريفِهْ، "يُشبهنا تماماً ...".

كان ذلك مُخيِّباً له.

"وماذا كنتَ تنتظر؟"، سأل دومينيكو من أعلى الشرفة بفظاظة، فهو أيضاً لم يكن يعرف بالتأكيد ماذا كان ينتظر، كان قد خشي أن يكونوا ... مَنْ يعرف ماذا؟! "ليسوا بكائنات مريخيَّة، حتماً".

على أيَّة حال، ما ذاك الكائن إلَّا إنساناً عاديَّاً، ولو بهيئة هيكل عظمي ، أشبه برجل من سُكَّان قرية غلافيانو، أو من قرية روتولانو على أبعد تقدير.

إلَّا أنه سرعان ما أعاد ذراعه، وحجب بها عينَيْه، لأنه انبهر من الضوء.

كان عليهم الدخول إلى مبنى البلدية في الساحة، للتَّحدُّث مع رئيس البلدية. كنَّا نسمع تعليقات الناس، حيث نقف.

"إنهم أشدُّ فقراً ممَّا كنَّا عليه"، قالت سيِّدة ترتدي زيَّ عاملات الحقول، تقف بجانبنا. لا أذكر مَنْ كانت، مع أنِّي شاهدتُها مرَّات عديدة. "إنهم مثيرون للاشمئزاز".

"صباح الخير، عمَّة كونشيتّا"، حَيَّتْها باسكوينا. العمَّة كونشيتّا كانت مرتابة، وتنظر إليهم كمجرمين. استدارت وبصقت ما كانت تمضغه، قشرُ تِيْنٍ معلوك وأخضر. كانت تحتفظ في إحدى يَدَيْها بخمس أو ستِّ حَبَّات تِيْنٍ، أشارت إلى باسكوينا، فيما إذا كانت تريد واحدة منها.

أجابت باسكوينا مستهزِئة بصوت خافت: "أجل، وكيف لا؟ ... حتَّى لو متُّ لا أريدها"، ضحكت نينا. كانت العمَّة كونتشيتّا تضع حَبَّة التِّيْن في فمها، تمضغها، ثمَّ تبصق القشرة وهي تهزُّ رأسها: "ما الأمر؟ نحن لم نكن هكذا. هؤلاء مُقرِفون".

"لقد عادتْ من الحقول خصِّيصاً، لكي ترى المهاجرين الأجانب"، قال دومينيكو بنبرة متعجرفة. كانت كونتشيتّا متَّسخة بالتراب، ورقبتها ملفوحة بالشمس، وجبينها وتحت إبطَيْها مُتعرِّقَيْن.

رَمَقَهُ ريفِهْ بنظرة جانبية، فقد أتى هو أيضاً خصِّيصاً للغرض ذاته. ابتسمتُ له، بمعنى أن يدعَهُ وشأنه، لكن ريفِهْ تجاهلَني. "لا أريد التَّحدُّث معكَ. اهتمّ بشؤونكَ، ودَعْني وشأني"، قال لي.

فجأة ارتفع صوت قوي، فرفعْنا عيوننا إلى الأعلى، نحو شرفة مبنى البلدية. وبالفعل، كان هناك رجل يطلُّ من الأعلى، ويراقب مشهد هؤلاء التعساء في الموكب بعينَيْن نصف مغمضَتَيْن جرَّاء شدَّة أشعَّة الشمس. كان ذلك الرجل هو العمَّ روكّو، مُسمِّم الأراضي.

بدا عملاقاً من مكانه، حيث يقف، وألقى الخوف في قلوبنا. كانت المرَّة الأولى التي أراه فيها بوضوح، قبيحاً، رأسه أشبه برأس موسوليني الذي يحتفظ به الجَدُّ، أصلع وحانق، بأنف حادٍّ كالنَّسر، لكنه أشدُّ هولاً، لأنه حَيٌّ.

ارتفعت الأصوات من كل حَدَب وصَوْب، ولم نعد نفهمُ شيئاً. ثمَّ مثلما ارتفعتْ، خفتتْ، لأن العمَّ روكّو بدأ يهدر بصوته الأجشِّ، لتسمعَهُ البلدة برمَّتها: "أيُّها الأجانب، انقلعوا من هنا، فأنتم غير مرحَّب بكم! لم يَدعُكُم أحد، ولا يوجد هنا عمل لكم. لا يوجد أيُّ شيء لكم! عودوا من حيث أتيتُم!".

عادت الهمهمات مرَّة أخرى.

كان العمُّ روكّو طويلاً، كُرشُهُ منفوخٌ، لكنه متأنِّقٌ.

"لقد وصل الآخر أيضاً"، قالت باسكوينا.

خرج ابن عمِّنا إلى الشرفة، رئيس البلدية، برفقة رجل آخر، تبادلا بعض الكلمات مع العمِّ روكّو، ثمَّ اختفوا، ثلاثتهم.

بمجرَّد أن بقيت الشرفة فارغة، تبيَّن أن الجموع استساغت تلك الكلمات، فقد ارتفعت حالاً أصوات الصفير والتصفيق، حتَّى إن أحدهم بدأ يهتف: "العمّ روكّو،

العمّ روكّو!"، كما لو أننا كنَّا في ملعب، وروكّو سجَّل هدفاً لتوِّه.

"العمّ روكّو، رئيساً للبلدية!"، صرخت بدورها راباتورتية من جوارنا. عائلة راباتورتا هي أسوأ عائلة في البلدة، وهو أمر لا يخفى على أحد. يقال إن الراباتورتيِّيْن يسرقون ويعيشون كمتطفِّلين على حساب الآخرين. من المؤكَّد أنهم اشتغلوا دائماً في أرض العمِّ روكّو، مع أنهم لا يبذلون أيَّ جهد يُذكَر في عملهم، إلَّا أنه تركهم يعملون لديه، فقد كانوا مسعورين، ويبدون كضباع تبحث عن فريسة، ومن الأفضل شراء سكوتهم. كان عددهم كبيراً، وكلّهم متشابهون، ولم يوجد قطُّ شخص من عائلة راباتورتا مختلف عن الآخر؛ كما كانت الجَدَّة تقول. كانوا منبوذين، لكن الجميع يصادقونهم. داخل المنازل يتحدَّثون عنهم بالسوء، أمَّا في الساحة العامَّة، فيتحدَّثون عنهم بشكل جيِّد. كان بادياً على وجوههم أنه هناك شيء ما خطأ. فعلى سبيل المثال - الأُمّ، التي صرخت لتوِّه، كان فمها مشوَّهاً بتكشيرة شيطانية. أخبرتْنا الجَدَّة أنها بسبب سكتة دماغية، لكننا رددْنا ذلك إلى اللُّؤم.

الأخ الأكبر بين الأخوة كاباتسابّوني تماشى مع كلام الرَّاباتورتيَّة: "العمُّ روكّو مُحقٌّ، انصرفوا من هنا!"، هتف ضدَّ الأجانب. هؤلاء كانوا يقفون في منتصف الساحة، مُحاصَرِين، ومع أنهم لا يفهمون اللغة، لكنهم أدركوا أنهم لا يريدونهم. "هنا لا يوجد شيء لكم، عودوا من حيث أتيتُم!".

"هنا لا توجد سوى المصائب فحسب"، ردَّدت راباتورتية أخرى.

بعض الناس بدأ بالتصفيق، وآخرون أخذوا يصرخون أيضاً. بدا واضحاً أنهم يدعمون بعضهم البعض، ويشعرون بأنهم متضامنون فقط لأنهم من أريليانا. أبي وأُمِّي أيضاً كانا من أريليانا، ولكنْ، في الشمال كانا من المهاجرين. بدأ الكثير منهم بالصراخ، حتَّى أصغرهم سنَّاً. بعضهم بدأ يدفع الناس، مهدِّداً بالتَّوجُّه نحو الأجانب، وخَنْقهم.

ليس بعيداً عنَّا، وقفت الجَدَّة. نظرتُ إليها، فهزَّت رأسها.

"هذا الرجل مُنحطٌّ"، قال ريفِهْ. أمَّا أنتونييتّا، صاحبة المتجر الوحيد للألبسة في البلدة، فقالت للرَّاباتورتيَّة: "هؤلاء يجلبون الشؤم. لم يصل أحد قطُّ إلى هنا من قبل، والآن يصلون سبعة دفعة واحدة، وهو أيضاً رَقْم شؤم".

"وانظري إلى النساء، انظري أيّ العيون يملكنَ ... يَبدونَ وكأنهنَّ لم يشاهدنَ رجلاً أبداً"، أضافت الرَّاباتورتيَّة. "سيستولون على رجالنا. هذا يتَّضح من بعيد، كوضوح نافورة ماريا بامبينا".

ثمَّ خرج بيبّينو من المقهى. حاملاً زجاجَتَيْن من الماء العذب.

شقَّ طريقه بين الحشد، ووصل بصعوبة إلى وسط الساحة، حيث كانت تقف بلا حراك تلك العائلة سيِّئة الحظِّ، دون أن تعرف ماذا تفعل، عدا أن تسمح للناس بتمريغ عيونهم ببؤسهم.

اقترب بيبّينو من الأجانب، وكان من الواضح أنه يُقْدِمُ على عمل شجاع، لأن الوقوف في وجه حشد يتزايد غضبه باستمرار، ليس من شيم الرجال الجبناء. لذا، ولتخفيف حِدَّة مزاجهم، قال: "لا لشيء، إنما أقوم بعملي فحسب"، بيد أن أحداً لم يضحك.

ذهب إلى الأوَّل في مقدّمة الصَّفِّ، الرجل الأكثر قوَّة، وأعطاه زجاجة ماء.

كان الرجل خائفاً، ولم يعرف أيأخذها أم لا. رجع خطوة إلى الوراء، ثمَّ في النهاية أخذها. فتح القنِّينة بحركة شرسة، وشرب نصفها في رشفة واحدة.

ثمَّ ذهب بيبّينو إلى الصَّبيِّ، ووضع الزجاجة الثانية بين يَدَيْه. "هاكم، اشربوا. إذا رغبتُم بالمزيد، تعرفون أين تجدونها".

.11

أحياناً، تنتابني رغبة بأن أكون كما أنا، أن أشعر بنفسي صغيراً وكبيراً جدَّاً في آنٍ معاً، لدرجة وددتُ فيها أن أنفجر، وتلك هي واحدة من تلك المرَّات.

وددتُ لو أرقص، أو أن أرميَ بنفسي على السرير، وألَّا أستيقظ بعد ذلك، دائماً هكذا، ودون أيِّ سبب. لذا، في محاولة لإبعاد هذه الرغبة، وبما أن كلبون لم يكن حاضراً، بدأتُ في البحث عن النصف الآخر من قُصَاصَة الصورة في منزل جَدَّيَّ، حيث ينبغي أن أجد إجابة أُمِّي على سؤالي - في الأدراج، في خزائن المطبخ، أو في النَّمْلِيَّة، ولكنْ، ما من حيلة باليد، فتلك المحاولات تنتهي هكذا، وإن لم تكن في أيِّ مكان، كان مجرَّد البحث عنها يُهدهدُني.

لا بُدَّ أن هذا الشعور داهمَني بسبب أولئك الأجانب، لأنني أنا مَن اكتشفهم ، ولأن ريفِهْ أصبح أكثر وقاحة، وبات الجميع ينظرون إليَّ نظرات ملؤها اللوم حين كنتُ أمشي في أريليانا، يمرُّون أمامي، ويهزُّون رؤوسهم، ومَنْ أحبَّني منهم، توقَّف عن ذلك. لا يوجد ما هو أسوأ من ذلك، وخاصَّة إن لم تكن مذنباً. منذُ وصول الأجانب، أصبح الجَدُّ أشدَّ غضباً من المعتاد، وأحياناً كان يرمقني بصرامة هو أيضاً، وأعتقد أنه حقد عليَّ، وأراد طَرْدي من البيت.

ذهبتُ لأسأل العمَّ سلفاتور، عن هذا الشيء الذي أصابني بالدوار، لأنه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يفهمَني، وأفضل صديق تبقَّى لي في أريليانا. كان الوحيد الذي يتصرَّف معي، كما لو أنني لم اكتشفْ أحداً. كان يجلس كالعادة أمام باب منزله مع عُكَّازه معلَّقاً على ظَهْر الكرسي.

بدا وكأنني لم أسألْه شيئاً، قال إنه أمر طبيعي، ويحدث لكل الأحياء الذين يمكنهم أن يشعروا بذلك.

"ولأننا أكبر ممَّا نتصوَّره، يا صغيري ويليام. فلدينا عيون تنظر إلى الأعلى، وهكذا لا

ننسى أننا كالنجوم"، قال العمُّ سلفاتور. وعندما يتكلَّم بتلك الطريقة، فإنه يميل إلى الغموض قليلاً، وصوته يصبح مثل أولئك الرجال في الأفلام في أثناء جلوسهم لاحتساء كأس من الويسكي وتدخين السيجار بصحبة امرأة فاتنة. يتصَّنعون صوتاً مخمليَّاً، وعندئذ يمكن التَّكهُّن بأنهما سيتزوَّجان، يمكنكَ قراءة ذلك في عيون النساء. وهكذا كان يمكن للعمِّ سلفاتور أن يقول كل شيء وأنا أُنصت إليه، مُوقِناً أن نصف الحقيقة التي يقولها يعتمد على صوته، فكنتُ أقول لنفسي إنه ينبغي عليَّ عندما أكبر أن أتمرَّن، لأجعل صوتي أيضاً مخمليَّاً، لا توجد طريقة أفضل من ذلك لكسب المال. إن صوتاً مثل صوت العمِّ سلفاتور، حتَّى وإن لم يُتقِن لا القراءة ولا الكتابة ولا التَّحدُّث بالفصحى الإيطالية، يستحقُّ تقديم كل ما أملك ليتطوَّر ويخلص إلى الاجابات. وهذا شبيه بما كان يحدث لي حين كانت أُمِّي تُدغدغني ، وأنا رضيع، بينما تُغيِّر حفَّاضتي، كنتُ أشعر بالقشعريرة من ظَهْري إلى أسفل حَنَكي. كان ممتعاً أن تكون هكذا في العالَم. كيف أتذكَّر ذلك؟ لا أعرف، لكنني أتذكَّره.

على كلٍّ، فإن زياراته متاحة متى أشاء مقابل كتابتي رسائله، شرط ألَّا أسلبه نقوداً أخرى، وكان يمكنني أيضاً أن أسأله كل ما يجول في خاطري، لأنه الشخص البالغ الوحيد الذي يأخذ الأمور على محمل الجدِّ. "هل يمكن إيقاف الزمن، يا عمّ سلفاتور؟"، سألتُهُ. كل ذلك الحديث عن النجوم، جعلني أظنُّ أنه متهالك، ولم يكن في هذا ما يُطمئِن النفس. "أحياناً، يبدو لي أن الزمن يجري بسرعة، ولا أريد أن أجد نفسي مثلكم قبل الأوان، أتعرف؟ ...".

"بالطبع، يمكن إيقافه، يا بييتروتسو". من حين لآخر، عندما يتذكَّر، كان يدعوني باسمي الحقيقي.

"وكيف يمكن إيقافه؟".

"ستعرف ذلك عندما تكبر وتُحبُّ امرأة".

لكنْ، في بعض الأحيان، كان العمُّ سلفاتور يُخطِئ أيضاً، لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن ميكيلا، أو حتَّى عن لينيتّا، التي تزداد جمالاً في كلّ مرَّة أراها في أريليانا، إنه أمر لا يُصدَّق، ولكنْ، حسب رأيي، هو تأثير الحُبِّ الذي يُحوِّل الأشياء أكثر جمالاً ممَّا هي عليه. كان العمُّ سلفاتور مُحقّاً، الحُبُّ مثل آلة الزمن، التي كنتُ أريد أن أبتكرها منذُ صغري، وفي يوم ما سأبتكرها. سوف أستخدمها للعودة إلى الوراء أو المضي قُدُماً حيثما أرغب وأشاء. لتغيير الأشياء التي يجب أن تتغيَّر، أو بالأحرى، وفي الحالات التي لا يمكن تغييرها، فعلى الأقلِّ، أن أنظر إليها وهي تحدث، مكرِّراً حدوثها قَدْر ما أشاء. كما هي اللحظة الأخيرة التي شاهدتُ فيها أُمِّي قبل أن تغادر المنزل، باختصار، أستعيد المشهد دائماً، ولا أعرف فيما إذا كانت الأمور قد سارت على ذلك النحو، وإذا كنتُ أستطيع رؤيتها مرَّة أخرى عندما أريد، ربَّما سأُغيِّرها، أو يمكنني أن أقترحها على بييتروتسو الآخر، وقد لا تغادر أُمِّي في النهاية، مَنْ يدري؟! ولحسن الحظِّ أنّ لديَّ هذه القُصَاصَة من الصورة معلَّقة على رقبتي، وإلَّا لكنتُ اعتقدتُ بين الحين والآخر أنه حُلم، لكنني أتساءل مَنْ هي تلك الفتاة التي سلبت عينَي نينا الشبيهَتَيْن بثقبَيْن عميقَيْن ممتلئَيْن حياةً وتطلُّعاً. لا بُدَّ أن أُمِّي ستقودني يوماً إلى إيجاد النصف الآخر، وستُجيب عن سؤالي.

أخبرني العمُّ سلفاتور، فيما بعد، أنه من المهمِّ جدَّاً بالنسبة إليَّ، طالما أنني أعرف استخدام الورقة والقلم، أن أحصل على دفتر ملاحظات، وأُدوِّن فيه الأفكار التي تمرُّ في خاطري، لأن الذاكرة تُخادعنا، وتنسى الأشياء، لا سيَّما أكثرها أهمِّيَّة، ولو أنه ذلك بمقدوره، لفعل الشيء نفسه، لكنه اضطرَّ أن يحتفظ بكل شيء في ذهنه، وكان ذلك من سوء المآل، فقد مرَّت عليه أيَّام، لم تُسعفْهُ ذاكرته بأكثر من تذكُّر اسم أصغر أحفاده الأمريكيِّيْن.

لذلك، ذهبتُ إلى متجر الجَدَّة، وسرقتُ كرَّاساً، وكتبتُ على الصفحة الأولى تذكَّرْ ألَّا تنسى. كان يمكنني أن أُدوِّن عليه أيضاً الأشياء التي تحدث في أريليانا، وأرويها لأبي عندما يتَّصل بنا. بالنسبة إليه، كانت أخبار بلدته مصدراً لأعظم بهجة في العالَم.

وأعرف أن روايتي له حَدَثَاً أو حَدَثَيْن صغيرَيْن ستكون كفيلة بجَعْله سعيداً.

أغلقتُ الكرَّاس، وخرجتُ لألعب مع نينا. كنَّا لم نلعبْ سويَّة منذُ فترة، رغم أنها طالبتْني بذلك دائماً.

.12

علمْنا أن الصَّبيَّ لم يكن ابناً لأحد ممَّنْ كانوا معه، كان يتيماً، أو بالأحرى يتيماً يتيماً(20)، لأنه لم يعد لديه أيُّ شخص في العالَم. وبالفعل، أولئك الكبار كانوا أعمامه وعمَّاته، وهناك جَدَّته أيضاً، الأكبر سنَّاً بينهم.

في تلك الأيَّام، بالتزامن مع الحادث، تذكَّر كلّ سُكَّان البلدة كل ما يعوزهم، وما رغبوا بامتلاكه، وأصبح القليل الذي يمتلكونه، مع وصول الأجانب، كنزاً ثميناً.

بات الجَدُّ يقصد باستمرار إلى غارامِّهْ، مكبّ النفايات في القسم العلوي من البلدة، حيث اصطحبني في سنِّ السابعة، ليرويَ لي قصَّة دماره، ويمضي ساعات مُحدِّقاً في اللَّا شيء. من هناك، كما من البرج، كان يُشاهد امتداد الحقول. يكفيه ليتواجد هنا التَّحجُّج بالذهاب لرَمْي غرض ما، عبوةً أو علبة حليب ، أو بقايا الطماطم عندما تقوم الجَدَّة بتحضير صلصة الطماطم ...

بدا وكأن جميع أهل البلدة فقدوا عقولهم، حتَّى أكثرهم هدوءاً مثل العمِّ فينتشينسينو الذي يلازم طيلة اليوم مقهى بيبّينو، ويشرب أمارو لوكانو. لكنْ، الآن، مع وصول هؤلاء الأجانب، استعاد هو أيضاً قدرته على الكلام، وكان هناك مَنْ ينادي للمعجزة في البلدة. لكن الأمر لم يكن سوى مجرَّد خوف فحسب.

في المتجر، كانت الجَدَّة مع كاتينا، صديقتها الحميمة، وكانتا لا تتوقَّفان لحظة عن

الحديث عن الكارثة التي ستقع، بسبب هؤلاء الأجانب. "لم يحضر إلى هنا أحد أبداً منذُ مئات السنين، وأريليانا تبدو الآن مركز العالَم"، قالت كاتينا. ثمَّ خرجتُ، لأنني كنتُ لا أطيق هذا الصنف من الأحاديث حتماً.

قصدتُ المقهى لأُحضر للجَدَّة الآيس كريم المفضَّل لديها (البومبونييرا). كان عليها أن تتناول أربع أو خمس كرات منها في اليوم حتَّى لو انهار العالَم.

وكان المقهى يغصُّ بالناس وهم يتناولون الموضوع نفسه. "سيأتي المزيد منهم، قريباً، سترون. سوف يفعلون مثلما فعلْنا نحن في ألمانيا وأمريكا. سوف يجلبون وراءهم أعمامَهم وأحفادَهم. سيستولون على حانتكَ، وكل ما تبقَّى"، قال ساعي البريد كارمينِهْ الجاسوس، بينما كان بيبّينو يجلب كأساً من أمارو لوكانو للعمِّ فينتشينسينو، الجالس كعادته في الزاوية يتابع أولئك الذين يلعبون الـ "سكوبا"(21) بورق اللعب.

"سيستولون على أعمالنا"، قال بيشولينو من طاولة في الخلف، وهو يدفع بورقة 'السبعة الرابحة' في وجه نيقولا، ابن الفرَّان. كان بيشولينو من القلَّة الذين لا يعملون في أراضي العمِّ روكّو؛ كان أبوه قد أبقى على قطعة أرض فيما وراء النهر، استصلحوها وهو يكدح يوميَّاً هناك. لم يكن عددهم كبيراً، أولئك الذين عادوا لزراعة الأرض بعد تسميمها، لكن شخصاً فعل ذلك - كان يُنتِج ما تحتاجه عائلته، ويبيع الزيت والقمح.

"أولئك، سوف يَقبلون بأيِّ شيء للحصول على عمل فحسب. سترى أن هذا ما ستؤول إليه الأمور". خبط بيشولينو كأس البيرة على الطاولة، فتطايرت رغوتها، وبلَّل ورق اللعب. التفت الجميع نحوه. لم يذهب بيشولينو، ونيقولا - أصغرهم سنَّاً، قرابة العشرين عاماً، والآخرين في حدود السبعين عاماً - إلى العمل في ذلك اليوم، ليستمع إلى ما يقوله أهل البلدة عن الأجانب. "أمضيْنا حياة كاملة، نستصلح فيها

أرض الجَدِّ، والآن، سيذهب كل شيء سدى. هؤلاء سيفعلون ما فعلناه نحن، سينتهي الأمر بأن يأخذوا أموالنا، سترى إن لم أكن مُحقًّاً".

"هذا ليس صحيحاً!"، هتف العمُّ فينتشينسينو من الخلف. "نحن بَنَيْنا الشمال بعملنا، وفي أمريكا وأستراليا دفعْنا الضرائب. شيَّدنا لهم - بعَرَقنا - الطُّرُقات والمستشفيات والمدارس. كنَّا نعمل، ولا نُثرثر! إنّما هؤلاء يختلفون عنَّا، فلا رغبة لديهم في العمل".

"نحن لا يعنينا أمر هؤلاء السبعة ..."، قال بيشولينو. "لكنْ، يجب أن لا يجدوا الراحة هنا. يجب أن لا يطلبوا من الآخرين القدوم".

بعد بضعة أيَّام، كان سينعقد المجلس العمومي داخل البلدية، بقرار من رئيس البلدية، ليطلب من بعض عائلات أريليانا، ممَّنْ يمتلكون منازل واسعة، إذا ما كان بإمكانهم استضافة الأجانب.

ولكنْ، تجمَّعت هناك، مرَّة أخرى، البلدة بأكملها، والعديد من الغرباء أيضاً، وأصبح العدد كبيراً، لدرجة أنه لم يتبقَّ مكان شاغر داخل البلدية. عندها صرخ رئيس البلدية في الميكروفون أن على الجميع التَّحرُّك، لعدم قدرة مخارج الأمان على الاستيعاب.

"لنذهب إلى الملعب الرِّياضيِّ"، صرخ، "أومبِهْ ..."، وكان يقصد أومبرتو، رئيس مخفر الدَّرَك الذي كان بدوره واقفاً هناك، وبزَّته مشدودة على كرشه الهائل، "... جَهِّزِ السَّيَّارة، وانقلْهم على دفعَتَيْن، أولئك يجب إحضارهم إلى الأسفل مُرافَقِين". وكان يعني بـ "أولئك" المهاجرين.

عندها، خرج مَنْ في الداخل بسرعة، والذين لم يتمكَّنوا من الدخول أساساً أصبحوا

سعداء، لأنهم سيتمكَّنون من الاستماع.

كان الليل على وشك الحلول، والشمس غابت فعلاً.

(20) بالنسبة إلى بييترو، الراوي وبطل الرواية مَنْ يَفقِدُ أحد أَبَوَيْه، فهو يتيم، ومَنْ يفقد كِلَيْهما هو «اليتيم اليتيم».

(21) لعبة السكوبا هي لعبة ورق إيطالي شهيرة، يتمُّ لعبها من خلال 40 ورقة، تحتوي على الآس، 2، 3، 4، 5، 6، 7، الشَّابّ (أو المرأة) الحصان والملك. ويتمُّ مَنْحُها قِيَماً من 1 إلى 10 بالترتيب المذكور. يشير اسم اللعبة إلى حقيقة أن الفائز يأخذ عادة جميع أو على الأقلّ معظم الأوراق الموجودة على الطاولة، ولذا تُسمَّى سكوبا أو مكنسة (مقشَّة).

.13

يقع الملعب الرِّياضيُّ أسفل البلدة، حيث تبدأ بيوت أريليانا.

حين وصلْنا أنا، ونينا، والجَدَّة، والجَدُّ (فالحَدَث كان من الأهمِّيَّة، لدرجة دفعت الجَدَّ للمجيء معنا أيضاً)، ثمَّة ميكروفون يُصَفِّر، ونحن نمشي ببطء، و معنا رجلان عجوزان. لقد كان الجميع هناك. جلبوا ثلاث طاولات من المدرسة الابتدائية القديمة، ووضعوها جنباً إلى جنب. في كلا الطَّرَفَيْن، يوجد مُكبِّرا صوت موضوعان على الطاولات. جلس رئيس البلدية خلف الطاولة، والآخرون كانوا مستشارين، كما أخبرني الجَدُّ.

وإلى جانبهم، وقف المهاجرون السبعة. الصَّبيُّ في الوسط، والنسوة الثلاثة في آخر الصَّفِّ. كان وَضْعهم أفضل، فقد اغتسلوا، لكن رؤوسهم لا تزال مطْأطِئة، والأذرع

متراخية على الوركَيْن، لم تكن لديهم الشجاعة للنَّظر بشكل مباشر. المرأتان الأصغر سنَّاً، ارتديَتا ثياباً سوداء، وترتعشان، ويبدو أنهما ستنهاران في أيِّ لحظة. بدا المشهد بأسره، كما لو أن المهاجرين مجرمون أمام فصيل إعدام. وحدها الجَدَّة كانت تُحدِّق مثل بومة عجوز بعينَيْن واسعَتَيْن، ووجه متجعِّد. بين حين وآخر، كانت تنظر إلى الصَّبيِّ، وتبتسم لتُطمئِنَه.

رُكنت سيَّارة المساعد أوَّل أومبرتو خلف المَرمَى. وقف أهل البلدة والغرباء في منتصف ملعب الكرة المغطَّى بعشب جافٍّ، بينما استلقى ريفِهْ في إحدى الزوايا على الأرض مراقِباً المشهد. لم يجلس أحد على المدرَّجات الإسمنتية، ولم أكن قد رأيتُ من قبلُ الملعبَ مُضاء في المساء، فقد بدا استاداً حقيقيَّاً.

شغَّل سكرتير البلدية المُولِّد الكهربائيَّ، وصاح: "هدوء!"، فصمت الجميع. وهكذا تمكَّن ابن عمِّنا رئيس البلدية من بدء كلمته: أوضح أن النَّهج الذي قرَّر مجلس المدينة تطبيقه كان التصويت من خلال رَفْع الأيدي حول كل بند، وكان من الضَّروريِّ مشاركة البلدة بأكملها. وطلب من الغرباء ألَّا يُصوِّتوا. بدأ شخص ما يُهَمْهِمُ.

لقد بدؤوا.

سأل رئيس البلدية إذا ما كانت هناك عائلة في البلدة على استعداد لاستضافة جميع الأجانب معاً. لم يرفع أحد يده.

حينها تمَّ التصويت على ما إذا كان يجب فَصْل بعضهم عن بعض، رفع عندها الجميع، تقريباً، أيديهم. فاتُّخذ القرار بفَصْلهم عن بعضهم البعض.

ثمَّ اقترح رئيس البلدية فيما إذا كان أحد ما يريد أن يأخذ على عاتقه الرجال الثلاثة فقط، على الرغم من أنه كان من الواضح أن لا أحد سيُوافق على الاحتفاظ

بثلاثة رجال أجانب في البيت، فالجميع يعرف أن رائحتهم تفوح أكثر من نسائهم.

ابن عمِّنا طرح السؤال عبر الميكروفون الذي كان لا يزال يُصفِّر. ومرَّة أخرى، لم يرفع أحد يده. انتظر، ثمَّ كرَّر السؤال ليتأكَّد. "هل من شخص لديه منزل واسع بما يكفي لاستضافة الرجال الثلاثة؟". في مثل هذه الحالة، يجب تكرار السؤال مرَّتَيْن.

لا أحد.

"إذنْ، فلنُوزِّع الرجال الثلاثة على ثلاثة منازل مختلفة"، قال نينوتشو.

عندها سُمِعَ صوتٌ. صوتٌ قويٌّ جدَّاً.

أدركْنا جميعاً على الفور مَنْ هو الشخص الذي تكلَّم، فلا يوجد كثيرون بهذا الصوت في أريليانا.

"أنا سآخذهم على عاتقي"، هدر الصوت. إنه العمُّ روكّو.

لم يعرف ابن عمِّنا ماذا يقول، لا أحد عرف ماذا يقول.فقد كان العمُّ روكّو أوَّل مَنْ نشر الكراهية من نافذة مبنى البلدية، لكن الذاكرة شيء يمكنه أن يكون موجوداً الآن، ويزول خلال لحظة، لذلك يظنُّ البعض بأن بمقدورهم فعل كل شيء.

"... هل تقصد ثلاثتهم، أم واحداً منهم فقط؟"، سأل رئيس البلدية، مَنْعَاً للالتباس.

"سآخذهم كلّهم". جاء الصوت حادَّاً، وأكثر وضوحاً وحِدَّة من ذاك الذي يخرج من مكبِّرات الصوت البالية. ارتفعت همهمات غير مفهومة من كل صوب.

ثمَّ ساد صمت، كما لو أن صوت الرَّبِّ نزل على الأرض. في تلك اللحظة فقط، رفع الرجال الثلاثة رؤوسهم، معاً، مثل ثلاثة طيور عُزَّل، للبحث عن الصوت الذي تبنَّاهم.

بدا الجَدُّ مُشمئِزَّاً، والجَدَّة تهزُّ برأسها. أمَّا أنا، فبدأتُ أتظاهر أنني أسعل وأعطس. باختصار فإن أيَّ ضجيج يمكنه أن يخلَّ الصمت المريب، لأن صوت العمِّ روكّو المُقرِف

يُغيظني، إلَّا أن صمت الآخرين يُغيظني أكثر.

"سآخذهم جميعاً"، اضطرَّ العمُّ روكّو للتكرار، لأنه ربَّما تشوَّش أيضاً في خضمِّ ذلك الصمت.

حينها وجد نينوتشو، رئيس البلدية، نفسه مُجبَراً على الكلام.

"عمّ روكّو ... هل ستأخذ كل الأجانب، أم الرجال الثلاثة؟".

"سآخذ الرجال، وسأترك النساء والصَّبيَّ".

وأخيراً، بدأت الهمهمات الحقيقية لأناس أريليانا، وهكذا عادت الأمور إلى مجاريها الطَّبيعيَّة.

"إنهم فقراء، ويجب أن نفعل شيئاً من أجلهم"، أضاف بصوت مرتعش ذلك الأرعن العمُّ روكّو.

شخص لم نتبيَّنه أخذ يُصفِّق، وفي أقلِّ من لحظة، أخذ الجميع يُصفِّقون. نظرتُ جيِّداً، والكثيرون منهم كانوا الأشخاص أنفسهم الذين صفَّقوا في الساحة عندما قال إن على الأجانب الانصراف.

"أنتَ حقاً لا تعرف الخوف!"، صاح أحدهم.

"لا يُهيبكَ أيُّ شيء!"، كانوا يصيحون.

إنّ الناس هنا مجانين، فكَّرتُ.

جَدَّتي فهمتْ كل شيء، وقالت: "يا له من حقير!".

لكن كاتينا، التي بجوارها، لكزتْها بكوعها. تظاهرتْ جَدَّتي بالبلاهة الزائفة، "ماذا حدث؟ لم أقلْ شيئاً"، بل قالت إنه حقير.

ثمَّ جاء دور اليتيم، كان مشهده حزيناً بعض الشيء، لأنه أحنى رأسه أكثر من الآخرين، وذراعَاه أكثر استرخاء، وساقاه متقوِّستان (كلَّما أنظر إليه أكثر، يتَّضح أنه يُشبهني، إلَّا أن عينَيْه كانتا رماديَّتَيْن). كان منغلقاً على نفسه مثل مظلَّة في يوم مشمِس، أشبه بفرخ قُنْفُذ. عندما كنَّا صغاراً، أنا وريفِهْ، وجدنا واحداً منها في غابة كيانوزا. أخذه ريفِهْ بين يَدَيْه، كان بحجم كفِّه، لكنه كان خائفاً جدَّاً، بحيث لم نتمكَّن من فتحه.

قام العمُّ سلفاتور بجهد جبَّار للوصول إلى الملعب الرِّياضيِّ، متأبِّطاً ذراع فرنكو، الذي انتظره، وبيبّينو، الذي رآهما بينما كان يُغلِق الباب الحديدي الجرَّار للمقهى، تأبَّطه بدوره، لأنه هو أيضاً كان مُتلهِّفاً للذهاب إلى أسفل البلدة. عندما وصلوا أخيراً، ظلُّوا خلف الجميع. كانوا لا يرون شيئاً من مكانهم، يسمعون خشخشة مُكبِّرات الصوت المتخلخلة فقط، ويتابعون ما يحدث من خلال تعليقات الأشخاص المجاورين. مَنْ يراهم، كان لا يُصدِّق أن العمَّ سلفاتور قد شقَّ طريقه من البلدة إلى الملعب الرِّياضيِّ، ليرى بأُمِّ عينَيْه ما يحدث لأولئك الأجانب. لا أحد رآه يتنزَّه منذُ زمن طويل، ، وهو الذي في شبابه كان يُدعى "سلفاتور الأمريكي"، لأنه يضجُّ بالحيوية والنشاط.

على أيَّة حال، تحدَّث رئيس البلدية في الميكروفون عن اليتيم. لم يكن يتيماً تماماً، فقد كان طويل القامة مثل شخص بالغ، و كتفاه تبدوان وكأنهما تخترقان القميص لضمورهما واتِّساعهما.

"مَنْ منكم على استعداد لإيواء هذا الصَّبيِّ في منزله؟ إنه يتمتَّع بصحَّة جيِّدة، ويمكنه المساعدة في الأعمال المنزلية"، قال ابن عمِّنا.

وحين كرَّر رئيس البلدية السؤال، بدأت الرَّاباتورتيَّة تصرخ: "لقد نظَّفْنا الفَرْش من القمل!"، ممَّا يعني أنها لا تريده مع أولادها في المنزل.

"آهاااا! إنّما أولادها هم مَنْ سينقلون القمل إليه"، قالت الجَدَّة، وكاتينا لكزتْها مرَّة أخرى.

حينئذ قال فرانكو، والد ريفِهْ، شيئاً ما، والعمُّ سلفاتور الذي كان يسنده تحت ذراعه، أدرك أن الأمر يتعلَّق بالصِّبيِّ، لأنه كان لا يرى، لا من هنا، ولا من هناك.

"ولكنْ، أيّ قمل!"، صرخ بيبّينو، الذي كان أيضاً أوَّل مَنْ جلب الماء للأجانب، وشعر أنه يملك الحقَّ في قول شيء ما.

"القمل لا شيء، ربَّما الكوليرا!". سُمِعت الجملة بقوَّة آتية من الأمام.

مَنْ تكلَّم؟

"إنه جوزيبّه، النَّجَّار". كانت الجَدَّة من أريليانا تعرف كل شيء.

هززتُ رأسي، لم أفهم، والجَدَّة أضافت: "والد دومينيك". عندئذ، بحثتُ عن دومينيكو، كنتُ قد رأيتُهُ من قبل بينما كان قادماً بدرَّاجة الفيسبا النَّاريَّة، توقَّف، أسندها على الركيزة، وبقيا جالسَيْن على السرج، هو وإنتسوتشو. كان دومينيكو يُنقِّل عينَيْه في كل الاتِّجاهات: شخص ما كان يراقبه! وعلى وجهه سمات الخجل.

وبينما كان كل واحد يشعر بأنه يملك الحقَّ لقول شيء، والكل يتذمَّر، رفع العمُّ سلفاتور ذراعه. ولا حتَّى فرانكو الذي كان بجانبه قد لاحظه. بدأ رئيس البلدية الصراخ بقوَّة أكثر، مكرِّراً السؤال: "مَنْ منكم على استعداد لأخذ هذا الصَّبيِّ إلى منزله؟".

وعندئذ انتبه فرانكو إلى أن ذلك الغصن الضامر المرفوع إلى الأعلى، كانت ذراع العجوز. قال له العمُّ سلفاتور همساً: "لا أحد يأخذني بالاعتبار هنا". في الأثناء، كان رئيس البلدية لا يعرف ماذا يفعل، فلا أحد يجيب. ثمَّ بدأ فرانكو يُلوِّح بذراعَيْه.

كرَّر رئيس البلدية السؤال للمرَّة الثالثة، ولم يُنهِهِ، لأنه لاحظ تلويح يَدَي فرانكو.

صمت الجميع. مَنْ يعرف لماذا يساعد الصمت في الحصول على رؤية أفضل! نينوتشو طلب في الميكروفون من الناس أن تلزم مزيداً من الصمت، لأنه يريد أن يرى أفضل، وربَّما كان هناك شخص مُهتمٌّ بالأمر. نظر إلى آخر الحشد، وعندئذ استدارت البلدة كلها - حيث كانوا ثلاثمائة شخص تقريباً، بما في ذلك الغرباء - إلى الخلف نحو فرانكو، الذي لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل، فالتفت إلى العمِّ سلفاتور كَمَنْ يريد أن يقول: لستُ أنا. فرأى الجميع حينها أن العمَّ سلفاتور لا يزال يحتفظ بذراعه مرفوعة. لكنها الذراع الخطأ، لأن ما كان يُرى هو سمَّاعة الهاتف، أي الإبهام والخنصر وما بينهما من فراغ.

"تعالَ، وأَقِمْ عندي"، قال العمُّ سلفاتور بصوت رفيع، لم يسمعه أحد، فصوته، رغم أنه مخملي، إلَّا أنه كان خافتاً جدَّاً.

أحدهم صاح: "صوت! لا نسمع شيئاً! صوت!".

لوَّح فرانكو بذراعَيْه مرَّة أخرى، في إشارة إلى أنه كان قد سمع ما قاله العمُّ سلفاتور.

"ماذا؟"، سأله رئيس البلدية من وراء الطاولة.

"تعال، وأَقِمْ معي"، كرَّر العمُّ سلفاتور، هذه المرَّة باللهجة العامِّيَّة، كان يتكلَّم مباشرة مع "اليتيم اليتيم".

وهكذا، كان المحيطون به هم الوحيدين الذين سمعوه، وبدؤوا يُحدِّقون في اليتيم، بينما أولئك الموجودون جميعاً داخل الملعب الرِّياضيِّ، فلم يريدوا شيئاً سوى أن يعرفوا ماذا يجري أيضاً. لكن "اليتيم، اليتيم" فَهِمَ الأمر، لأنها كانت اللحظة التي، ولأوَّل مرَّة، ينظر فيها صبيٌّ خجول كالصُّوص، إلى الأمام. ارتفعت العيون بسرعة خارقة، ثمَّ انخفضت حالاً.

الرَّاباتورتيَّة، التي سمعت كل شيء كالعادة، صرخت: "مَنْ يدري ماذا سيفعل العمُّ

سلفاتور مع ذلك الطفل؟!". كانت تعتقد أن في الأمر شيئاً خفيَّاً، وأن هناك نوعاً من الأشياء المثيرة للاشمئزاز تدور في عقل الرجل العجوز، لا يعلمها إلَّا الله.

وبهذه الطريقة علمت البلدة بما قاله العمُّ سلفاتور.

بدأ الجميع يتحدَّثون معاً، لكنْ، أنا فقط فهمتُ أن العمَّ سلفاتور كان قد فكَّر أنه سوف لن يرى أبداً أحفاده الأمريكيِّيْن، ولذا كان يريد التظاهر أن ذلك اليتيم هو حفيده. كما أن الأجنبي يمتلك جميع أصابعه العشرة، ولهذا أن يكون مفيداً له، للعمِّ سلفاتور المسكين، لأن عشرة أصابع إضافية لا يمكن العثور عليها كل يوم. فكَّرتُ بهذه الأشياء عندما سمعتُهُ يقول: "تعال، وأَقِمْ عندي"، ولكنْ، يجب أن أكون صادقاً: فكَّرتُ بذلك، لأُخمدَ غَيْرتي، لأن العمَّ سلفاتور، كان صديقي في المقام الأوَّل.

بصق فرانكو، والد ريفِهْ، على الأرض، رغم أنه كان بجانب العمِّ سلفاتور. نظرتُ إلى ابنه في البعيد، كان يجلس على العشب اليابس، ويهزُّ برأسه، حتَّى إن فرانكو ترك العجوز، وابتعد عنه، وكاد أن يسقط تقريباً، لولا أن بيبّينو تولَّى الأمر.

قال فرانكو: "لقد حلَّ الجنون بالعمِّ سلفاتور ، لقد أصبح مجنوناً تماماً". ثمَّ ابتعد، وترك العجوز واقفاً مثل سمكة مُجفَّفة، ولم يتوقَّف عن هزِّ رأسه، كما لو أن العجوز اقترف ذنباً.

كارميلا، ابنة كاتينا، القريبة، أخذت العمَّ سلفاتور تحت ذراعها من الجانب الآخر، ومن الواضح أن الرجل العجوز كان سعيداً، لأنه وسط تلك الذراعَيْن ترك نفسه مرتاحاً، يبتسم وحده وكأنه يغفو في السرير الأكثر راحة في العالَم.

ثمَّ حان دور النساء الثلاثة، العمَّتان وجَدَّة الصِّبيِّ. كان الأمر أكثر بساطة معهنَّ. لم تتوقَّف الجَدَّة للحظة عن النظر إليهنَّ كبومة في حالة تأهُّب.

ولكنْ، من الصَّفِّ الأوَّل، ارتفعت فوراً يد القاضي لوبيانو، ولم تكن هناك حاجة حتَّى لتكرار السؤال.

كنَّ سيذهبنَ لِيَعِشْنَ في الطابق السُّفليِّ في قصرهم الكبير، وسيساعدنَ العائلة في تدبير الأعمال المنزلية، مقابل راتب صغير. جَدَّتهم، ولأوَّل مرَّة، ابتسمت ابتسامة عريضة. لقد تغيَّر وجهها، وتحوَّلت من بومة إلى إنسانة. ومن بعيد، ذكَّرتْني بجدَّتي عندما ترانا وتمسي سعيدة.

حالما توقَّف رئيس البلدية عن الكلام، اقترب القاضي ليقول إنه تمَّ اتِّخاذ القرار.

أحدهم صفَّق له، ولكنْ، فقط لأنه كان قاضياً، والتصفيق لقاضٍ مفيد دائماً.

"يكفي تصفيقاً ..."، قال الجَدُّ، وكان هذا يعني، دون اتِّخاذ أيِّ موقف، الناس على استعداد دائماً للتصفيق لأيِّ كان.

نظرتُ إلى المرأتَيْن الشَّابَّتَيْن، وبدوتا سعيدَتَيْن، لأنه سيكون لديهما، في النهاية، منزل، وسوف يذهبنَ للعيش لدى الرجل الذي كان يبدو أكثر الحاضرين أناقة، باستثناء العمِّ روكّو بالطبع.

.14

تسرَّبت الغَيْرة إلى نفسي، لأن العمَّ سلفاتور اتَّخذ ولداً آخر، ولم يعد يُفضِّلني. لقد رأتْني أُمِّي وأنا مستلقٍ على الأريكة ألعب بالكيس المعلَّق على رقبتي، وفَهِمَت الوضع ... إنها تفهم كل شيء، ونينا مثلها.

بينما كان الجَدَّان يأخذان قيلولتهما، بعد الغذاء، جاءت وجلست بجانبي.

"بِيْ، تعال إلى هنا، لأحكي لكَ قصَّة. إنها قصَّة حقيقية". شعرتُ على الفور أنني أفضل حالاً بقليل، فعندما يكون لديكَ شخص يحكي لكَ قصَّة، فماذا تريد أكثر من ذلك؟! ليس لأجل القصَّة بحَدِّ ذاتها، ولكنْ، لتلك الحميمية التي تُشعِرُك بالراحة. أسندتُ رأسي على حجرها، فراحتْ تداعب شَعْري. ثمَّ إنني أُحبُّ القصص الحقيقية أكثر من المُتخيَّلة، فأنتَ تعلم أن أُمَّنا الطبيعة هي مَنْ كتبتْها بنفسها، وليس مجرَّد شخص عادي. وهكذا كنتُ قد شُفيتُ تقريباً من الغَيْرة والأسى حتَّى قبل أن تشرع أُمِّي بالكلام، وأمسى ظَهْري على أُهْبَة الاستعداد لتلقِّي الدغدغة والقشعريرة، كما في كل مرَّة يروي شخص حكاية ما لي. طبعاً، المداعبات على الرأس كانت مفيدة أيضاً. حينها، قالت أُمِّي إنني يجب أن أكون مسروراً لأجل العمِّ سلفاتور، لأن العجائز في وقتنا الحاضر لا يصلحون لشيء، ولذا فإنه من الجيِّد عثوره على شخص يُلازِمُهُ.

" في وقت ما كان المُسنُّون مُهمِّين، يا بِيْ. جرَّاء ما يقومون به بعد الموت".

"بعد الموت؟"، كرَّرتُ. فلم أعد أفهم شيئاً.

"لم يعد أحد يفكِّر الآن بالرجال المُسنِّين، وهكذا لم يعودوا هم يفكِّرون بأحد بعد موتهم. إنهم يفعلون ذلك انتقاماً".

"مَنْ ضَرَبَ قد ضَرَبَ، ومَنْ هَرَبَ قد هَرَبَ؟".

"أجل، بطريقة ما".

وروتْ لي عن إحدى خالاتها، إحدى شقيقات الجَدَّة، فعندما ماتت أُمُّهم، قامت بارتكاب خطأ فاحش. يصعب عليَّ تخيُّل أن لجَدَّتي أُمَّاً أيضاً، لكنني واصلتُ الإصغاء لأُمِّي، لأن صوتها كان كصوت ذوبان الثلج على قمَّة الجبل مع قدوم الربيع:

"قبل وفاتها بقليل، كانت جَدَّتي قد قالت للخالة تيريزينا: إنها ستضمن لها ولشقيقتها، من السماء، أن يُمضينَ حياتهنَّ بسلاسة ويُسر. فقط كان على الخالة تيريزينا، والتي كانت الأكبر سنَّاً، كعرفان للجميل، أن تُلبِسَ أُمَّ الجَدَّة فستاناً جميلاً

جدَّاً وحذاء جديداً ولامعاً، حين يضعونها في التابوت".

"لتجعلَها تمضي إلى العالَم الآخر مثل ملكة جمال إيطاليا"، قلتُ، وفي الوقت نفسه، كنتُ أفكِّر أنه عندما يكون هناك أموات، تكون القصَّة أكثر إثارة للاهتمام.

"عندها، ذهبتا للتَّسوُّق معاً، وجَدَّتي سعيدة جدَّاً بمدى الأناقة التي ستكون عليها، لأن كلّ البلدة ستراها في التابوت المفتوح. ثمَّ، عندما ماتت بالفعل، أَلْبَسَتْها الخالة تيريزينا حسب الاتِّفاق. لم يُصدِّق أحد في أريليانا تلك الأناقة كلها. لكن الخالة تيريزينا، عندما وصل الأمر لإغلاق التابوت، فكَّرتْ بأن تحتفظ لنفسها بزوج الأحذية الجديدة تلك، فقد كان جميلاً جدَّاً".

إنها لصَّة، فكَّرتُ أنا. انظروا بمَنْ تأثَّرتُ! بالخالة تيريزينا!

"لكنْ، بعد عدَّة أسابيع، ذهبتْ إحدى سيِّدات البلدة إلى الخالة، لترويَ لها أنها تواصل رؤية حُلم غريب، كانت جَدَّتي تَظهر لها، وتَطلب منها زوج أحذية، وإذا ما يمكن إرساله في تابوت أوَّل شخص يموت، وإلَّا، لن تتمكَّن، من هناك في الأعلى، بالقيام بأيِّ شيء لمساعدة العائلة. شعرت الخالة تيريزينا بالرعب. وهكذا، عندما تُوفِّي باسكوالينو الأعمى، سألت أقاربه إذا كان بإمكانها أن تضعَ الحذاء في التابوت، لكي تتمكَّن أُمُّها من استلامه. وهو ما حدث بالضبط. ومنذُ ذلك الحين توقَّفتْ أُمُّها عن الظهور في حُلم السَّيِّدة، وبدأت تساعد العائلة. وبالفعل، كانت حياتنا جميعاً طيِّبة".

بدأتُ بالتفكير، متى تغادر الجَدَّة إلى العالَم الآخر؟ علَّها تجعلني ألعب في المنتخب الوطني، أو تجعلني أخترع آلة الزمن، أو أصبح رائد فضاء، أو ربَّما تُعيد أُمِّي إلينا، أُمِّي التي ربَّما فهمتُ أن المنزل الآخر ليس جيِّداً حقَّاً، وتتخلَّى عن الأطفال الآخرين الذين ربَّما أخذتْهم، لأنها لم تعد تُفضِّلنا أنا ونينا (كان من الأفضل ألَّا أفكِّر بهذا الموضوع، وإلَّا لانتابتْني واحدة من أزماتي العصبية). لم أقلْ أيَّ شيء لأُمِّي، لم يكن

هناك شيء يقال لها، ثمَّ إنها ستشعر بالقلق، لأنني لستُ على ما يرام. في تلك اللحظة، ظهر كلبون من غرفة نوم جَدَّيَّ، هو وحده يعرف ماذا كان يفعل هناك! وقف بالقُرب من الأريكة، وبدأ ينبح بصوتٍ عالٍ. كان كلباً صغيراً جدَّاً، لكنه يُحدِث الفوضى كالعادة. إحدى ساقَيَّ كانت تتدلَّى من الأريكة، فبدأ يعضُّ رَبْلَتَهَا! رغب باللعب، إلَّا أنه آلمني. أَبْعَدْتُهُ، وظلَّ مُصِرَّاً على اللعب.

"هل فهمتَ ما تعنيه هذه القصَّة؟"، سألتْني أُمِّي. لم تهتمّ لوجود كلبون، وتكلَّمتْ كما لو كلبون غير موجود، فهو يقصدني أنا دون العالَمين. في واحدة من المرَّات الأخيرة التي قمْنا بالبحث فيها في الخزانة في ميلانوكس، قالت نينا إنها لا تريد رؤية كلبون بعد الآن، فما عاد يقترب منها.

"هذا يعني أن العجائز كانوا مُهمِّين في السابق. ليس وهُم أحياء، بأجسادهم المُحطَّمة، لكنْ، لاحقاً، لأنهم يجودون بإحسانهم"، أجبتُ، بينما أحاول فتح فم كلبون، كان يؤلمني ذلك الكلب الأبلق.

قبَّلتْني أُمِّي على جبيني. "أجل ... بينما اليوم الشخص العجوز هو مجرَّد حطام"، قالتْ.

"إذنْ، العمُّ سلفاتور فَعَلَ حسناً في إيوائه ذلك اليتيم، ليبقى في صحبته".

ثمَّ نهضتُ وتركتُ أُمِّي هناك كالبلهاء. بعد فترة، تصبح النساء لجوجات، هنَّ دائماً كذلك.

"أُمَّاه، أنا ذاهب لِلَّعب الآن".

كان كلبون قد قفز على الوسادة، ووقف بجانبها. وكان يُحدِّق بي بلا حراك، لسانه في الخارج، وذنبه يهتزُّ بسرعة.

أدرك الجميع أن العمَّ روكّو وضع ثلاثة رجال في منزله، لأنه، بهذا، سيمتلك ثلاثة أشخاص إضافيِّيْن للعمل معه. بينما الشيء الذي لم يفهمْهُ أحد، باستثناء فيلومينا أُمِّ ريفِهْ، أن هذه كانت البداية فقط (فيلومينا، وأُقسِمُ على ذلك، لو شاهدتُمُوها لما أعطيتُموها بنساً واحداً، لقدر ما كانت قبيحة، وإضافة إلى ذلك، كان يبدو أن الرطوبة قد تغلغلت إلى جوف حلقها من الطريقة التي تتكلَّم بها، صوت رفيع وشديد النبرة). بالفعل، جاءت فيلومينا إلى منزل الجَدّة حاملة دوناتينو، ابنها الصغير الذي يبتسم للجميع، بين ذراعَيْها، وبدأت تروي للجَدَّة ولكاتينا عن شناعة ما فعله العمُّ روكّو.

"لا يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك، يا عمَّتي بياتريس"، قالت فيلومينا.

"ما هو هذا الشيء الذي حدث، ولا يمكن إصلاحه؟".

بدا واضحاً أن الجَدَّة تريد أن تُقلِّل من فداحة الأمر. "ولكنْ، كيف، ألم يَصِلْكُم الخبر؟ لقد أخذ العمُّ روكّو الأجانبَ، ليُخفِّض الأجور للجميع". الجَدَّة وكاتينا توقَّفَتَا عن الرَّدِّ، وهو أمر غريبٌ جدَّاً، حيث لا يُعرَف أيٌّ منهما أكثر بداهة من الأخرى، وهذا يمكن أن يعنيَ فقط أن فيلومينا كانت على حقٍّ.

وبالفعل، اعتباراً من اليوم التالي، أوضح العمُّ روكّو للجميع أنه لم يستضفْ أولئك الغُزاة الثلاثة بلا مقابل، بل إنه طبع يافطة جميلة، وعلَّق نسخاً منها بجانب مقهى بيبّينو، وعلى جدران البرج، وعلى بوَّابة الفيلَّا تقول:

لم يُولَد أحد مُميَّزاً

وعلى الجميع كَسْب قُوْتِهِم في هذا العالَم.

لا أحدَ يمكنُهُ طَلَبُ الطعام والمَسكَن مجَّاناً.

التوقيع، روكّو إمبيلليتّيري.

قرأ كل مَنْ في البلدة تلك العبارات، والجميع كان موافقاً على محتواها: لم ينلْ أحد في العالَم شيئاً دون مقابل أبداً.

لذلك، فلم يكن واضحاً لَمَا كان على هؤلاء الأجانب الحصول على كل شيء دون مقابل. لم يكن الطفل يسوع قد جاء بعد، ليهبَ العطايا.

"يجب أن يمتلكوا أقلَّ ممَّا نمتلك نحن، وعوضاً عن ذلك، امتلكوا أكثر! ماذا يجب أن نفعل؟ عندما هاجرْنا نحن للعمل، لم يهدنا أحد أيَّ شيء، كسبْنا كل مليم بعَرَق جبيننا، وبالحنين". كان فرانكو، والد ريفِهْ، مَنْ نطق بهذه الكلمات، يوم جاء إلى بيت الجَدَّة لجَلْب نصف الحَلَزُونَات التي جمعها هو والجَدُّ قبل بضعة أيَّام. بعد احتفاظه بها في الحمَّام، لتتنظَّف وتنزف ما في أحشائها. فتح فرانكو كيس القماش الأبيض الكبير، ليُريها لي ولنينا. كانت الحَلَزُونَات تتسلَّق على الوجه الدَّاخليِّ للكيس، ومن الواضح أنها تريد الخروج للتَّنفُّس. قرونها بالغة الطول، لكنها بطيئة جدَّاً، ولُزُوجتها مثيرة للاشمئزاز.

أخذت الجَدَّة الكيس، وأغلقتْهُ بعقدة. ثمَّ أخرجت من الخزانة أكبر قِدْر عندها، وصبَّت الماء فيه.

في هذه الأثناء، أشعل فرنكو سيجارة، وملأ المطبخ بالدخان. رمقتْهُ الجَدَّة بنظرة تأنيب، لكنه لم يلحظ شيئاً، وتابع التدخين.

أشعلت الجَدَّة الموقد، وألقت بالحَلَزُونَات في القِدْرِ، قاومت الحيوانات مُحَاوِلَة الخروج منه، لكن الجَدَّة كانت تنتزعهم واحداً تلو الآخر بأصابعها، وتُعيدهم داخله. مساكين.

أمسكتْ بالغطاء، وقالت: "سوف نأكل الحَلَزُونَات هذا المساء".

طلب فرانكو منفضة سجائر، أطفأ سيجارته، وذهب باتِّجاه اللَّامْيُون.

في تلك اللحظة، عاد الجَدُّ من النادي الاجتماعي، سيِّئ المزاج كالعادة. لكنه سُرَّ على الفور عندما علم أننا سنأكل الحَلَزُونَات التي جمعها بيَدَيْه.

.15

وهكذا، وقبل فجر اليوم التالي، تمَّ نقل أولئك الرجال الأجانب الثلاثة داخل المقطورة المكشوفة للشاحنة التي تنطلق كل يوم من الساحة لنقل العمَّال المياومين إلى الحقول.

رأت الجَدَّة ذلك، وروتْهُ لنا، وهي تطهو. "يا للمساكين، حالما خرجوا من البرج، وجدوا أنفسهم مع مجرفة بأيديهم"، قالت الجَدَّة، بينما تعاين نضج المعكرونة، لترى إذا كانت مَطهوَّة كما في المطاعم(22)، كما كان يصفها الجَدُّ، حين لايستطيع مضغها (الجَدُّ، كما قلتُ سابقاً، لديه طَقْم أسنان: شاهدتُ ذلك الطَّقْم للمرَّة الأولى في كأس على الكومودينة جانب السرير، بينما كان في الحمَّام، فانفجرتُ بالضحك).

"كان من الأفضل لو اعتنيتَ بشؤونكَ"، قال لي الجَدُّ، ما يعني أنه كان من الأفضل للجميع لو أنني لم أكتشفْهم. نفس العبارة التي قالها لي ريفِهْ.

لكنني لم أكن لأشعر بالأسف، إن أغضبتُهُ أحياناً، لأن الزمن تجاوزَه كما تجاوز العمَّ سلفاتور، وله أن يبح متبلِّد الذهن أحياناً ، فبدلاً من أن تنظر عيناه إلى الأمام، تتشتَّتان وتضيعان، ويبدو كما لو أنه غير موجود. وهكذا كنتُ أُغضبه، كي يبقى يَقِظَاً، ربَّما لم يكن قد حان الوقت بعد لِرَمْيه في المكبِّ، الذي أصبح الآن واحداً من أمكنته المفضَّلة. بينما دأب الجَدَّة على نَفْض الزمن عن كاهلَيْها، كما يُنفَض المطر عن المعطف الواقي بعد العاصفة.

وبقي ذهاب "اليتيم اليتيم" للعيش في منزل العمِّ سلفاتور أكثر ما يثير انتباهاً، وبالتالي، راقبْنا، أنا ونينا، كل شيء من الطابق العلوي، حيث ننام. وإذا ما بقيْنا صامتَيْن، فإننا نستطيع سماع ما يدور هناك، لأن المسافة بين المنزلَيْن لا تتجاوز بضعة أمتار. في الحقيقة، كنَّا نراه فقط عندما يصعد إلى الطابق الثاني، حيث توجد غرفة النوم التي خصَّصها له العمُّ سلفاتور، والتي كانت غرفة نوم أُمِّه حين عاد من نيويورك، ليبقى معها حين كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

اختبأنا أنا ونينا خلف الستائر، وراقبْنا الأجنبيَّ، الذي كانت نوافذ غرفته بلا ستائر. كان يعيش في تلك الغرفة نصف الخالية، مع سرير للأطفال فقط، والبيانو القديم المخلوع لوالد العمِّ سلفاتور، المركون قُرب الجدار.

لقد كان هذا الصَّبيُّ غريب الأطوار. رطوبة البرج لَحَسَت دماغه، لأنه لم يكن يفعل شيئاً.

يبقى دائماً مستلقياً على جنبه يقرأ كتاباً، لا بُدَّ أنه الكتاب الذي رأيتُهُ داخل البرج. إنه مُهِمٌّ جدَّاً له على ما يبدو، على عكس ما كان عليه "مائة قصعة من الجليد" بالنسبة إليَّ، الذي كنتُ أقرؤه كواجب فحسب.

كنتُ ونينا نراقبه لساعات، كما لو أننا نشاهد فيلماً، ونترقَّب حدوث أيِّ شيء، لكن شيئاً لم يحدث. وظلَّ يروقنا ذلك، على أيّة حال، مثل فيلم وثائقي عن الحيوانات، تراقبهم دون أن يعوا ذلك. كان اليتيم يتحرَّك فقط عندما يَندَهُ عليه العمُّ سلفاتور، ليُنظِّف الطاولة، أو للذهاب لشراء غرض ما، وما عدا ذلك، كان يُلازِم السرير. لا نعرف كيف كان هذان الاثنان يتفاهمان! لكنهما كانا مُتفاهمَيْن، فلم تكن لديهما أيَّة مشاكل.

مَتجَر الجَدَّة كان مُصمَّماً عَمْداً للاطِّلاع على شؤون الآخرين، يكفي أن تبقى هناك لساعَتَيْن، وتتظاهر بترتيب شيء ما، لتسمع عن كل شيء. حين نرى كاتينا تخطو إلى

داخله، كنَّا أنا ونينا نحضر بسرعة. في تلك المرَّة، عَرَضْنَا على الجَدَّة أن نُوضِّب المناديل القماشية المُلوَّنة والمُعطَّرة، والتي وصلت في علبَتَيْن من الكرتون ورديَّتَي اللون، بعد أن نكويها بشكل جيِّد بالضغط بقوَّة على المكواة.

يعمل ليوناردو، ابن كاتينا، في الحقول، لذا فهي تعرف كل ما يحدث هناك، وتنقل الأخبار للجَدَّة بالتفصيل.

كان اليوم السابق هو الجمعة، وهو يوم تسديد الرواتب. وكان على العمِّ روكّو أن يدفع للجميع، العمَّال المياومين والرعاة وعمَّال الشركة الزِّراعيَّة وعمَّال النَّقليَّات.

دعاهم للاجتماع جميعاً في فناء المزرعة، بمَنْ فيهم الأجانب الثلاثة، وقال بصوت راعد: "الأمور تسير بشكل سيِّئ، ليس كما كانت عليه من قبل. لا بُدَّ لي من خفض الأجور، وإلَّا سأُخاطر بالإفلاس. من الآن فصاعداً، هذا ما سوف تقبضونه".

وزَّع على مديري العمَّال الظروف المعتادة، إلَّا أنها كانت أخفَّ وزناً، والمديرون هم عمَّال بطبيعة الحال.

أحدهم، الابن البكْر لآل كاباتسابّوني، فَتَحَ ظرفَهُ، وعَدَّ محتواه: كانت الأوراق المالية نصف ما كانت عليه في الشهر السابق، عاود عَدَّها ثانية، إذ لا بُدَّ من خطأ، لكن الأوراق كانت النصف دائماً. قال شيئاً، لكن أحداً من مديري الأقسام لم يُجبْ، فهم موجودون هناك عَمْداً، كي لا يقولوا شيئاً، وكي يجعلوا المالك مسروراً. عاود الكاباتسابّوني الكلام مجدَّداً، عندها أجابه العمُّ روكّو شخصيَّاً.

"يمكنني أن أجد أناساً قدر ما أشاء يقبلون العمل بهذا الأجر"، وأشار إلى الأجانب الثلاثة. "هم، على سبيل المثال. إذا لا يناسبكَ الأجر، فانصرف".

ثمَّ ركب العمُّ روكّو سيَّارته السوداء من طراز مازيراتي، دون أن يتفوَّه بكلمة. إنّما، قبل ذلك، كان قد أمر أحد رجاله أن يصحب الأجانب الثلاثة إلى المنزل.

تردَّد الرجل، فلم يفهم لماذا عليه أن يكون سائقاً خاصَّاً لأولئك الثلاثة.

"تحرَّك!"، صاح المالك.

بدا جَليَّاً أنه يخطِّط لأمر ما.

بدا للعمَّال الذين فتحوا الظروف، ووجدوا نصفها فارغاً، بسبب الأجانب الذين يعملون بأجرٍ أقلّ، أن العمَّ روكّو يحمي أولئك الأجانب، ويضع تحت تصرُّفهم وسيلة نقل أيضاً.

ازداد غضب العمَّال المياومين حينها. فصبُّوا استياءَهم على المديرين. أحدهم هدَّد باستعمال قبضته، وآخر استعملهما بالفعل. فنشبت مشاجرة كبيرة. لم يعد الأمر يتعلَّق بالظروف الخفيفة، ولا بالأجانب، ولا بغطرسة العمِّ روكّو: كانت ذريعة للتنفيس عن الغضب. تدخَّل البعض للفَصْل بينهم، كان الجميع مستاءً من الجميع. وفي النهاية، أبرحوا بعضهم البعض ضرباً.

عاد العمُّ روكّو، نزل من سيَّارته الفخمة، وبدأ يصرخ.

"كلّكم مطرودون! قَسَمَاً بمريم العذراء، سأطردكم حالاً. اخرجوا من أرضي، ومن هذه الشركة! اخرجوا من مزرعة لوكانيا!".

انتاب الجميعُ الخوفَ، فلا أحد يمكنه المخاطرة بفقدان العمل، فلاذوا بالصمت.

عندها هدأ العمُّ روكّو أيضاً، وسأل مبتسماً: مَن الذي بدأ الشجار؟

واحد أو اثنان أشارا بداية الى الكاباتسابّوني، ثمَّ أشار الآخرون إليه، والدم ينزف من فمه. لكنه لم يكن أوَّل مَنْ بدأ بالضرب. كان أوَّل مَنْ تحدَّث عن الظرف الذي نزل وزنه إلى النصف.

"أنتَ، لن تطأ قَدَمَاكَ هذا المكان بعد الآن"، قال له العمُّ روكّو ذلك، وفَصَلَهُ من

العمل.

حاول الكاباتسابّوني الدفاع عن نفسه، لكن العمَّ روكّو أجابه بصفعة قوية. "اخرسْ! إذا تكلَّمتَ مرَّة أخرى، سأطرد والدكَ وأخوتكَ أيضاً. والآن، خُذْ هذه النقود، وانصرفْ"، ورمى له الظرف.

كانت كاتينا تتكلَّم بصوت منخفض، ليس خشية من أن نسمع، فقد كنَّا، بالنسبة إليها طفلَيْن من الشمال، لا يفقهان شيئاً من تلك الأمور، ولكنْ، خشية أن يسمعها الآخرون في البلدة، حتَّى لو لم يكن ثمَّة أحد في الجوار.

"بعد أن تمَّ فصله من العمل، أخذ الكاباتسابّوني يصرخ أمام الجميع أنه سيقتل أولئك الأجانب الثلاثة بكلتا يَدَيْه"، تابعتْ كاتينا.

هزَّت الجَدَّة برأسها موافقة، وقالت "وبالتأكيد، الكاباتسابّونيُّون عليهم دائماً أن يلجؤوا إلى قبضاتهم، وإلَّا فإنهم لن يكونوا راضين عن أنفسهم".

"لحسن الحظِّ أن الأجانب لم يكونوا هناك، فالعمُّ روكّو أرسلهم إلى البيت، وإلَّا لكانوا قتلوهم هناك مباشرة. ولكنْ، حتَّى لو كانوا هناك، فهم لا يفهمون شيئاً ...".

"يفهمون، يفهمون"، قالت الجَدَّة. "أولئك يفهمون. كنتُ أنا أيضاً مع رئيس البلدية في المقرِّ، عندما تحدَّثْنا عن موضوع ترتيبهم. أكبرهم سنَّاً، متين البنية، يفهم ويعرف بعض الكلمات، والصَّبيُّ أيضاً يفهم. بل، إنه يفهم أفضل من الكبير. عندما اقترح المساعد أوَّل أومبرتو الاحتفاظ بهم في الثكنة، أخذ يبكي، ظنَّ أنهم يريدون اعتقالهم".

توقَّفت نينا عن طَيِّ المناديل، وأنا لكزتُها، كيلا تكشف أمرنا، كان علينا ألَّا نتوقَّف عن العمل.

"فلنرَ الآن ما إذا كان الكاباتسابّوني سينتقم منهم، بعد أن فَقَدَ عمله. ابني ليوناردو

أيضاً قال إنه لو كان في مكانه، لَمَا تردَّد في الانتقام. كان سيجمع بعض الرجال، ويذهب ليأخذهم مساء، في الظلام، ويصحبهم إلى نافورة الطفلة العذراء، ويُلقِّنهم درساً سيتذكَّرونه مدى الحياة".

"لا ينقصنا سوى أن يضعه أومبرتو في السجن"، قالت الجَدَّة، بينما كانت تزن كيساً من الفجل على الميزان.

"إذنْ، أولئك المهاجرون يمكنهم أن يتأكَّدوا بأنّهم ميّتون. عند هذا الحَدِّ، سيساهم جميع أهل البلدة في النيل منهم، ليس ثلاثة أو أربعة منهم فقط"، أجابت كاتينا.

نقلت الجَدَّةُ بعضَ الأوزان على الميزان، ولم تقلْ شيئاً. لكنها عندما لا تُجيب، فهذا يعني أن دماغها يعمل بشكل أسرع.

(22) أي غير مسلوقة جيِّداً

.16

واصلْنا نحن أولاد البلدة اللقاء لشؤوننا الخاصَّة، نينا مع التوأم وباسكوينا. بعد فترة من إقامتنا في أريليانا، كلّ صيف، بدأنا أنا ونينا نعتبر أنفسنا من البلدة أكثر وأكثر. غيَّرْنا من لهجتنا، وأصبحْنا، تقريباً، جنوبيَّيْن.

كنتُ أبحث عن ريفِهْ، ولكنْ، إذا كان هناك شخص قد تغيَّر فعلاً منذُ وصول الأجانب، فقد كان ريفِهْ تحديداً.

لقد اختفى.

مثل أبيه والجميع تقريباً - بما أنّ العمّ روكّو قد خفَّض الأجور -، صار ريفِهْ يعمل

أكثر. بات يذهب إلى الحقول يومَي السبت والأحد أيضاً، ليحصل على أقلّ ممَّا كان يحصل عليه، ويعود إلى البيت منهَكَاً، وأكثر عصبيَّة، بل كان يعود غاضباً.

ازداد صراخ فرانكو أيضاً: كنَّا نسمعه من الأعلى، وكان يبدو أحياناً أنه بصدد خَنْق فيلومينا، زدوناتينو، الابن الأصغر، يبكي دائماً - الأمر الذي ما كان يفعله قبل أبداً.

عندما كنتُ أقصد بيتهم لدعوة ريفِهْ، كانت فيلومينا تقول إنه في الحقول، أو إنه يريد أن يظلَّ وحده. لكنّي كنتُ أعرفُ أن هذا غير صحيح، فقد بدأ بمرافقة ماريولينو، أحد أبناء الراباتورتيِّيْن. لم يكن قد رافقه من قبل أبداً، لأنه من عائلة سيِّئة السُّمعة. كان والد ماريولينو قد أرسله للعمل في الحقول وهو في سنِّ السادسة، وهو شرِّير، مثل كل أفراد عائلة راباتورتا، وكان ريفِهْ دائماً يزدريه.

بينما هو الآن برفقته فقط، ولا يريد أن يراني البتَّة.

إيمّا، إحدى توأم لوبيانو، كانت قد رأتْهما معاً. هذا ما قالتْه لباسكوينا، وباسكوينا أخبرتْ نينا بذلك. لاحقاً، رأيتُهما أنا أيضاً، ثمَّ رآهما الجميع. كانوا في الفيلَّا، في القسم السُّفليِّ، حيث توجد النباتات وبعض المقاعد، يُدخِّنون السجائر أمام الجميع، دون أن يهتمُّوا بالآخرين.

إذا ما التقيتُهُ بالقُرب من اللَّامْيُون، يتظاهر ريفِهْ بأنني لستُ موجوداً، أو يُحيِّيني بسرعة، ويتابع طريقه. وإذا حاولتُ أن أقول له شيئاً، فإنه يبصق على الأرض، ولا يجيب.

في عصر أحد الأيَّام، وبينما الجَدُّ والجَدَّة يغطَّان في قيلولتهما، نادتْني نينا: "تعال وانظرْ ماذا يفعل اليتيم".

كانت كلّ فرصة تُتيح رَمْي كتاب "مئة قصعة من الجليد" الذي لا ينتهي أبداً، فرصة جيِّدة، حتَّى ولو احتوى على أشياء ممتعة بين الحين والآخر (اكتشفتُ لتوِّي أن ما كان يقوله لي أبي لم يكن صحيحاً دائماً، أي إذا كنتُ أشعر بالبرد، يكفي أن أبدأ

الركض بأسرع ما يمكن لأشعر بالدفء. كان ذلك عديم الفائدة، أمَّا إذا قاله أولئك الذين حاربوا وتساقطت أصابع أيديهم وأقدامهم من البرد، فيجب أن يكون ذلك صحيحاً). ثمَّ صَعِدْتُ إلى الطابق العلوي.

كلّ الشائعات التي تمَّ تداولها حول الأجانب، لا بُدَّ وأن تكون صحيحة: لم أكن قد شاهدتُ في حياتي شيئاً غريباً كهذا.

كان اليتيم يجلس على مقعد البيانو المخلوع، وظهره منتصبٌ، مغمض العينَيْن، وذراعاه ممدودتان.

لقد رغبتُ بالفعل في الخروج وإخبار دومينيكو وإنسوتشو بالأمر، لكن نينا استوقفَني.

"انظرْ جيِّداً، يا بِيْ، لم ترَ شيئاً بعد".

عندئذ، انتظرتُ قليلاً. إنه مجنون بالتأكيد.

كان يتظاهر بالعزف!

لم يكن يضع ذراعَيْه على البيانو وحسب، بل إذا نظرتَ إليه جيِّداً، ستراه يُحرِّكهما يُمنة ويُسرة، من الجانب ومن الأعلى، يرفعهما، ثمَّ يخفضهما على المفاتيح، ويبدو كما لو أنه يُحرِّك يَدَيْه فوق موجة عملاقة. ولكنْ، لم يكن يَصْدرُ أيُّ صوت من هناك، لأن ذلك البيانو - على وجه التحديد - كان معطوباً. كان يُبقِي عينَيْه مُغمضَتَيْن، يُحرِّك ذراعَيْه مثل شخص مجنون، ويبتسم وحده. كان يُنصِتُ إلى الموسيقى هو وحده فقط.

لقد وصل بيتهوفن إلى أريليانا! كنتُ مُتلهِّفاً لأُخبر الجميع بذلك: أيُّها السَّيِّدات والسادة، بيتهوفن شخصيَّاً في أريليانا!

من الواضح أن الأشهر التي أمضاها في السفر، أثَّرت على القوى العقلية لذلك

المسكين. لقد فَقَدَ عقله تماماً. لم أتمنَّ أن أكون في موضعه أبداً.

ولكنْ، كلَّما كنتُ أقول أشياء من هذا القبيل، وأنا أعضُّ على شَفَتَيَّ، لئلَّا أنفجر من الضحك، كانت نينا تصبح أكثر جِدِّيَّة، كحالها في بيتنا في ميلانو، عندما تُحدِّق في ملصق ذاك الممثِّل الأمريكي ذي العينَيْن الزرقاوَيْن والشَّعْر الأشقر والوجه الملائكي.

أنا أحياناً لا أفهم أختي، أعتقد أنها مُتَبَنَّاة بالفعل.

"مضت نصف ساعة وهو يفعل ذلك"، قالت بصوت رومانسي للغاية، دون أن تَحيد عيناها عن تلك الأيدي التي كانت تصعد وتهبط على الأمواج خلف زجاج النافذة. كانت يداه تطيران وهو يضحك. في لحظات معيَّنة، كان يُغمض حتَّى عينَيْه، مثل عازفي البيانو الحقيقيِّيْن، أولئك الذين يُحيون الحفلات الموسيقية، لكنْ، مع ذلك البيانو المعطوب، كان بوسعي أنا أيضاً أن أتصنَّع العزف، فذلك ليس بالأمر الصعب!

حينئذ، قرَّرتُ أن أغادر مكاني، حتَّى لا يزيد اشمئزازي.

"يعتقد أنه عازف بيانو شهير ..."، قلتُ بينما كنتُ أخرج.

لم تجبْ نينا.

ولكنْ، ما هذا بحقِّ الجحيم؟! كان ينقصني فقط، بعدما سلبني اهتمام العمِّ سلفاتور، أن يسلبَني اهتمام أختي أيضاً، ذلك الأجنبي!

.17

في اليوم التالي، نزلتُ إلى المطبخ، ووجدتُهُ في المنزل، جِلْدٌ وعَظْمٌ كما كان، طويل القامة وكلّه كتفان، والشَّعْر منتصب وحده لشدَّة اتِّساخه. كان يرتدي قميصاً قديماً

للعمِّ سلفاتور، واسعاً جدَّاً عليه، وزوجاً من السراويل القصيرة. لوَهْلَة كدتُ أن أصرخَ وأناديَ أومبرتو رئيس المخفر لإلقاء القبض عليه فوراً، حتَّى وإن لم يرتكبْ جرماً.

لكن الجَدَّة كانت بجانبه، ونينا جالسة أيضاً إلى الطاولة، وينظران إليه وكأن شيئاً لم يكن، بينما احتلَّ هو مكاني واقفاً وسط الغرفة، يشمُّ رائحة الصلصة على النار، والتي كانت صلصتي، ويستعرض نفسه أمام جَدَّتي وأختي. أنا لا أعرف كيف تسير الأمور في الأطراف، تلتفتُ لبُرْهَة، فيسلبونكَ ما تملك من تحت أنفكَ.

"أعتقد أنه يُحبُّ رائحة الخبز"، قالت جَدَّتي، وأنا كنتُ قد بدأتُ أنظر إليها بحَنَق، قصَّة الأناس الأجانب الذين يدخلون إلى بيوتنا، لم تكن تعجبني أبداً.

باشرتُ التفكير بالذهاب لإخبار جَدِّي بالأمر في النادي الاجتماعي، فيطرد الثلاثة من البيت، ونبقى أنا وهو فقط نلعب لعبة "السكوبا" بأوراق اللعب، عندما أضافت الجَدَّة: "كان خارج الباب، وأنا كنتُ عائدة لتوِّي من الفرن، ورائحة الخبز تفوح، وقد مررتُ عند لوتشيانو البقَّال أيضاً، واشتريتُ المرتديلا، والتي تفوح منها رائحة قوية، عندما يتمُّ تقطيعها إلى شرائح ...".

أجل، كانت رائحتها زكيَّة، وعلى الفور خطرتْ ببالي قصَّة، رواها لنا أبي ألف مرَّة، عندما كان صغيراً، ويعانون من الحرمان، وكان الحصول على القليل من المرتديلا يُعدُّ تَرَفَاً. لكنّه كان طفلاً، ويشتهيها، وبعد الكثير من الإلحاح، أعطتْهُ أُمُّه قرشَيْن، ليشتريَ المرتديلا. بعد أن اشتراها، ترك الكيس مفتوحاً على الطاولة، وبينما كان يُحضِر الخبز من الخزانة، اختفت المرتديلا. كان هناك قطٌّ مُشرَّد يلعق شاربَيْه تحت الطاولة! ماذا فعل أبي، الملقَّب جينو؟ أمسك القطَّ، وقصَّ شاربَيْه! حسناً فعل، لو كنتُ مكانه، لقطعتُ ذيل ذاك القطِّ أيضاً.

الأجنبي "اليتيم اليتيم" أشبه بذلك القطِّ، وأنا كنتُ لأقطع يَدَيْه.

وقف وسط المطبخ وذراعاه متشابكتان، لأنه لم يكن يعرف أين يضعهما (بذاك

القميص الواسع كان يبدو وكأنه أحد موظَّفي البلدية، وذلك البنطال القصير كان سروالاً طويلاً، قصَّه العمُّ سلفاتور)، وأقسم أن الأعمى سيُلاحِظ أن ذلك الصَّبيَّ يتضوَّر جوعاً.

"أترغب بشيء تأكله؟"، سألتْهُ الجَدَّة.

لم يفكِّر ثانية واحدة، وأومأ برأسه موافِقاً. عندئذ تناولتِ الجَدَّةُ قطعةَ خبز الصَّمُّون التي تزن كيلوغرامَيْن، والتي لا تزال ساخنة، أَسنَدَتْها على صدرها، وقطعتْ منها ثلاث شرائح بسكِّين طويلة.

"أتريدون أنتُم أيضاً؟"، سألتْنا أنا ونينا.

لكني كنتُ غاضباً جدّاً، ولم أجبْ، لم أردْ تقاسُمَ خُبزي مع ذاك. رفضتْ نينا بهزَّة من رأسها، كانت مشغولة تماماً بتأمُّل ذلك الضامر ذي النظرة النَّاريَّة الذي يظنُّ نفسه بيتهوفن.

وضعتِ الجَدَّةُ الخبزُ على خرقة نظيفة، تناولت المرتديلا من الثَّلَّاجة، ووضعتْ كل شيء تحت أنفه. للحظة بدا وكأنه على وشك التهام الطاولة. لم أر قطُّ شخصاً يأكل بذلك الهيجان، من دون أن يمضغ تقريباً. كنَّا أنا ونينا ننظر إليه مذهولَيْن، والجَدَّةُ تُحدِّق فيه بقلق.

"رويداً، رويداً"، تقول له، "وإلَّا ستختنق".

لكنه لم يكن يبالي، كان يأكل وكفى.

لقد تمكَّن من التهام نصف قطعة الصَّمُّون ذات الكيلوغرامَيْن، وكلّ المرتديلا، ونصف جبن السكامورتسا، والزيتون والسّلامي الحارّ أيضاً الذي تُحضِّره الجَدَّة، وهو أفضل ما يمكن أن يوجَد في العالَم.

سألتْهُ الجَدَّة، مُجامِلة، إذا كان ما يزال جائعاً؟! ومع أن ذلك كان مستحيلاً، إلَّا أنه

أجاب بنعم، وهو يواصل هزَّ رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل، مثل نقَّار الخشب. عندئذ، أخذت الجَدَّة قليلاً من صلصة اللحم عن الموقد، حيث كانت تطبخه، وقطعت له المزيد من الخبز.

أتى اليتيم على كلّ شيء.

أكل كالحيوان، لم يكن ذلك جوعاً بشريَّاً.

"ما الأمر؟ ألا يُطعمُكَ العمُّ سلفاتور؟"، سألتْهُ الجَدَّة.

لم يردّ "اليتيم اليتيم"، كان فمه مَحشوَّاً بالطعام، وعندما يكون الفم مليئاً، لا تعمل الأُذنان.

"بحقِّ الرَّبِّ منذُ متى لم تأكل؟"، سألتْهُ الجَدَّة مرَّة أخرى.

نظر إليها الأجنبي وكأنها حمامة وهو نَسْر، فإذا لم تحتطْ، أَكَلَهَا هي أيضاً!

ثمَّ أشار خمسة بأصابعه.

"خمسة أيَّام"، قلتُ أنا. "وإذاً ...".

نفى الأجنبي برأسه، بينما كان ينتهي من مضغ لقمته.

"خمسة أشهر"، سألت الجَدَّة.

أجاب الأجنبي بنعم.

"منذُ أن سافرنا".

كان يمكنه التَّحدُّث بلغتنا.

دقَّ رقَّاص الساعة في الصالة اثنَتَي عشرة مرَّة ونصف. قفزت الجَدَّة عن الكرسي.

"اذهبْ، اذهبِ الآن، أيُّها الشَّابُّ الصغير ... نونتسيو قادم، ومن الأفضل ألَّا يجدكَ هنا".

في الواقع، إذا وجده الجَدُّ هنا، ربَّما سيقتله.

وقبل أن يغادر، استجمعتْ نينا كل شجاعتها، وسألتْهُ: "ما اسمكَ؟". لم يُجبْ.

عندئذ، كرَّرتِ السؤال بيَدَيْها: "أنا – نينا – ما – هو – اسمكَ - أنتَ؟"، وقامتْ برسم نوع من طيف رجل في الهواء، مشيرة إلى صدرها. "جوش"، أجاب. "اسمي جوش".

فهربت نينا إلى الأعلى عبر الدرج.

عاد الصَّبيُّ إلى العمِّ سلفاتور بمعدة ممتلئة.

في الظهيرة، طلبت منَّا الجَدَّة أن نصحبَها إلى العمِّ سلفاتور الذي كان يجلس، كعادته، على الكرسيِّ أمام باب المنزل، مع العُكَّاز المسنود على الأرض، يُحدِّق في الحائط، ويشحذ الذاكرة.

"مساء الخير، يا عمّ سلفاتور".

"مساء الخير، يا عمَّة بياتري".

"هل لي أن أسألَكم سؤالاً، يا عمّ سلفاتور؟".

"كيف لا؟"، التي كانت تعني "حتماً".

"هل يمكن أن أعرف ما الطعام الذي تُقدِّمونه للصَّبيِّ؟".

"نفس الطعام الذي آكله أنا، بالطبع. لا شيء أقلّ من ذلك!"، هتف العمّ سلفاتور.

حين يتمُّ استجوابه لا يُجيب بصوت مخملي، إنما بصوت أجشّ، كما لو أنه يُدخِّن مائة سيجارة في اليوم، لكنه لم يكن يُدخِّن ولا واحدة.

رفعت الجَدَّة عينَيْها إلى السماء. "وماذا تعشَّيتُم مساء أمس؟ للتَّأكُّد فحسب ...".

فكَّر العمّ سلفاتور في ذلك لمدَّة دقيقة أو اثنَتَيْن، ربَّما ثلاثة.

"لا أتذكَّر، يا عمَّة بياتري. إذا كنتُم ترغبون، يمكنني أن أقول لكم ماذا أكلتُ في اليوم الذي تزوَّجتُ فيه، في بروكلين. كل الأشياء القديمة، أحتفظ بها هنا ..."، ولمس صدغه.

"إذا فكَّرتُم في الأمر قليلاً، أنا واثقة من أنكم ستتذكَّرون".

بذل العجوز جهداً كبيراً، وعند حَدٍّ معيَّن، وهو جالس بتلك الوضعية، اعتقدتُ أنه لربَّما تغوَّط في ثيابه.

"آه، نعم". كان سعيداً جدَّاً حقَّاً.

"تفضَّلوا".

"كاكي".

"فاكهة الكاكي؟".

"آه، يا عمَّة بياتري، ثمرة كاكي فحسب".

"ثمرة كاكي فقط؟".

"لكنها كانت كبيرة الحجم"، وأشار بيَدَيْه إلى شكل بحجم كرة قَدَم، وكان يعني أنها كبيرة جدًّاً.

هزَّت الجَدَّة رأسها. "الصَّبيُّ يجب أن يأكل"، قالتْ.

"كيف؟". العمُّ سلفاتور المسكين لديه مشاكل كثيرة مع السَّمْع.

"ذاك صبيٌّ، يا عمّ سلفاتور".

"إِهْ ... صبيّ ... نعم ...".

"يجب أن يأكل".

لكن العمَّ سلفاتور استدار ببطء نحو الجدار، لأن الجدار لا بُدَّ أن يكون قد قال له شيئاً ما. كان قد جمدَ، وكان ذلك تعبيره عن الاندهاش.

لم يبقَ شيء نفعله، فعُدْنا إلى البيت.

.18

كان جوش لا يغادر المنزل أبداً، وإذا خرج، فلأداء بعض الخدمات للعمِّ سلفاتور. كان يُبقِي نفسَهُ حبيس البيت دائماً، وأغلب الأوقات، يجلس أمام البيانو، ويتظاهر بالعزف. كان يذهب إلى البقَّال، ويقول "ورق"، ولينو، ابن ماريا ولوتشيانو صاحبَي البقَّاليَّة، ينظران إليه من وراء المنضدة بعيون مُحملِقَة، كما لو أنه قادم من كوكب آخر، ويبيعه حزمة من ورق التواليت. يحضر إلى مَتجَر الجَدَّة، ويقول "ملح"، والجَدَّة أو نينا تعطيانه الملح. يذهب لعند بيبّينو، ويقول "آيس كريم". وهو يلفُّ في ورقة وردية علبَتَيْن من آيس كريم "كُوبّا دِلْ نُونُّو" ويضيف أيضاً واحدة له كهدية.

أنا ونينا كنَّا نتجسَّس على باب منزل العمِّ سلفاتور من نافذة الغرفة (إذا مرَّ الموت بالصدفة، فسوف يأخذه، لأنه سيعتقد أنه ينتظره، بما أنه كان يجلس دائماً على ذلك الكرسيّ)، كنَّا نريد أن نرى فيما إذا كان سيحدث شيء ما إذا "اليتيم اليتيم" سوف يخرج من البيت.

بعد ظُهر أحد الأيَّام، رأيناه يخرج، طويلاً ونحيفاً كما كان، وهُرعنا إلى الساحة للبحث عن الآخرين. كان ريفِهْ ومارلينو على باب مقهى بيبّينو. رمقَني ريفِهْ بنظرة جانبية مثل الذئب. ثمَّ فهموا أن ثمَّة شيء يتعلَّق بالأجنبي، والغريب أنهم تبعونا.

استندْنا على الجدار، في أعلى المنحدر الذي يؤدِّي من الساحة إلى بيوتنا، من هذا الجانب، ومن الجانب الآخر للشارع. حجارة الطريق الضخمة تشرَّبت حرارة منتصف النهار، ولا تزال ساخنة. لم يكن لدينا شيء نفعله، كان النظر إلى الأجنبي الذي يعود إلى البيت حاملاً الطرود في يَدَيْه، يبدو لنا وكأنه تسلية.

هو رآنا من بعيد، وأصبحت عيناه على الفور صغيرَتَيْن كأعين الأرانب التي كانت الجَدَّة تحملها من آذانها. كنَّا نُخيفه. لكن الشيء السَّيِّئ هو أنّه، عندما تُخيف أحد ما، ينتهي بكَ الأمر لأن تشعر بالخوف حقَّاً، ويمكنكَ أن تصبح شرساً. لكن الصَّبيَّ جوش شجاع. توقَّف، أخذ نَفَسَاً عميقاً، وشدَّ على صدره الكيس الذي يحمله بين

يَدَيْه، ثمَّ مرَّ، مُطأطِئ الرأس، وعيناه تُحدِّقان بالأرض، وسط نظراتنا.

عندئذ، صاح ريفِهْ "بووووه!" ليُخيفَه. ثمَّ صرخ في وجهه، متظاهِراً بالتَّحدُّث إلى صديقه: "كم هو مثير للاشمئزاز، إن رائحته تفوح من بعيد، يبدو وكأنه خنزير حين يتغوَّط". بدأ ماريولينو يضحك. نحن لم نقلْ له شيئاً.

سرَّع جوش من وتيرة خُطواته.

"اركضْ، اركضْ، يا أيُّها الأرنب"، قال ريفِهْ. "يكفي ألَّا تذهب وتنادي آخرين من أمثالكَ، لأنّه هنا، في أريليانا، لا يوجد مكان لكم".

عندما مرَّ تحت قصر مِنْزاسنيور، سرَّع الأجنبي خُطاه أكثر، ثمَّ وصل إلى نهاية الشارع، وانعطف يميناً، نحو منزل العمِّ سلفاتور.

"اخرسْ، يا ريفِهْ"، قالت نينا. أنا لا أعرف من أين خرجتْ أختي هذه؟! "حتَّى أعمامكَ هاجروا، أولئك الذين ذهبوا إلى أستراليا. اهتمّ بشؤونكَ الخاصَّة، ما علاقته بذلك؟"، صَرَخَتْ في وجهه.

نظر ريفِهْ إليها برأسٍ مُنحنٍ، وقال باستهزاء "يبدو أننا نُحبُّ ذلك الخنزير، يا آنسة ... ها؟"، ثمَّ انفجر ضاحكاً. ماريولينو أخذ ينخر مثل الخنازير: "نخ، نخ، نخ".

"ولكنْ، عَمَّ تتحدَّث، اخرسْ"، أجابتْ نينا، "اهتمّ بنفسِكَ ...".

"أعرف أن هؤلاء يفعلون ما فعلْناه"، قال ريفِهْ وهو يشير بالسَّبَّابة إلى صدرها، "إنما هم سيِّئون، بينما نحن عمَّالٌ نشيطون". وأراها يَدَيْه القَذِرَتَيْن المليئَتَيْن بالأثفان. "نحن نذهب إلى الأماكن التي يتوفَّر فيها العمل، هم يأتون إلى هنا حيث لا عمل حتَّى لنا ... هؤلاء الخنازير يريدون أن يسلبونا ذلك القليل الذي لدينا ... ولكنْ، عليه أن يُجرِّب ذلك! سأقتل ذلك المُخنَّث بهاتَيْن اليَدَيْن".

بقيْنا صامتين. كانت نينا على وشك البكاء. لم يسمع أحد ريفِهْ من قبل وهو يتكلَّم

بهذه الطريقة، ماعدا ماريولينو، وبالفعل كان الوحيد الذي وافقَهُ الرأي.

"أنا سأساعدكَ"، قال ذلك الطفل الأرعن المُلطَّخ بسواد الأرض، كانت عيناه تلمعان من الهيجان.

لم يكن ريفِهْ، بل كانا ذئبَيْن معاً، "هؤلاء يعتقدون أنّ بإمكانهم القدوم إلى أريليانا، وعمل ما يريدون. والدي يعمل الآن بجهد مُضاعَف، وينال نفس الأجر، بسبب هؤلاء الحُثالة المُقرِفين. علينا أن نقتلَهم واحداً تلو الآخر، هؤلاء السبعة".

نظرتْ نينا إلى ڤاليريا التوأم. أومأت ڤاليريا "لا" برأسها، ثمَّ قالت: "لا تُصغي إليه، إنه مجرَّد طفل يرعى الأغنام"، لأن ڤاليريا كانت كبيرة في سنِّي. وماريولينو مُغطَّى بالتراب حتَّى تحت أظافره، ووجهه مُتَّسخ بالوحل، وتُغطِّي حذاءه طبقة من الوحل الجافِّ، ويرتدي قميصاً إسكوتلنديا ضيِّقاً، وبنطال جينز يحمله حزام بثقب أخير أضيق بنصف متر من الأحزمة العادية، وبرؤيته هكذا يبدو أكبر من عمره. بينما كانت ڤاليريا مجرَّد ابنة قاضٍ.

"ماذا تقولين؟"، استدار ماريولينو نحوها ونحو نينا، لأنه عندما الشخص العامل، يشعر أنه يستطيع التَّحدُّث إلى أيٍّ كان، حتَّى إلى الملك شخصيَّاً. "ماذا تقولين لصديقتكِ من ميلانو؟ أتتكلَّمان عن حقائب اليد أم العطور؟! ماذا تعرفين أنتِ عن الهجرة والعمل في الأرض؟".

" أعرف أكثر بكثير ممَّا تعرفُهُ أنتَ!"، أجابت ڤاليريا، واحمرَّ وجهها من الغضب. "أبي وجَدِّي رفعا ألف دعوى لأجل الأراضي".

"وكيف لا؟!"، قال ريفِهْ، وما زال مُستنداً على الحائط، "في قاعات المحكمة، في ماتيرا. حتَّى تلك التي ضدَّ العمِّ روكّو، أليس هذا صحيحاً؟ أنتُم لا تعرفون حتَّى ما هو لون الأرض، تتكلَّمون بلا جدوى ...."

ثمَّ توقَّف وحدَّق مباشرة في عينَي ڤاليريا بقسوة بالغة، بالنسبة إلى طفل في مثل

سنِّه، بدا وكأنه على وشك الانفجار. اقترب منها، ووجَّه سبَّابته نحو صدرها مجدَّداً. "أولئك يسلبون عملنا نحن، حتَّى بيتنا بالإيجار، رغم أنه لامْيُون قذر، وليس هذا من شأنكِ ووالدكِ. بالتالي، اهتمِّي بشأنكِ الخاصِّ، لأن مَنْ يهتمُّ بشأنه، يعيش مائة عام. أنا وماريولينو سوف نُلقِّنه درساً لن ينساه"، ثمَّ عاد لنظرته المواربة.

"سترون كيف سنجعله يندم على مجيئه".

ساد الصمت.

كان ريفِهْ مُحِقَّاً. أخفضت ڤاليريا وإيمّا رأسَيْهما، وابتعدتا بصمت. دعوى المحكمة ضدَّ العمِّ روكّو، الذي سمَّم الأراضي، ودمَّر حياة أريليانا، لم يرفعْها أيُّ قاضٍ أبداً. حتَّى القاضي لوبيانو.

حاولتُ أن أقول شيئاً، لكن ريفِهْ أسكتَني. "اخرسْ أنتَ، لأن كل ما حصل هو بسببكَ. اخجلْ على نفسكَ، وارجعْ من حيث أتيتَ، إلى تلك البؤرة القذرة، ميلانو". ثمَّ حدَّق فيَّ بثبات، ليجعلَني أشعر بالألم. "ألم تفهمْ بعد أنه لا يوجد أحد هنا يريدكَ؟".

كان مُحِقَّاً: فأنا لم أكن مُهاجراً جنوبيَّاً، ولم أكن أجنبيَّاً. كنتُ ابن الهجرة فحسب. أحياناً، حتَّى أنا لا أتقبَّل نفسي، لكنْ، لم يكن بإمكاني الفرار.

.19

أمضيْنا أنا ونينا أيَّامنا في البيت. عصر ذلك اليوم كنتُ أقرأ كالعادة "مئة قصعة من الجليد"، بينما باشرتْ نينا كتابها الرابع منذُ أن وصلْنا (تستمتع بأوليفر تويست كثيراً، ويُبكيها أحياناً، حسب الفصول، كنتُ أتمنَّى أن أقرأه أنا أيضاً)، فجأة، سمعْنا صراخاً.

بداية لم نكترث له، ففي ذلك الوقت، كان الجميع يصرخون في أريليانا، كل ما كانوا يفعلونه هو الصراخ وتحطيم الأغراض.

لكن الصرخات اقتربتْ، لذا تركْنا كُتُبَنا على السرير، ونظرْنا من النافذة.

سمعْنا حينها دَوِيَّ طلقة ناريَّة، وكما سمعناها نحن، سمعها الجميع، لقد كانت مُدَوِّيَة.

كان الجَدُّ وأشخاص آخرون قد خرجوا إلى الشارع.

"إنّها طلقة بندقية"، قال الجَدُّ، حيث في كلّ مرَّة يتحدَّث فيها عن الأسلحة يتجدَّد شبابه دفعة واحدة لأربعين أو خمسين عاماً (يحتفظ في الجزء الخلفي من الخزانة بمُسدَّس قديم، لكنّه أمر لا يمكن أن يُقال لأحد، لقد جعلَني أُقسِم ألَّا أُخبر أحداً أبداً. حتَّى إنه سمح لي أن أراه في إحدى المرَّات، لأتباهى به فحسب، ثمَّ أخفاه ثانية). "لقد جاءت من الأعلى"، ظلَّ يُكرِّر ويشير بذراعه، وكان يعني من الطرف العلوي للبلدة.

"أجل، من الكهوف"، قال جوزيبِّهْ، والد دومينيكو، الذي خرج من ورشة النجارة المجاوِرة، وكان هو أيضاً يقف في عرض الشارع. في هذه الأثناء، خرج الناس من البيوت لِتَحرِّي ما حدث، وبدؤوا يتجاذبون أطراف الحديث. وكلَّما تحدَّثوا أكثر، ازداد عددهم.

ثمَّ مشى الجميع عبر الأزقَّة المُفضيَة إلى الساحة العلوية، حيث توجد الكهوف التي يُحفَظ فيها النبيذ، ومكبُّ القمامة، لكنْ، لم يكن هناك أيُّ أثر لإطلاق النار.

كانت الجَدَّة مضطربة، وهي تمضي جيئة وذهاباً في الشارع الضَّيِّق أمام البيت. بينما كان الجَدُّ مليئاً بالحيوية. حتَّى العمّ سلفاتور كان قد انتعش، وحوَّل نظره نحو الشارع، وتوقَّف عن التحديق في الحائط.

وأنا بدوري خرجتُ وذهبتُ أتجوَّل في الجوار، لأرى ما إذا كان يمكنني أن أكتشف شيئاً، لأنني كنتُ قد ضقتُ ذرعاً من البقاء في البيت، وأيُّ عذر للخروج كان مقبولاً. سلكتُ الطريق بين الأزقَّة الصاعدة، وانتهى بي المطاف في الكهوف.

تجمَّع الكثير من الناس في الساحة الصغيرة أعلى البلدة. وكانوا ينظرون يُمْنة ويُسرة، يُطلُّون من الدرابزين الذي يشرف على الوادي، من دون أن يعثروا على شيء. نادوا بصوتٍ عالٍ، كما لو أنّ شخصاً ما يمكنه الإجابة.

لم تُسمَع بعد ذلك أصوات طلقات.

ثمَّ بدؤوا يغادرون، الواحد تلو الآخر، وعاد كل واحد منهم إلى عمله.

لكني بقيتُ، لم أرغبْ بالعودة إلى البيت. بجانب بوَّابة مبنى مهجور منذُ سنين، كانت توجد فتحة، عليها قضبان حديدية شبيهة بقضبان السجون، لا يزيد ارتفاعها عن متر واحد. وكانت القضبان مقصوصة من أسفلها، ولم يتبقَّ منها سوى الرؤوس الحادَّة والصَّدِئَة. كان يوجد مجرى خلف ذلك المبنى القديم، هو مجرَّد منفذ لمياه الأمطار وممرٍّ للجرذان والحيوانات الأخرى.

في صِغَرِنا، كنَّا أنا وريفِهْ ننسلُّ داخله. يجب الانبطاح أرضاً والزحف والحرص على ألَّا يعلق قميصكَ بقضبان الحديد. في إحدى المرَّات، احتفظْنا هناك بثلاث قطط حديثة الولادة كنَّا قد سرقناها من سلَّة للعمَّة كونتشيتّا. عشْنا معها لبضعة أيَّام، نُقدِّم لها الحليب، ونتركها تلعب. أخذ ريفِهْ إحداها إلى البيت، وأنا أيضاً كنتُ أريد أَخْذ إحداها، لكنني لم أستطع فعل ذلك، وإلَّا لكانت الجَدَّة أعادتْهُ إلى العمَّة كونتشيتّا. لذا أهدينا القطَّيْن الأُخرَيَيْن إلى جوفانّينو.

وقتٌ طويل مرَّ دون أن أزحفَ إلى الداخل. كنتُ أريد التَّأكُّد فيما إذا ما زلتُ أستطيع عبوره حتَّى الآن. انبطحتُ على بطني، وحشرتُ قَدَمي، وحرصتُ ألَّا يعلق قميصي. بدا وكأنه لا يوجد شيء في الداخل، لأنه كان مُظلِماً تماماً، وبالمقابل كنتُ

أتذكَّره جيِّداً. تابعتُ الحائط بيدي، ووجدتُ الفتحة على اليمين، باب محفور في الجدار، وفيه تجويف ينحدر نحو الأسفل، ويتحوَّل إلى نفقٍ تحت أرضي، يؤدِّي إلى الجزء الخلفي لواحدة من الكهوف المهجورة. نزلتُ، فانتابَني ذلك الشعور الذي كنتُ أشعر به حين كنتُ صغيراً مع ريفِهْ، الشيء الوحيد الذي كنَّا نفعله هو اختراع المغامرات.

كان الكهف ضخماً، والقبَّة الصَّخريَّة عالية جدَّاً. في البداية، لم أرَ شيئاً.

ثمَّ رأيتُ مشهداً، لم أكن أتوقَّعه.

كان في العمق ثلاثة أطياف، تقف بلا حراك.

ثمَّ تناهى إلى سَمْعي صوت. كان صوت ريفِهْ.

كان جوش الأجنبي يقف ووجهه إلى الحائط، وأولئك الذئاب، ريفِهْ وماريولينو، يُمسِكَان به من رقبته. جوش كان أطول منهما، ولكنهما اثنان.

حمل ريفِهْ بإحدى يَدَيْه بندقية صيد والده، التي كان فرانكو يُخبِّئها في كوخ الحقل. لقد جُنَّ حقَّاً. كان يقول "والآن سوف أقتلكَ".

يصرخ بذلك، وصدى كلّ كلمة يتردَّد بين الجدران الحجرية.

حينها، ومثل الدكتور إيتالو سيرِّي في قصَّة "مائة ألف قصعة من الجليد" حين يُدرك وصول الدَّبَّابات الرُّوسيَّة في برد السهوب، ذهبتُ ببطءٍ، واحتميتُ خلف حافَّة إحدى صخور الطفة الإسفنجية، حيث يمكنني أن أرى كل شيء. كان ريفِهْ يُثبِّت جوش على الحائط، ويقول له إنّ الذنب ذنبه وذنب عائلته، حيث يعمل الجميع الآن ضعف الوقت، ليُحصِّلوا أجوراً مماثلة لما كانت عليه في السابق، وأن كل شيء في البلدة انقلب رأساً على عقب.

لم ينبسْ جوش بكلمة. كان يفوقهم طولاً، لكنّه وقع في الفخِّ.

ثمَّ طلب ريفِهْ من ماريولينو أن يُمسِكَه بثبات، وابتعد بضع خطوات.

رفع الجفت نحو جوش، ثمَّ أطلق النار. طاااااخ. أنا أمسكتُ بالكيس الذي أحمله في رقبتي.

خلف ضجَّة الطلقة انفجرت صرخة "آآآه" قويَّة لجوش. ماريولينو تركه، والأجنبي سقط على الأرض.

لقد قَتَلَهُ، فكَّرتُ. ذلك المجنون ريفِهْ قَتَلَ الأجنبي.

لكنْ، في جدار المغارة المُكوَّن من حجارة الطفة البركانية، وفي أعلى النقطة تماماً، حيث رأس جوش، كان يوجد ثقب، لا يزال يُهرهِرُ التراب.

لقد أطلق النار أعلى من رأسه بقليل.

ومثل إيتالو سيرِّي على الجبهة الرُّوسيَّة. مع رجع الدَّوِيِّ الذي ترك بعده صمتاً يصمُّ الآذان، هربتُ خارجاً.

ريفِهْ مجنون، وأنا كنتُ أريد أن أنتقم.

أنتقم من ريفِهْ، من ازدرائه، من السكوت الذي يستمرُّ منذُ أسابيع. لم تكن هناك فرصة أفضل من الآن. لم يكن خطئي إذا كنتُ قد وجدتُ المهاجرين في البرج، لم أتقصَّد ذلك. سأُريه الآن مَنْ أكون.

إذا اكتشف ريفِهْ الأمر سيقتلُني. أعرف عينَيْه تماماً. ماريولينو الراباتورتيني يجرُّه إلى الطريق الخطأ.

ذهبتُ للبحث عن دومينيكو.

كان في ورشة والدَيْه، يُرمِّمون خزانة جوارير ذات مقابض متشابكة. ناديتُهُ ورويتُ

له ما رأيتُهُ.

دون أن يقول شيئاً لأبيه، قَفَزْنا على موتور الفيسبا، وذهبْنا إلى الحقول لاستدعاء فرانكو، والد ريفِهْ، من مزرعة لوكانيا. لم نجد أفضل من هذا الحَلِّ.

كان فرانكو داخل الحظيرة الرئيسة، يُصلِّح ماكينة تثبيت أغطية المرطبانات الزُّجاجيَّة.

بعد أن كلَّمه دومينيكو، قال فرنكو شيئاً لزملائه، ثمَّ ذهب إلى الكوخ الخشبي، ليتحقَّق إذا ما كانت البندقية في مكانها، لكنها لم تكن هناك.

صَعِدَ على الدَّرَّاجة النَّاريَّة ثلاثية العجلات، وتبعَنا على الطريق المُؤدِّية إلى البلدة، ومن هناك صِعِدَ إلى الكهوف.

كان لا يمكن لفرانكو ودومينيكو الولوج من الفتحة، كونهما كبيرَيْن. لذلك، قمْنا بجولة حول المباني، مروراً بالساحة العليا، ووجدْنا أنفسنا أمام الباب الخشبي للكهف المهجور.

كان هنالك جنزيرٌ وقفلٌ كبيرٌ صَدِئٌ، مَنْ يدري كم من الوقت مرَّ ولم يلمسْهُ أحد؟!

ذهب فرانكو إلى صندوق العدَّة في الدَّرَّاجة ثلاثية العجلات. بحث عن مطرقة، وكَسَرَ القفل ببضع ضربات.

كان ريفِهْ وجوش وماريولينو في منتصف القبو الكبير، بمواجهة الجدار الجانبي، يغمرهم الآن الضوء الذي دخل من الباب. كان الأجنبي مستلقياً على الأرض، يركلانه ويلكمانه.

التفتَ ريفِهْ، ثمَّ بقي بلا حراك، مشلولاً.

رمقَني بنظرة ذئب، استغرقه الأمر لحظات، ليفهم أنني كنتُ أنا الجاسوس. وجه ماريولينو كان متغطرِساً كالعادة.

اتَّجه فرانكو نحو ابنه، وانتزع البندقية منه بحركة خاطفة، ثمَّ انهال عليه بالضرب، كانت يَدَاه شفرتا مروحة تدور: على الظَّهْر، والرِّجلَيْن، والوجه، واليافوخ الحليق. بدا ريفِهْ أمامنا صغيراً جدَّاً، بالمقارنة مع أبيه. كان فرانكو يرفعه عن الأرض، عندما يحاول المقاومة، ويُلقي به بعيداً. ثمَّ يتبعه، ويكيل له الضربات ثانية. كان ريفِهْ يرتجف، ويحمي وجهه بيَدَيْه.

كان واضحاً أنه لا يزال طفلاً صغيراً.

في النهاية، عاد الذئب، ليكون جرواً. بعد فترة، لم يسعْهُ الصمود، لدرجة أنه بدأ في البكاء.

ظلَّ الأجنبي طيلة الوقت ملتصقاً بالأرض، رأسه محشور بين ركبَتَيْه. لم يرَ حتَّى الأب وهو يعاقب ابنه.

.20

لحسن الحظِّ، كنَّا على مشارف عيد الوحدة(23)، وعلى البهجة أن تعمَّ أرجاء البلدة، كما في كل عام، مع أفضل نقانق في العالَم، ولعبة الخنزير الصغير الذي يختار أيَّ علبة يدخلها.

كان كلّ مَنْ في البلدة مُنهمِكاً بالتحضيرات، فهناك مَنْ يبني المنصَّة في الساحة، ومَنْ يُوزِّع الإنارة، ويحمل معدَّات الصّوت، ينصب خِيَم الطعام. كان أبي يتَّصل كل يوم،

فبالنسبة إليه عيد الوحدة هو من أجمل الأعياد، وبما أنه لا يمكنه القدوم إلى أريليانا، طلب منَّا أن نرويَ له عن الاستعدادات. كان يُمضي ساعَتَيْن على الهاتف مع نينا، يتحدَّثان فيها بكل الأمور.

في زقاقٍ خالٍ من المارَّة يُؤدِّي إلى ساحة الساعة، التقيتُ بريفِهْ بعد ظُهر أحد الأيَّام.

بعد العقاب الذي ناله من فرانكو، شاع بالبلدة ما فعله: "لقد سَرَقَ بندقية الصيد، ليقتلَ الأجنبي".

"لو أنه قَتَلَهُ حقَّاً"، سمعتُ مَنْ يقول لبيشولينو في مقهى بيبّينو. " لكان أَثبتَ على الأقلِّ جدارته مرَّة واحدة وإلى الأبد. إنما انهالت عليه الصفعات والركلات فحسب"، وأخذ الجميع يضحكون. "إنه مجرَّد طفل، ماذا تريده أن يفعل؟"، أجاب كاباتسابّوني، الذي، منذُ أصبح عاطلاً عن العمل، صار يمضي معظم نهاره في المقهى، يشرب "أمارو لوكانو"، ويلعب الورق.

ما عاد ريفِهْ يخرج إلَّا إلى العمل، والناس يتندَّرون عليه في الشارع، وينادونه: "إيه، أيُّها الكاوبوي".

"كلينت إيستوود!"، سخر منه دومينيكو في إحدى المرَّات بينما كان يمرُّ من أمام اللَّامْيُون على درَّاجته النَّاريَّة، فقد كان يعلم أن ريفِهْ يحبس نفسه في البيت، وسمعتُهُ أنا من غرفة جدَّيَّ.

عندما التقيْنا، كان ريفِهْ لا يزال يحمل على وجهه آثار ضربات والده، إحدى عينَيْه مُتورِّمة، والكدمات مُتوزِّعة على رأسه.

كنتُ قد انتقمتُ، ولكنْ، كيف كان يمكنه أن يتأكَّد من ذلك؟

توقَّفتُ. بينما كان يسير نحوي بخُطوات ثقيلة مُطأطِئاً. حيَّيتُهُ كما لو أن كل شيء طبيعي. "ريفِهْ".

توقَّف أمامي مباشرة، لبُرْهَة من الوقت.

رفع رأسه، ورمَقَني، كما لو أنني شيءٌ لا قيمة له، خنزير، أُنثى خنزير. كان على ما هو عليه خَصَّاء خنازير.

"أنتَ ميّت، بالنسبة إليَّ"، قال. ونظر إليَّ نظرة ملؤها القسوة والحَنَق. "ميّت"، كرَّرها ثانية. "لا تَدَعْني أراكَ بعد الآن، وإلَّا سأقتلكَ"، ثمَّ مضى في طريقه.

عُدتُ إلى البيت حزيناً، لقد فَقَدْتُ ريفِهْ، صديقي المُفضَّل في أريليانا. لقد سلَّمتُهُ لقبضة والده، وهذا قمَّة العار في أريليانا.

لعلَّ لقب إيستوود الجديد سيبقى مُلتصقاً به، ومن الممكن أن يحمله معه حتَّى الممات.

كنتُ مُستلقياً على السرير، وأفكِّر.

عليَّ أن أجد ما يُصلِح بيننا.

شيء كبير مثل ذاك الذي بعتُهُ لأجله. شيء خارج عن المألوف.

نهضتُ مُنتفِضاً.

لديَّ ما هو أكبر من كلّ الأشياء الأخرى.

نزلتُ الدرجات مسرِعاً، خرجتُ ومررتُ من أمام منزل العمِّ سلفاتور، لكنْ، كالعادة كان ثابتاً أمام الجدار حتَّى إنه لم يرَني.

ثمَّ ذهبتُ إلى منزل ماريولينو، في نهاية الشارع نفسه.

وقفتُ أمام البيت، وناديتُهُ: "ماريِيْ! ماريِيْ!"(24).

أطلَّتْ شقيقته الكبرى من إحدى النوافذ، وجَدَّتُهُ من النافذة الأخرى. كانتا مُتماثِلَتَيْن، طائرَي حدأة تبحثان عن جيفة.

"ماذا تريد؟"، سألتْ شقيقته. كان شَعْرها دِهْنِيَّاً، ووجهها مليء بالبثور، وأسنانها صفراء. من خلفها، ومثل طيف، ظهرت أُمُّها أيضاً، راباتورتية بالتكشيرة الشَّيطانيَّة. عندما رأتْ أنني مجرَّد طفل، تراجعتْ.

"أريد أن أتكلَّم مع ريفِهْ"، أجبتُ وأنا أنظر إلى الأعلى.

"ريفِهْ غير موجود"، قالت شقيقته.

"أنا أعرف أنه موجود".

"وكيف لكَ أن تعرف ذلك؟".

"لأنه يُلازِم دائماً البيت عندما لا يعمل".

"ومَنْ يُخبرُكَ بهذه الأشياء؟".

"أنا أعرفها بنفسي".

كانت تمضغ العلكة، وقامت باستخلاص بالون من هنا.

"إنه هنا ... إنه هنا ...". وصل الصوت المخملي من بعيد. استدرتُ، فإذا بالعمِّ سلفاتور جالساً على حافَّة الكرسي، يشير بعُكَّازه نحو نافذة.

"إنّه في الداخل، لقد رأيتُهُ عند وصوله. لقد مرَّ من هنا"، قال العمُّ سلفاتور.

"أنتُم تُبصرون أيضاً؟"، سألتْهُ الرَّابتورتيَّة.

"أفضل منكِ"، أجاب العمُّ سلفاتور. "دَعِي الصَّبيَّ يدخل".

فكَّرتْ تلك قليلاً، ثمَّ عادت إلى الداخل، وبينما كانت تُغلِق الأباجور، قالت: "هيَّا، تحرَّكْ، تعالَ".

كان المنزل مثيراً للاشمئزاز، تفوح منه رائحة بول الكلب والقطِّ. كان ريفِهْ مستلقياً على أريكة مع ماريولينو، يشاهدان التلفاز، ويتناولان خبزاً وطماطم.

صَعَقَني ماريولينو بنظرته.

تظاهر ريفِهْ بعدم رؤيتي، وبقي مستديراً نحو التلفاز، يمضغ لقمته.

"اخرجْ، أريد أن أُخبركَ بسرٍّ"، قلتُ له.

"أَخبِرْنا إيَّاه هنا"، أجاب ماريولينو.

"يجب أن يسمعَهُ ريفِهْ فقط".

"ولماذا؟"

"لأن السِّرَّ سرِّي، وأنا أُقرِّر لِمَنْ أقوله".

"وما هو هذا السِّرُّ؟".

"إنه سرٌّ مُهمٌّ، ولن أقوله لكَ".

"آهاااا، مُهمٌّ"، استهزأ ماريولينو.

"ليس مُهمَّاً فحسب، بل مُهمَّاً جدَّاً"، ساد الصمت للحظة. "إنه يتعلَّق بالأجنبي؟".

عندئذ، استقام ريفِهْ، حتَّى إنه رَمَقَني بطرف عينه. لاحظَ أنني لا أتحرَّك، فتكلَّم. "يجب أن تقولَ أيَّ نوع من السِّرِّيَّة، وإلَّا لن آتيَ".

فكَّرتُ للحظة في الأمر. "إنه كبير. يمكنكم أن تتخلَّصوا منه".

"قُلْهُ هنا"، كرَّر ماريولينو.

"كلَّا".

عندئذ، عضَّ ريفِهْ على أسنانه، ونهض على مَضَض.

"سأعود حالاً"، قال لماريولينو.

"إلى أين أنتَ ذاهب؟ سآتي أنا أيضاً"، قال ماريولينو.

"إنّه شيء يخصُّنا. اهتمّ أنتَ بشؤونكَ"، قال ريفِهْ.

التفتُّ نحو ريفِهْ، كنتُ سعيداً جدَّاً. إذنْ، لا زال يتذكَّر مَنْ أكون وكل ما فعلناه سويَّاً منذُ ولادتنا. ولكن ريفِهْ لم ينظرْ إليَّ.

خارجاً، تحت أشعَّة الشمس، لم يضعْ ريفِهْ عينَيْه بعينَيَّ، بل كان يلعب بقطعة مطَّاط، يحملها بيده.

"إذنْ؟" ... "هيَّا، تكلَّم". قال.

"لديَّ طريقة لتخليصكَ من الأجنبي دون قَتْله. إذا رآه الجميع مجنوناً، فإن الدكتور فيتّي سيحجر عليه ".

(23) توحَّدت الممالك والإمارات والدوقيات الإيطالية إثر إعلان رئيس وزراء مملكة سردينيا في 17 شباط/ فبراير 1861 قيام المملكة الإيطالية بعد توحيد شمال وجنوب إيطاليا، وبقيت المملكة قائمة حتَّى عام 1946 حين اختار الإيطاليون دستوراً جمهورياً.

(24) تصغير لاسم ماريولينو.

.21

بعد الغذاء، وحين كان الجَدَّان يغطَّان في قيلولتهما، تركتُ البوَّابة مفتوحة. وصل ريفِهْ في الموعد المحدَّد، مثل جرس ساحة الساعة.

صَعِدْنا إلى الغرفة دون أن نُحدِث ضجيجاً، حتَّى لا نُوقِظ الجَدَّيْن.

قام ريفِهْ بنقل الكرسيِّ إلى تحت النافذة كما تفعل نينا، لأنه - كطفل - كان قصير القامة، حتَّى لو أنه كان يبدو كبيراً، ومع عينه البنفسجية يبدو أكبر أيضاً.

بقيْنا ننظر للخارج لفترة من الوقت. لكن شيئاً لم يحدث ذلك اليوم.

"ما قلتَهُ هُرَاء"، قال ريفِهْ، بعدما سَئِمَ من الانتظار. "إنه ينام فقط".

كان جوش مُستلقياً على السرير.

كان وجهه هو أيضاً، مُغطَّى بالكدمات، بسبب الضربات التي تلقَّاها من ريفِهْ وماريولينو.

"لكنْ، ألا تراه يقرأ؟"، قالت نينا.

"وماذا يعني؟ إنّه مُستلقٍ على السرير، كما لو أنه ينام".

"طبيعيّ أن تراه هكذا طالما أنكَ لا تعرف القراءة". كان لسان نينا أسوأ من لساني.

"أنا أعرف القراءة، ويمكنني حتَّى الكتابة. اسمي رفائيل".

نهض جوش، أخيراً، في تلك اللحظة.

ضغط بيده على أضلاعه، كان واضحاً أنها تُؤلِمه نتيجة الضربات، يا له من مسكين! ثمَّ ذهب ليجلس على المقعد.

"سيعزف الآن، سيعزف الآن"، قلتُ.

"هس! اِخرسَا"، قالت نينا.

"ولكنْ، أيّ عزف، ذلك الشيء لا يعمل ...". كان جميع مَنْ في البلدة يعلم أن العمَّ سلفاتور يحتفظ ببيانو مكسور، ورثه عن أبيه.

"إنّه يعزف، إنّه يعزف"، قالت نينا.

أغمضَ الأجنبيُّ عينَيْه، وبدأ يعزف.

كانت الأيدي تُحلِّق فوق الأمواج، والعيون ترتفع إلى النجوم، والرأس يطفو داخل حوض استحمام مليء بالرغوة.

"أرأيتَ؟"، قلتُ، في حين واصل جوش عزفه على مفاتيح البيانو.

"هس"، قالت نينا التي لا تريد أن تَفقِدَ حتَّى نوطة واحدة.

" لا أسمع أيَّ شيء"، قال ريفِهْ. لكنه من الواضح أنّه كان مذهولاً هو أيضاً، لأن التحديق في شخص يتظاهر بعمل شيء ما لمدَّة طويلة يجعلكَ تُصدِّق أنه يفعل ذلك حقَّاً.

بعد بُرْهَة، عاد ريفِهْ إلى وعيه. "هنا الخَلَل كبيرٌ جدَّاً" قال، "هذا يعاني من جنون في رأسه، صدِّقوني".

"ماذا قلتُ لكَ؟"، ابتسمتُ. كان سرِّي سرَّاً كبيراً.

نظرتْ نينا إليَّ نظرةً ساخطة.

وحَدَّقَ ريفِهْ بي تحديقة ذئب.

"علينا أن نجعلَهُ يعزف أمام الجميع"، قال، "يجب أن تعرف البلدة كلّها أنه مجنون. على الدكتور فيتّي أن يأخذَه ويحتجزَه في مستشفى المجانين في ماتيرا، لأن حقيقة خطورته كحقيقة السَّيِّدة العذراء التي لا يُشَكَّ بأمرها. وهكذا سنتخلَّص منه مرَّة واحدة، وإلى الأبد، هو وجميع أفراد عائلته. ويمكننا العودة في أريليانا إلى العيش بنعمة الله".

بالنسبة إلى نينا، فكان من البديهي أن الأجنبي يمكنه أن يعزف على آلة بيانو حقيقي أيضاً. أمَّا بالنسبة إليَّ، فهو يعاني من خَلَل ما في عقله. والطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك، هي وضعه أمام آلة بيانو حقيقية. لذلك، حاولنا بكل الطُّرُق إقناع الجَدَّة أن تسأل حفيدها رئيس البلدية إذا ما كانوا سيضعون آلة بيانو على المنصَّة في أثناء حفل عيد الوحدة، فبالتأكيد ستكون هناك فرقة موسيقية، وكذلك فرقة رَقْص، وربَّما سيستخدمون آلة البيانو أيضاً.

كانت نينا تحديداً مَنْ طلب ذلك، حين كنَّا في المستودع ننقل البضاعة الجديدة.

"جَدَّتي، لقد خطرتْ لنا فكرة رائعة"، قالتْ. "كم سيكون جميلاً لو كانت توجد آلة بيانو، لمرَّة واحدة، في حفل عيد الوحدة! ... لماذا لا تطلبينها من نينوتشو رئيس البلدية؟ إنه حفيدكَ، ولا يمكنه أن يرفض طلبكَ".

تظاهرت الجَدَّة بعدم الاكتراث. "الصابون نأخذه لاحقاً. علينا أن نُنهيَ القديم أوَّلاً"، أجابتْ.

عندها، بدأنا نشتغل بجدٍّ.

لأيِّ طلب كانت الجَدَّة تطلبه منَّا، كنَّا نجيب: "نعم، يا جَدَّتي، ولكنْ، فقط لو وضعتُم آلة بيانو في أثناء حفل عيد الوحدة"، "حسناً، ولكنْ، فقط لو كانت توجد آلة بيانو في الحفل ..."، "أنا أفعل ذلك، يا جَدَّتي ... يجب أن تكون هناك آلة بيانو في

حفل عيد الوحدة!".

أَلحَحْنا عليها حتَّى الإرهاق.

وَعَدْناها بالمقابل أننا سنزيل الغبار كل يوم بمنفضة الغبار.

"منزلكِ سوف يتألَّق، من الآن وإلى أبد الآبدين"، قالت نينا.

اقتنعت الجَدَّة الطَّيِّبة بالفكرة.

يوم الاثنَيْن التالي، تحدَّثتْ عن الموضوع في أثناء وجبة الغداء مع رئيس البلدية والأبِّ يوستاكيو.

ونحن لم نترك لنينوتشو حتَّى فرصة للتفكير، قلْنا له على الفور إنه سيكون من الجميل لأطفال أريليانا وجود آلة بيانو، لمرَّة واحدة على الأقلِّ، يمكن تنظيم مسابقة موسيقية، أو مسابقة للرَّقْص مع شخص يعزف، وأشياء كثيرة من هذا القبيل. لم يكن لأحد أن ينافسَنا بالتلفيق ..

ذهبْنا أنا ونينا خِلْسَة إلى المخزن، وجَلَبْنا زجاجة غرَابّا(25) جيِّدة، حتَّى لو أنّ القاضي لوبيانو لم يكن موجوداً. كنَّا نعرف جيِّداً أين كانت الجَدَّة تُخفيها، كي لا يشربها الجَدُّ. عندما رأى الأب يوستاكيو الزجاجة، وصلتْ بهجتُهُ إلى السماء السابعة. بينما الجَدَّة كانت تُحملِقُ فينا، كما لو أنها تريد أن تلتهمَنا، لكنْ، لم يكن بمقدورها قول شيء في هذه الحالة.

هكذا وبينما كان رئيس البلدية نينوتشو يشرب، قال: "ربَّما يمكن دعوة عازف بيانو من ماتيرا مختصّ بموسيقى لوكانو التَّقليديَّة ... حتَّى مدير الفرقة يمكن أن يُسَرَّ من هذا التجديد من حين لآخر. وهناك حاجة لذلك هذا العام".

تحمَّس الأب يوستاكيو وقد شرب كأسَيْن من الغرابّا: "بالطبع!"، هتف، "حسناً فعلتُم، يا أولاد! التغيير أمر مفيد، بعد سنوات عديدة. لقد ابتدعتُم فكرة رائعة!".

ثمَّ سَكَبَ لنفسه كأساً ثالثة.

في اليوم الأوَّل من العيد، زُيِّنَتْ الساحة كما في أعياد الميلاد. كانت توجد هناك أضواء كثيرة، جعلت ليل البلدة نهاراً.

امتدَّت أسلاك الإضاءة الملوَّنة من قمَّة البرج، ووصلتْ حتَّى مبنى البلدية. وكان مقهى بيبّينو يغصُّ بالناس، ثمَّة طابور من عشرين فتى ينتظرون دَورهم لِلَعب الفيشة فقط. وهناك أكشاك على طول طريق أبْيَا، الطريق التي تنفصل عن الطريق الرُّومانيِّ القديم، وتدخل إلى البلدة. وهناك لعبة اليانصيب التي تُتيح الفوز بحَمَلٍ، وطاولات كرة المضرب بشباك مترهِّلة، وزاوية ديسكوتيك للفِتْيَة الكبار، وألف لعبة أخرى، لا أتذكَّرها جميعاً. كان الحفل سيستمرُّ لخمسة أيَّام، ويجب على الأجنبي أن يعزف في النهاية، بعد وصول آلة البيانو وعازف البيانو من ماتيرا.

كنَّا سعداء.

لقد نسي الناس حتَّى إنه قد تمَّ غزو البلدة من قبَل الأجانب، وإنهم يعملون الآن ضعف الوقت مقابل نفس الأجر. في تلك الأيَّام الخمس، كان من المحظور التفكير بالمشاكل.

كان الجميع مُستمتعين، باستثناء المُهاجرين. يقفون أعلى المُنحدر المُفضي إلى البيوت -مكان الجَدِّ، إذا جاز التعبير - ويتفرَّجون من بعيد.

كي ينزلَ إلى الساحة، كان جوش يمرُّ بالقُرب منهم كل مساء، والعمُّ سلفاتور مُتأبِّط ذراعه. أعرجان يحافظ كلّ منهما على توازن الآخر. الأجنبي يعرج من الضربات، بينما يتَّكئ العمُّ سلفاتور على عصا. ومثل كل عام، يخرج العمُّ سلفاتور بدلة تفوح منها رائحة النفتالين، لكنها تُبرِز شخصيَّته. وكان قد أعطى لجوش القميص الأبيض الذي يعود لأيَّام زواجه: كان في منتهى الأناقة، حتَّى لو أنه واسع عليه.

يقفان كل مساء، بمُحاذاة الأجانب، وبالتالي يتمكَّن جوش من التَّحدُّث قليلاً مع أعمامه وعمَّاته. كان العمُّ سلفاتور يستند إلى الحائط، وينظر إليهم يعانقون بعضهم البعض طويلاً، والعمَّات يُرتِّبنَ قميص جوش أو يُوضِّبنَ كتلة شَعْره الأشعث، بينما جَدَّته تداعب عظام وجنَتَيْه، حيث توجد الكدمات السوداء، وتهزُّ رأسها. وهو يترك لهم أن يحتضنوه ويُقبِّلوه. كانوا يهمسون له ببعض الكلمات الجميلة والنساء يبكينَ. ثمَّ يفترقون. يواصل جوش المشي، ويختلط بالزحام مع العجوز. وحين يمرُّ قُربه الناس يبتسمون له، فقد نجا بأعجوبة من أن يكون في العالَم الآخر. في المقابل، يبقى أقرباؤه في الأعلى، على هامش ما يحدث في أريليانا، مُدرِكين أن الناس لن يتقبَّلوهم أبداً. لذلك، وتجنُّباً للمشاكل، كانوا يشاركونهم تلك البهجة من بعيد، يعيشونها في انعكاس عينَي حفيدهم أو في ضوضاء الآخرين.

كانوا ينظرون إلى جوش والعجوز وهما يتَّجهان نحو الساحة، ثمَّ يجلسان على درجات المنحدر، كل واحد منهم بمفرده، يضع رأسه بين يَدَيْه ويحلم.

أمَّا ذلك الثُّنائيُّ الغريب من حديثي القُربة، العمُّ سلفاتور وجوش، فكانا بالمُقابل يجلسان بالقُرب من الكنيسة الأُمِّ، ويتفرَّجان. وكلَّما كنتُ أُراقبهما، كنتُ أعي أكثر أن العمَّ سلفاتور أصبح هَرِمَاً جدَّاً، وأنّه يُدمِّر نفسه. لا بُدَّ لي من التَّدخُّل.

في اليوم السابق، كنتُ قد عثرتُ داخل أحد الكُتُب على قصيدة شِعْرِيَّة، كتبها شخص يُدعى تشيزارِهْ بافيزِهْ، وقد نقلتُها إلى كرَّاس، أوصاني العمُّ سلفاتور أن أُدوِّن فيه ملاحظاتي. كانت تلك القصيدة تتحدَّث عنه هو بالضبط. وبالتالي، حفظتُها عن ظَهْر قلب، ثمَّ نزعتُ الورقة من الكرَّاس، فقد كنتُ أريد أن أترك عنده انطباعاً جيِّداً، فلعلَّ وعسى!

سيجيء الموت، وستكون له عيناكِ

هذا الموت الذي يرافقنا

من الصباح إلى المساء

أَرِقاً، أَصمَّ،

كحسرةٍ عتيقة

أو عادةٍ سيِّئةٍ مثيرةٍ للسخرية.(26)

التحقتُ بالعمِّ سلفاتور إلى زاوية الكنيسة.

كانا هو وجوش يجلسان على كرسيَّيْن من القشِّ.

نظر إليَّ الأجنبي بارتياب، كان واضحاً أنه يغار على صديقي العجوز. دون أن أكترث له، وضعتُ إحدى ذراعَيَّ على كتف العمِّ سلفاتور، انحنيتُ لغاية أُذُنَيْه، وهمستُ: "سيجيء الموت، وستكون له عيناكَ، هذا الموت الذي يرافقُنا من الصباح إلى المساء، باختصار ... أصمّ، مثل عضَّة قديمة أو مثل ... مثل ... عادة سيِّئة ... مثيرة للسخرية!".

جَعَّدَ أنفه ازدراء، وهزَّ رأسه. لم يكن قد فَهِمَ شيئاً. عندئذ، كرَّرتُ له القصيدة دفعة واحدة، ولكنْ، بصوت مرتفع، وكأنني أصرخ في مُكبِّر صوت في أُذنه المُشعِرَة: "سيأتي الموت، وستكون له عيناكَ، هذا الموت الذي يرافقنا من الصباح إلى المساء، باختصار ... أصمّ، مثل عضَّة حمار ... مثير للسخرية!".

رفع العمُّ سلفاتور ناظرَيْه نحوي، بعينَيْه الصغيرَتَيْن الرَّماديَّتَيْن المضطربَتَيْن، ثمَّ قال: "أحسنتَ، أحسنتَ"، وربَّت في الوقت نفسه بيده على ذراعي. "هل كتبتَها في دفتر ملاحظاتكَ، يا ويليام؟". لقد خرِفَ حقَّاً. "إنّها قصيدة جميلة ... إنها جميلة حقَّاً".

أومأتُ برأسي، وأخرجتُ الورقة المنزوعة من جيبي.

"ها هي"، قلتُ.

"أحسنتَ، هذا ما يجب عليكَ فعله".

وبينما يتكلَّم، كانت عيناه تلتمعان أكثر دائماً، ولم يكن هذا بسبب المصابيح التي وضعوها في الساحة، بل لأن دمعَتَيْن كبيرَتَيْن انهمرتا منهما، وعندئذ فهمتُ أنني ربَّما أخطأتُ في شيء ما.

أشار العمُّ سلفاتور إليَّ بأن أنحني.

فوضعتُ أُذني أمام فمه بالضبط.

"إنّه لأمر جيِّد المزاح مع الموت"، قال بصوته المخملي. "إنه الشيء الوحيد المُضْحِكُ حقَّاً".

في الواقع، لم يبدُ لي أنني فعلتُ شيئاً يستحقُّ الذِّكْرِ، أردتُ فقط أن أقرأ عليه قصيدة، وأن أترك عنده انطباعاً جيِّداً، بالنتيجة، كنتُ قد متُّ إلى الأبد قبل أن أُولَدَ، لكني كنتُ أشعرُ أني بخير، لأنني لا أتذكَّر شيئاً، وعندما لا تتذكَّر، فلأنكَ بخير.

حينها، أُصِبْتُ بإحراج كبير، ولم أعد أعرف ماذا أقول. وهكذا، حالما التفتَ العمُّ سلفاتور مجدَّداً، ليتأكَّد فيما إذا كان جوش لا يزال قُربه، انصرفتُ.

)25(مشروب كحولي يُستخلَص من العنب.

(26) ترجمة جمانة حداد.

.22

لم يكن جوش يعرف أنه سيعزف مساء في الحفل، لكننا كنَّا قد رتَّبنا كلّ شيء.

على المنصَّة، كانت قد وصلت من ماتيرا آلة بيانو سوداء، مع عازف بيانو، آلة برَّاقة كالتي نشاهدها في التلفزيون.

رئيس البلدية، وإيجيديو (الصّحفيّ في جريدة "الأريلياني"، والذي كان يدير الأُمسيَّة من المنصَّة) كانا الوحيدَيْن اللَّذَيْن أخبرناهما، نحن الأولاد فقط كنَّا نعرف أنّ الأجنبي سيُقدِّم عرضاً موسيقياً. لم نقل شيئاً حتَّى للجَدَّة، وإلَّا كانت ستقلق، وتأخذها الظنون.

كنَّا جميعاً تحت المنصَّة، ننتظر اللحظة المناسبة.

بينما ريفِهْ وماريولينو بقيا جالسَيْن تحت مظلَّة مقهى بيبّينو، يستمتعان بالانتظار. كان من الأفضل أن يبقيا بعيداً عن جوش، فالمشاجرات في عيد الوحدة محظورة.

بالفعل، في فترة ما بعد الظُّهر، ذهبْنا للأجنبيِّ، وعاملناه لأوَّل مرَّة، كما لو أننا أصدقاء. نظر إلينا بارتياب، لقد كان خائفاً من أننا نريد قَتْلَه، ولكنه اطمأنَّ بعد ذلك.

ربَّت دومينيكو على ظَهْره، وجوش يشتكي من الضربات التي نالها من ريفِهْ. باسكوينا والتوأم كانوا يُكلِّمونه، كما لو أنهم يعرفون بعضهم البعض منذُ بدايات حياتهم. وظلَّ إنتسوتشو مع العمِّ سلفاتور، كي لا يتركه بمفرده.

هناك أُغنيَّة تقليديَّة يتوجَّب على جوقة شباب البلدة غناؤها على المنصَّة، لأنها تُعتبر نشيد أريليانا، وكانت تقول: "أناس غلافيانو(27) وقحون، لكنْ، نحن: لا ... لا ... لا. أناس روتولانو قذرون، لكنْ، نحن: لا... لا ... لا. أناس فرانكوزو غليظو الطبع، لكنْ، نحن: لا ... لا ... لا.". كانت تقريباً كلّها على هذا المنوال، ولم تكن

لطيفة جدًّاً مع الغرباء من القرى المجاوِرة، وتجعلنا نموت من الضحك.

أخيراً، بعد ألف عرض من العروض الأخرى، طلب إيجيديو الصّحفيّ منَّا أن نصعد على المنصَّة، لنُغنِّي الأُغنيَّة.

لقد كانت اللحظة التي كنَّا ننتظرها.

بهذا العُذر، أحضرْنا جوش معنا.

حاول أن يقاومَ، لكن نينا وباسكوينا أمسكتاه من ذراعَيْه، فاستسلم لهما.

ضحك الجميع في الأسفل، لأنهم يعرفون النَّصَّ.

انطلقت الموسيقى. لم يفتح الأجنبي فمه، لأنه لم يكن يعرف الكلمات، بل بالكاد كان يعرف الإيطالية. لكزتْني نينا عندما مرَّ بمحاذاة آلة البيانو، لأنه لم يَحِدْ بنظره عن المفاتيح.

في نهاية الأُغنيَّة، ضرب إيجيديو كفًّاً بكفٍّ، لكنْ، في الأسفل، عمَّت بهجة كبيرة، كما لو أنّ بافاروتي(28) يقف على المنصَّة.

عندئذ نزلْنا عن المنصَّة بطريقة مبرمجة، ليبقى آخرنا نينا وباسكوينا والأجنبي.

عرف إيجيديو أنها لحظة العرض على آلة البيانو، لذا أعلنها في الميكروفون، كما لو أن ذلك أكثر الأشياء طبيعية في العالَم. "والآن لحظة استثنائية"، قال، "عملاً بتقاليد الضيافة في مدينة أريليانا، ندعو الأصغر سنّاً من بين الأجانب، جوش للعزف. دعونا نُشجِّعه بتصفيق حارٍّ، هيَّا!".

نظرتُ إلى ريفِهْ، تحت مظلَّة المقهى، كانت ترتسم على شَفَتَيْه ابتسامة ساخرة.

من الأسفل، بدأ الناس في الصفير والصراخ. كلّهم كانوا يهتفون: "بووو، انصرفْ!"، "لا نريدكَ"، "ارحلوا من هنا!".

بدأ الرَّاباتوريُّون يصرخون مثل المجانين، ثمَّ تبعهم الكاباتسابونيُّون أيضاً.

"لا يهمُّنا أمر الأجانب بشيء، هذا العيد عيدنا!"، صرخت امرأة راباتورتية من وسط الساحة.

ثمَّ بدأ أحد الكاباتسابونيِّيْن بالزعيق أيضاً.

"اطردُوهم، هذه المناسبات ملكنا! فليذهبوا ويحتفلوا في ديارهم، إذا كانت لديهم أعياد!". ومع صراخه كانت تتضخَّم عروق جبهته.

عندها، تبعه الجميع، لم يوجد شخص إلَّا وكان يصرخ، ربَّما، باستثناء العمّ سلفاتور.

لكن الميكروفون كان بيد إيجيديو، وعندما يملك أحد ما الصوت الأعلى، فإنه يسيطر على الآخرين.

"اهدؤوا، الأمر يتطلَّب بعض الاحترام!"، صاح إيجيديو، ثمَّ اضطرَّ هو أيضاً للتَّوقُّف.

جوش، ذاك المجنون، فعل كل شيء بنفسه.

منجذِباً كما المعادن للمغناطيس، جلس على مقعد البيانو الأسود الكبير، وأخذ يُحدِّق في المفاتيح اللّامعة، بنظرة شخص، تَلَبَّسَهُ الشيطان.

ضبط ارتفاع المقعد بصمت، بينما بدأ الناس يتعاركون فيما بينهم في أماكن مختلفة من الساحة.

أغمضَ عينَيْه، ولمسَ أحد المفاتيح.

توقَّف الجميع، ونظروا إلى الساعة، لأنه بدا لهم وكأنها دقَّات ساعة الساحة.

ثمَّ حدث كما حين تلعب لعبة "نجمة، نجمتان، ثلاث نجمات"(29).

كانت هناك لحظة أغلقْنا فيها كلّنا أعينَنا، وبدأ الصَّبيُّ. لمسَ مفتاحاً آخر. وعندما فتحْنا أعيننا، أغلق عينَيْه، مثلما كان يفعل أمام صلصة الجَدَّة، مُحنياً رأسه، بادياً كما لو أنه يعاني جوعاً، لا يمكن وصفه.

ثمَّ ضغط على مفتاح آخر، ومرَّة أخرى بدا كجرس يدقُّ في السماء. ثمَّ آخر، وآخر أيضاً.

تون – تان – تون – تان - تون.

في النهاية، بدأ يعزف بالفعل، من دون أن أعرف كم من الوقت استغرق ذلك. كل ما أعرفه أن نهراً أتى في البداية، صَعِدَ إلينا من طريق أبْيَا حتَّى الساحة، ثمَّ وصلَنا، كان النّهر قد جرَّ وراءه بحراً مليئاً بأمواج عالية، وفي النهاية تحوَّل البحر إلى محيط.

حينها تركتُ الجميع، وركبتُ سفينتي، وذهبتُ لأصطحب أُمِّي إلى منزلها الجديد. ثمَّ ذهبْنا للتجوُّل مثل عاشقَيْن يلتقيان للمرَّة الأولى، وكان صدى القلوب التي تنبض بشدَّة، يتردَّد داخل جسم السفينة. كانت أريليانا تبدو أكثر جمالاً من الأعلى، والأراضي التي تحيط بها أشبه بملاءة من الكتَّان. تسمَّر الجميع في أمكنتهم، واندثر السوء، حتَّى الرَّاباتورتيِّيْن بدوا مثل الحِمْلان. لم تُصدِّق أُمِّي عينَيْها، وكانت سعيدة مثل نينا عندما تشاهد صغار القطط. لم تتوقَّف لحظة عن القفز والكلام، مواصلة القول: إنها كانت تريد العودة إلى عيد الوحدة منذُ زمن طويل، كما في صغرها، لكنْ، توجَّب عليها القيام بترتيبات كثيرة قبل ذلك.

كنتُ على وشك أن أسألها أين كانت أخفت النصف الآخر من الصورة، حيث يوجد الجواب عن سؤالي، لكن ذلك اليتيم الأحمق عزف النوطة الأخيرة، فوجدتُ نفسي ثانية في ساحة أريليانا، جالساً على الأرض، ومستنداً على جدار مبنى البلدية، بمفردي. كان بجانبي كلبون يعضُّ ذراعي ويُؤلمني.

كاتينا، صديقة الجَدَّة، انحنت فوقي من الجانب الآخر، وشدَّتْني إليها. ما الذي تريده هذه المرأة؟ ما هذه الحميمية؟ فكَّرتُ.

"أيُّها الصغير، خُذْ هذا المنديل، وجفِّفْ دموعكَ"، قالت. لكنْ، أيَّة دموع، لا بُدَّ أنها تحلم. كانت تُمرِّر المنديل على وجهي، وتشدُّني إليها، وتقول: "اهدأْ، اهدأْ ... اهدأْ، يا بييترو ... كُفَّ عن هذه الأنَّات، تعالَ إلى هنا. اللعنة ...".

حينها فقط، استيقظتُ، لأنني كنتُ أريد المغادرة. في بعض الأحيان، أجد نفسي جالساً على الأرض، ولا أعرف كيف انتهى بي الأمر هناك. لكن الساحة كانت مكتظَّة بالناس، ولا أحد يتحرَّك.

ما كنَّا قد سمعناه، كان جميلاً جدَّاً، وغريباً.

"جميل"، قلتُ. أومأتْ كاتينا برأسها.

عندما يكون هناك شيء جميل، ولا يعلم أحد من أين جاء، يُفضِّل الجميع أن يصمتوا، كيلا يُفسدوه. حينئذ هربتُ، وتركتُ كاتينا هناك مثل حمقاء، ومنديلها بيدها.

مع ذلك، فإن ما يمكن قوله لتكوين فكرة عمَّا حدث، هو أن جوش عزف نوعاً من الموسيقى التي تأتي من السماء، كعاصفة مطرية مفاجِئة، تزرع الرُّعب و الهدوء في آنٍ معاً.

لا أحد كان يتحرَّك، حتَّى الخفافيش لم تعد تطير، نواقيس الكنائس كانت قد شُلَّت، كذلك ماء النافورة كان قد توقَّف في منتصف الطريق.

نظرتُ حولي، ورأيتُ المشهد الذي لا يمكن تصوُّره في العالَم، كانت الدموع تنهمر من عينَي امرأة من الرَّاباتورتيِّيْن، بفستانها الأحمر الممزَّق. لكن دمعَتَيْن كبيرَتَيْن جدَّاً كانتا الشيء الوحيد الذي يتحرَّك في تلك الساحة.

ثمَّ بحثتُ عن ريفِهْ، هو وماريولينو، وكانا لا يزالان يجلسان على الأرض، تحت مظلَّة المقهى، ورأساهما بين أيديهما. حدَّقتُ جيِّداً، وبدا لي أن عينَي ريفِهْ تلتمعان أيضاً، لكني لا أستطيع أن أؤكِّد ذلك.

عندها، كان يجب أن يكون جوش قد انتهى، لأنه سحب المقعد إلى الخلف، مُخلِّفاً صريراً على المنصَّة، ونهض.

ثمَّ عاد الجميع للحياة مجدَّداً، مَنْ كان يأكل سندويشة سلامي عاود المضغ، ومَنْ كان يشرب البيرة، تناول رشفة، بينما مَنْ كان يتعارك، فقد توقَّف عن العراك.

نظرتُ إلى قمَّة المنحدر. كان الأجانب من عائلة جوش قد أصغوا إليه أيضاً. أضواء الساحة التمعت اثنَتَي عشرة مرَّة في أعينهم الاثنَتَي عشرة.

(27) غلافيانو وروتولانو وفرانكوزو هي ثلاث قُرى مجاوِرة لبلدة أريليانو.

(28) لوتشيانو بافاروتي (1935-2007)، مغنّي تينور إيطالي، كان من أشهر فنَّاني الأوبرا في العالَم.

(29) نجمة، نجمتان، ثلاث نجمات، لعبة يقوم بها الأطفال في الشارع. أحدهم يَعدُّ لغاية الرَّقْم عشرين وعيناه مغمضتان، ووجهه باتِّجاه الجدار، وينطلق الآخرون من بعيد، ويجب عليهم الاقتراب من الحائط ولمسه قبل الانتهاء من العَدِّ. إذا انتهى أوَّلاً واستدار فيجب أن يبقى الجميع متحجِّرين في الوضع الذي يكونون عليه. (م).

.23

انتهت الحفلة، وعادت الساحة فارغة، كما كانت دائماً - كلّ الأشياء الجميلة التي تبدو أبدية، ينتهي بها الأمر إلى الزوال.

بعد بضعة أيَّام، حدث أمر لم تكن لتتوقَّعه أبداً. ظهرت لينيتّا التي تَعْتَبِرُ نفسها فقيرة جدَّاً مقارنة بنا، وبالتالي لم تمتلك الجرأة لتأتيَ وتتحدَّث إلينا. كانت خجولة جدَّاً، وانحصر عملها بتقديم العَلَف مساء للحيوانات، وتنظيف إسطبلات والدها، كما كانت تُخطِئ عندما تتكلَّم الإيطالية. لكن جمالها كان طاغياً جدَّاً، لدرجة انعدام قدرة أيِّ شيء على أن يَمَسَسْهُ بسوء. من جهة أخرى، كان والدها أحد القلائل، مثل بيشولينو، الذين استصلحوا قطعة أرض العائلة فيما وراء السَّيْل، بعد سُمِّ ذلك النذل العمّ روكّو، وكان يرعى هناك بعض الأبقار والماعز، ويزرع القمح.

فجأة، انبثقتْ لينيتّا من اللَّا شيء، وركضتُ نحوي كما لو أنني شخص مُهمٌّ، وألقت بذراعَيْها حول رقبتي. أمضيْنا وقتنا في الساحة، نلعب المُورة(30)، ونتكلَّم عن جوش،

وعن الموسيقى التي كنَّا نُحبُّ الاستماع إليها. كانت رائحة لينيتّا طازجة، من الواضح أنها استحمَّت لتوِّها، لأن كل شيء فيها يفوح كالريح التي تجلب الربيع. لم أكن قد رأيتُها من قبل عن قُرب كهذا، وكان عليَّ أن أشدَّ على ساقَيَّ، كيلا أسقط، لأن عينَيْها كانتا تزدادان اخضراراً، وثمَّة ما يُبقيكَ مسحوراً في تلك العينَيْن المتلألئَتَيْن.

خمَّنتُ على الفور أنه إعلان حُبٍّ، حتَّى وإن بدا غريباً، وعلى الملأ، لكنْ، لا بُدَّ أنه مُتَّصل بالحُبِّ. حينها، وبسبب وجود آخرين أيضاً، بقيتُ صامتاً، فكما يقول العمُّ سلفاتور: "ما نفع الكلمات، إن لم تكن مصحوبة بإيماءات حُبٍّ؟". لكنْ، ما كان هناك من إيماءات الحُبِّ. هذا ما حدث مع ميكيلا أيضاً، في المرَّات التي زعمتْ فيها أنها تُحبُّني، بعد أن غيَّرتْ أُمِّي البيت وكل الأشياء الأخرى، فقد كانت ميكيلا تدعو نفسها بنفسها، تودُّ لو تُلازِمني على الدوام، وتكتب الواجبات المدرسية، وتُوضِّب الغرفة معي، بينما أتظاهر أنا بعدم الاكتراث، إلى أن اكتشفتُ أن أُمَّها مَنْ كانت تأمرها بذلك.

كنتُ أرغب بعد رحيل أُمِّي، في كل شيء، باستثناء المزيد من الخيبات مع النساء.

لكن لينيتّا أحكمت عينَيْها الخضراوَيْن حول عنقي، وألصقت فمها بأُذني، وهمستْ طالبةً أن أقول للجَدَّة إنها هي وعائلتها بحاجة للمساعدة. فأبعدتُها فوراً عنِّي. وبدا ما يقال عن النساء صحيح: عندما يكنَّ حنونات، فهذا مُؤشِّر دائم على بحثهنَّ عن شيء آخر.

و بالتالي أخبرتُها ، أمام الآخرين، بأنني سأفكِّر بالأمر.

عندما عدْنا إلى البيت، أدركتُ خطئي، فقد وصل في ذلك اليوم بعض المسؤولين الموفَدين من قبَل الاتِّحاد الأوربي، ولهذا السبب طلبتْ لينيتّا منِّي المساعدة، وأنا فهمتُ طلبها على أنه إعلان الحُبِّ.

باختصار، وصل هؤلاء المسؤولون، وجالوا بين العائلات التي لا تزال تملك قطعة أرض، وأخبروهم أنّ عليهم إنتاج نصف كمِّيَّة الفاكهة التي كانوا ينتجونها دائماً، نصف كمِّيَّة الخضار، ونصف كمِّيَّة البيض، ونصف كمِّيَّة الحبوب، نصف كمِّيَّة كل شيء، لأنه اعتباراً من ذلك اليوم فصاعداً، سيقوم الاتِّحاد الأوربي بتنظيم الإنتاج في جميع دوله.

لم يعد يتكلَّم أحد في أريليانا، سوى عن زيارة هؤلاء المسؤولين، ببدلاتهم ورَبْطات أعناقهم وسيَّاراتهم الرَّسميَّة الزرقاء التي ركنوها في الساحة.

صدرت بعض الأصوات من الفُسْحَة المقابلة للامْيُون ريفِهْ.

هُرعنا أنا ونينا فوراً للإصغاء مختبئين وراء الأباجورات الموارِبة لغرفة الجَدَّيْن.

كان فرانكو يجادل بيشولينو.

"إنهم أولئك المنحوسين من الأجانب"، يقول فرانكو، "لم يحدث شيء منذُ مائة عام، والآن دفعة واحدة تأتي المصائب، واحدة تلو الأخرى".

"ولكن هذا النحس هو القانون ... إنّها القوانين اللعينة"، صرخ بيشولينو، الذي لم يتجاوز العشرين من العمر، ولكنه يعرف جيِّداً ماذا يعني العمل في الأرض. كان غاضباً جدَّاً، "هؤلاء يأتون ويقولون لنا إن علينا رَمْي نصف ما نُنتجه منذُ الأزل. وبين ليلة وضحاها لم يعد لنصف ما نملكه قيمة، ويجب رَمْيه للخنازير. هذا ما قاله ذلك الوغد بالبزَّة وربطة العنق: 'وَزِّعوه هِبَة للآخرين'. يا للمسيح المقدَّس، إن أوَّل المحتاجين هم أنا وعائلتي. إنه ذنب تلك القوانين التافهة. أولئك الذين يتركون هؤلاء الأجانب يدخلون بدلاً من طردهم ركلاً من حيث جاؤوا، وهم أنفسهم الذين يقولون لنا إنه يجب علينا أن نرميَ نصف أراضينا ... اللعنة على الأجانب، وعليهم، وعلى قوانينهم. سأفعل بأرضي ما فعله أبي وجَدِّي دائماً، نقطة وانتهى الموضوع. وإن لم يناسبهم ما أقوله، فليأتوا ويرموني بالرصاص. لكني سأكون أنا مَنْ سيرميهم

بالرصاص أوَّلاً".ثمَّ خرج والد لينيتّا أيضاً من لامْيُون فرانكو وريفِهْ. "نحن عملنا دائماً وحسب، هذه الأرض لنا. لقد اشتراها آباؤنا وآباء آبائنا. هذا كل ما لدينا. نصف المحصول لا يغطّي حتَّى مصاريفنا ..."، قال ذلك، وبدا مُحبَطَاً، ووافقَهُ فرانكو تماماً.

"إذا انتزعوا منَّا الأرض، فلن يكون لنا أيُّ اعتبار في أريليانا"، قال بيشولينو. "هؤلاء الأوغاد يسلبوننا العمل، ثمَّ يجلبون الأجانب، وهكذا نتحارب فيما بيننا، هل فهمتَ؟ نحن وهؤلاء الأجانب القذرين، حُثالة ضدَّ حُثالة. يجب أن نتخلَّص من هؤلاء الزناديق، وإلَّا ستكون نهايتنا على أيديهم".

سمعْنا أنا ونينا ضجيجاً، التفتْنا، فوجدنا الجَدَّ خلفنا في غرفة النوم، يتجسَّس مثلنا من شقوق الأباجور.

لم نلحظْ ذلك، لكنه هو أيضاً استمعَ لهم.

حان وقت القيلولة.

كان يهزُّ رأسه. "أسوأ شيء"، قال بصوت خافت، مُحدِّثاً نفسه، "أن هذا الأمر سوف يُؤثِّر على الجميع، ما عدا العمّ روكّو"، ثمَّ استند على المنضدة ذات الأدراج وفوقها الصور القديمة ليوم زفاف والدَيْه ووالدَي الجَدَّة. "كلَّما زاد عدد المنتجات التي سيرميها الآخرون، زاد انتفاعاً. هو لن يبيعَها كما هي. وربَّما يشتري أيضاً ما يرميه الآخرون، مقابل مبالغ زهيدة. ذلك الوغد سيصنع منها معلَّبات ... حسناً، اخرجا الآن، أنتُما الاثنان، أريد أن أنام". خرجتْ نينا.

هناك في الأسفل، في الفُسْحَة المقابلة لِلَامْيُون، كان فرانكو والآخرين يتابعون الجدل والصخب، وكان الجَدُّ على وشك أن يَفقِدَ صبره. عندئذ، فتح الأباجورات، وخرج إلى الشرفة، عندما رأوه، حيَّاه الجميع، وعادوا إلى الداخل. الجَدُّ الملقَّب بـ "الملَّاك"، كان لا يزال يحظى باحترام كبير.

هزَّ رأسه، ثمَّ ذهب وجلس على السرير، ليخلعَ حذاءه.

وفي هذه اللحظة تحديداً، أي في اللحظة التي دخل فيها الكبار، خرج ريفِهْ.

بخطواته القصيرة، ذهب ليجلس على درج باب بيت العمَّة إمّاكولاتا، مقابل شرفتنا بالضبط. عندها خرجتُ أنا أيضاً.

كانت لحظة سريعة: نظرْنا إلى بعضنا البعض.

ثمَّ أشاح بناظرَيْه، وأخذ يلعب بكرة زجاجية. فهمتُ من تلك النظرة أن ثمَّة احتمال أن نعود صديقَيْن: فحتَّى لو أن الأجنبي لم يكن مجنوناً، ولم يُحجَر عليه، فأنا، على كل الأحوال، وضعتُ مصيره بين يَدَي ريفِهْ.

في تلك الأيَّام، وأنا أمشي في أزقَّة أريليانا، كانت ترتفع من كل بيت صيحات وجلبة صحون مكسورة. كانت نساء البلدة يفعلنَ ما تعلَّمْنَهُ من جدَّاتهنَّ، عندما تسوء أشغال الأرض، ويأتي شتاء طويل، تجب مواجهته، أي الاستكانة للرجال، كنَّ يعرفنَ أن غضب الرجال المجروحين قد ينفجر بين لحظة وأخرى. لذا كنَّ يتركونهم يتحدَّثون ويصرخون ويُحطِّمون الأغراض. كنَّ يصبرنَ، لأنهنَّ يعلمنَ أن موسماً سيِّئاً يمكن أن يتبعه موسم سيِّئ آخر، وربَّما موسمان. لذا كان من الضَّروريِّ العثور على طريقة للعيش لسَنَتَيْن أو لثلاث مع ما يمتلكنَ، والعضّ على الأسنان وتدبير الأمور، لكنْ، على أمل يكون الموسم الرابع جيِّداً.

فجأة، وفي إحدى الليالي، حدث شيء لم يتوقَّعه أحد. صَعِدَتْ إلى البلدة فِرَقٌ تُنشد أناشيد عنيفة.

وجاؤوا من الأراضي، يحملون معهم عصيَّاً ومعاول ومَذَارٍ.

كانوا مُلثَّمين ومُتَّشحين بالسواد.

يمشون مثل فصيل عسكري صغير في الشوارع الحجرية المظلمة، مُنتعلين أحذية

الحقول الثقيلة، يخبطون الأرض بإيقاع واحد، ويقرعون بالهراوات الحيطان والدرابزينات وأنابيب المزاريب وسلالم المنازل.

استيقظْنا أنا ونينا، ولم نستطع النوم مُجدَّداً.

ظللتُ أُحدِّق في السقف بعينَيْن مفتوحَتَيْن، أشدُّ بيد على يد نينا، وباليد الأخرى أشدُّ على الكيس الصغير مع قُصَاصَة الصورة.

كانوا يُرتِّلون ويجولون في شوارع البلدة في النهار، ويقال إن أبناء الكاباتسابّونيِّيْن والرَّاباتورتيِّيْن كانوا على رأس تلك المواكب، وإن الكثير من العمَّال المياومين خرجوا مساء من البيوت، وشاركوهم المسيرات بدلاً من أن يخلدوا إلى الراحة.

(30) المورة هي لعبة تقليدية، تحظى بشعبية كبيرة في إيطاليا، وفي بعض المناطق التي تطلُّ على البحر المتوسِّط. تستند قواعد اللعبة إلى تخمين مجموع الأرقام التي يتمُّ عرضها بالأصابع من قبَل اللَّاعبين بالتزامن، وهي من اثنَيْن إلى عشرة.

.24

كنَّا أنا ونينا نتابع تحرُّكات جوش من برج مراقبتنا، وكان ينعم بالأمن، لكونه ما زال صبيَّاً صغيراً. وكما هو الحال دائماً، ظلَّ يقرأ طيلة الصباح مُتمدِّداً على السرير.

انتابتْني الرغبة في أن أذهب وأرى أيَّ كتاب يقرأ، لا يمكنه أن يكون "مائة ألف قصعة من الجليد"! بمجرَّد ما رأيناه يخرج، اندفعتُ خارجاً، ومن ثمَّ متجاوزاً العمَّ سلفاتور، الذي كان يُحدِّق في الجدار وعصاه فوق ركبَتَيْه، حتَّى إنه لم يلحظْني، وصَعِدْتُ إلى الطابق الأوَّل، وتسلَّلتُ إلى غرفة "الموسيقي" اليتيم. كانت الغرفة كلّها من الحجر، بما في ذلك الأرضية والجدران. وما عدا ذلك السرير الصغير المخفوس وآلة

البيانو، لم يكن هناك شيء آخر.

طبعاً كان هناك الكتاب مفتوحاً على السرير، اقتربتُ منه، "هجرة النخلة". إذاً فهو لا يقرأ فقط، وإنّما يقرأ بالإنكليزية أيضاً، يا له من مجنون حقّاً! كان يوجد تحت السرير الكرّاس الأحمر الذي كان بحوزته في صباح يوم خرجوا فيه من البرج. كنتُ أرغب بتصفُّحه، لأرى عن ماذا يحكي، إلّا أنني كنتُ مشتَّت الذهن.

ثمَّ جاءني صوت فيلومينا، والدة ريفِهْ.

كانت تصرخ في الشارع. تصرخ، وتصرخ، وتصرخ، بقوَّة لا يمكن تجاهلها. أطلَّ الجميع من النوافذ، وأنا بدوري فعلتُ ذلك. كانت نينا مقابلي، لو مددْنا ذراعَيْنا، لأمكننا أن نُمسك بيَدَي بعضنا البعض.

وقفتْ فيلومينا بلا حراك أمام بوَّابة قصر مِنْزاسنيور وهي تبكي، وتبكي، وبقدر ما كانت تبكي، بقدر ما كان يزداد صراخها، مثل النساء العجائز اللّاتي يبكينَ في الجنازات مقابل أجر.

انضمَّتْ إليها الجَدَّة، والتحقتْ بها باسكوينا، وكذلك كاتينا، ولم يُخفِّف ذلك من هول صدمة فيلومينا .. عندها نزلتُ أنا، وتبعتْني نينا. لكن العمَّ سلفاتور لم يلحظْ أيَّ شيء، فأيقنتُ وكُلِّي أسى بأن وضعه في تدهور.

حلَّ الصمت على فيلومينا، وأشارت بعد عناء بإصبعها إلى ما وراء بوَّابة قصر مِنْزاسنيور.

حينها فقط رأيناه. ووضعتِ الفتيات الصغيرات أيديهنَّ على أفواههنَّ، وتساءلْنا جميعاً السؤال ذاته: كيف تمكَّن، بحقِّ الجحيم، من الانسلال إلى الداخل؟

دوناتينو، الأخ الأصغر لريفِهْ، والذي يبلغ الثالثة من العمر تقريباً، كان في الطرف الآخر من البوَّابة المغلَقة لقصر مِنْزاسنيور، ويلعب بمُفرده.

كان من المستحيل تسلُّقه، فهو مرتفع جدًّاً.

لا بُدَّ أنه السِّحْر الأسود. يبدو أنهم سحرونا نحن أيضاً، وبالفعل كنَّا متجمِّدين ساكنين جميعاً.

وحده جوش الأجنبي نجا من السِّحْر، عائداً من المخبز، يحمل كيس الخبز.

لم يهتمّ به أحد، كما فعلوا عندما عزف في الساحة.

كان الجميع يحرِّكون أعينهم مثل متابعي كرة الطاولة، بين دوناتينو (الذي يلعب بين النباتات البرِّيَّة، وكأن شيئاً لم يكن) وفيلومينا. فيلومينا يائسة ودوناتينو هادئ، والجميع يتساءل: "ولكنْ، كيف انتهى إلى الداخل، ولم يسبقْ لأحد أن دخل القصر على الإطلاق منذُ أن رحلت مِنْزاسنيور؟!".

وبينما كان يمرُّ من أمام البوَّابة، توقَّف جوش، ونظر بدوره أيضاً.

انفجرت فيلومينا بالبكاء مرَّة أخرى، قالت العمَّة كونتشيتّا التي تقطن على الجهة المقابلة، وتجلس على الكرسيِّ أمام منزلها: "إنها أمور تبعث على الجنون، تبعث على الجنون، خلال تسعين عاماً، لم أر شيئاً مُريباً كهذا".

لم يفهم جوش، ولكن نينا أشارت إليه أن ينظر جيِّداً بين النباتات، داخل فناء القصر. عندئذ، رأى دوناتينو وهو يلعب مطمئنًّاً.

ثمَّ عاد والتفت نحو فيلومينا، التي لا تزال تبكي بحُرْقَة أكثر، وتقول: "سوف لن يُعيدَه أحدٌ لي أبداً، مِنْزاسنيور ستحتفظ به إلى الأبد في قصرها ..."، وتبكي مثل فتاة قاصر. عندها فَهِمَ جوش الأمر.

ومن دون أن يقول شيئاً، وضع جوش كيس الخبز على الأرض، وتسلَّق البوَّابة.

كانت النساء العجائز تهتف: "أووووه "، أو "آآآه"، أو حتَّى: "يا عذراء، يا عذراء".

غطَّت العمَّة كونتشيتّا عينَيْها، وأخذت تُردِّد: "هذا مجنون، هذا مجنون تماماً، هذا مجنون، هذا مجنون تماماً"، واستمرَّت على هذا المنوال.

صَعِدَ الأجنبي، بدون تلكُّؤ، البوَّابة، وتسلَّقها كما القرد، ووصل قمَّتها. نظر نحونا، ثمَّ، بسرعة تزيد عن سرعة صعوده ، هبط على الجانب الآخر، داخل الحديقة.

حينئذ بدأت النساء العجائز في ترديد الصلوات، معاً، وبصوت عالٍ، "في السِّرِّ الأوَّل البهيج، يمكننا أن نتأمَّل البشارة ... وفي الشَّهْرِ السَّادِسِ أَرْسِلَ جِبْرَائِلُ المَلَاكُ مِنَ اللهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةُ ...". لم تتفوَّه الجَدَّة بشيء، لأنها تؤمن ولا تؤمن بالرَّبِّ. وصل جوش خلف دوناتينو، ورفعه عن الأرض. لم تمسسْ دوناتينو أيَّة دهشة، كان صغيراً جدَّاً أو أن الخبل مسَّهُ. وضعه جوش على كتفَيْه، واقترب من الشبك الحديدي، وممسِكاً به بذراع واحدة، تسلَّق البوَّابة، وتجاوزها مرَّة ثانية.

عندما رأت النساء دوناتينو آمناً وسليماً خارج نطاق سيطرة مِنْزاسنيور، أَخرَسْتْهم الدهشة.

في تلك اللحظة، ومن نهاية الشارع، في أعلى المنحدر، ظهر ريفِهْ تجرُّه شقيقته ماريا أنجيلا. لا بُدَّ أنها ذهبت تبحث عنه في الحقول.

كان وجه ريفِهْ وكأنه يقول: "لِمَ كل هؤلاء الناس هناك؟"، ولكنْ، بعد ذلك أدرك أن شيئاً ما قد حدث بالفعل، لأن الجوَّ ما يشي ببداية جديدة.

التقط جوش كيس الخبز من الأرض، تجاوز حاجز النساء والأطفال، وكأن شيئاً لم يكن، وتابع طريقه نحو منزل العمِّ سلفاتور.

ريفِهْ، والذي لم يكن أحمق، نظر إلى أخيه الصغير بين ذراعَي أُمِّه، التي كان وجهها لا يزال مُبلَّلاً بالدموع، وفي لحظة واحدة، فَهِمَ الأمر.

توقَّد وجهه.

وأنا أيضاً، بمجرَّد رؤية ما اعتمل في عينَي ريفِهْ، فهمتُ كل شيء.

يا لغبائي!

كان مقدَّراً لهؤلاء الاثنَيْن أن يُصبحا صديقَيْن حميمَيْن، يمكنني أن أراهن على ذلك بأيِّ شيء.

الذئب يعرف كيف يُحوِّل الغضب إلى ولاء، والحيوان الجريح يحتاج إلى ذئب، ليحميَه.

كانت فيلومينا ترمي دوناتينو في الهواء، والطفل يضحك كالمجنون، لأنه لم يكن معتاداً على دلال والدته، ولا يبدو له الأمر حقيقيَّاً. أحدهم سأل ثانية: "ولكنْ، كيف انتهى به الأمر هناك في الداخل؟".

أجابت العمَّة كونتشيتّا، الغارقة في كرسيِّها: "يبدو أن البوَّابة كانت مفتوحة، لا بُدَّ أن شخصاً ما قد فتحها"، لكنها كانت إجابة سخيفة، لدرجة بدت فيها مستحيلة.

فمنذُ عقود، لا يجرؤ أحد على المرور على مسافة قريبة جدَّاً من ذاك القصر أو حتَّى التفكير في فَتْح بوَّابته. ومع ذلك، لم يكن مهمَّاً. كان دوناتينو سليماً ومُعافَى بين ذراعَي أُمِّه.

.25

اعتزم أكبر الأجانب سنَّاً أن يردَّ الصاع صاعَيْن للعمِّ روكّو. فبعد أن هشَّم ظَهْره

لأسابيع في أراضيه مقابل أجر يتجاوز بقليل ثمن كسرة خبز، حضر سرَّاً في إحدى الأُمسيَّات إلى بيت الجَدَّة، وطلب أن يُكلِّم الجَدُّ. كان الأجانب قد عاشوا في أريليانا بما يكفي ليستوعبوا الصراعات القديمة.

كنَّا قد تناولْنا طعام العشاء، وكان بندول ساعة الحائط قد دقَّ عشر مرَّات. وكالعادة، كان الجَدُّ في غرفة المعيشة في الطابق العلوي بمفرده أمام التلفاز، بينما كنتُ ونينا والجَدَّة في المطبخ نأكل البونبون، والجَدَّة تروي لنا قصص أريليانا في الفترة التي وُلدَتْ فيها الجدَّة.

فجأة سمعْنا طَرقات على الباب. هُرعت أنا إلى الباب، كانت الجَدَّة بطيئة جدَّاً وأنا كُلِّي لهفة وفضول، ففي تلك الساعة، كان جميع أهل البلدة يغطُّون في النوم تقريباً.

فتحتُ الباب، فوجدتُ نفسي أمام الأجنبي الأكبر سنَّاً. كان طويل القامة ونحيلاً، ولم أكن قد لاحظتُ ذلك من قبل، ويشبه جوش قليلاً، شَعْره أسود كثيف، ومشتَّت الذهن، وله النظرة ذاتها التي يُطالِعني بها جوش، لكنه كان أكثر ضخامة.

أحنى رأسه أمامي بطريقة مُهذَّبة، مع أنني كنتُ مجرَّد طفل، ما أشعرني بالإحراج، ولم أعد أعرف كيف أردُّ بالمثل. كان واضحاً أنه رجل في منتهى اللُّطف. لكنه كان ينظر أيضاً حوله، فربَّما كان يخشى من أن يراه أحد. كلّ شيء الآن مختلف تماماً مقارنة بالصباح الذي خرجوا فيه من البرج: كان نظيفاً، يرتدي قميصاً أزرق بكُمَّيْن طويلَيْن، ومشمِّرَ الساعدَيْن مثل أيِّ شخص يشتغل بأعمال عادية.

"هل يمكنني التَّحدُّث إلى جَدِّكم؟"، سأل من دون أن توحي نبرة صوته الخجول بأن يسأل.

خاطبَني بصيغة الجمع.

دعوتُهُ للدخول، وأغلقتُ الباب. كانت نينا مختبئة خلف خزانة المطبخ، وتتجسَّس علينا.

"تفضَّلوا، تفضَّلوا"، قالت الجَدَّة، واستغرقتْ دهراً، كي تنهضَ عن الكرسيِّ.

"تفضَّلوا إلى الداخل". جَدَّتي جميلة، لأنها طيِّبة مع الجميع، حتَّى مع الأب يوستاكيو، فما بالكم مع شخص غريب؟!

جلس الأجنبي، وبدا واضحاً تحت ضوء النيون أنه مُنهَك من التعب، عيناه حمراوان، وتُغطِّي وجهه تجاعيد عميقة مثل أخاديد أرض وعرة.

"ماذا تُحبُّ أن أُقدِّم لكم؟" سألتْهُ الجَدَّة. لا يمكن لأحد في أريليانا أن يقول كلمَتَيْن في بيوت الآخرين قبل تناوُل شيء ما. كانت هناك علبة مفتوحة من البونبون على الطاولة.

"كوب ماء فقط".

"كوب ماء .. ماذا؟! كأس نبيذ؟ تفضَّلوا حبَّة من البونبون!".

" الماء كافٍ، شكراً".

أشارت الجَدَّة برأسها، فذهبت نينا إلى الثَّلَّاجة بعد أن أخذت كأساً من الخزانة. في هذه الأثناء، استغلَّت الجَدَّةُ الفرصةَ، ووضعتْ في فمها حبَّة أخرى من البونبون، مُعتقدة أن لا أحد يراها.

"لدينا اقتراح نريد أن نطرحَهُ على السَّيِّد نونتسيو الملَّاك".

للحظة كادت الجَدَّة أن تختنق. لقد اندمجوا جيِّداً، وأصبحوا يعرفون الألقاب أيضاً. لكنها كانت تعرف أن الجَدَّ لا يُحبُّ الأجانب كثيراً. لكن الاستماع إلى كلمات معيَّنة من أحد الغُزاة المياومين، أمر مضحك أيضاً، تبادلْنا أنا ونينا النظرات، وتمالكْنا أنفسنا من الضحك.

حدَّقت الجَدَّة بالأجنبي، واحتفظ هو بالجدِّيَّة والرصانة. كانت عيناه ثابتَتَيْن، إلَّا أن

فيهما مسحة طيِّبة.

"الآن؟"، سألتْ.

أومأ بالإيجاب.

تناولت الجَدَّةُ حبَّة بونبون أخرى، فقالت نينا: "كفى، يا جَدَّتي، إنها مؤذية لكِ". كنَّا اتَّفقنا أن تأكل حبَّتَيْن كَحَدٍّ أقصى كل مساء، بينما كان بمقدورنا أن نأكلَ قدر ما نشاء.

سحقت الجَدَّة علبة الكرتون الفارغة. "اذهبْ للأعلى، وانظرْ إن كان جَدُّكَ قد نام".

صَعِدْتُ السلالم راكضاً. أن يكون عندكَ أجنبي في البيت، وهو أمر محظور، أمر زادني نشاطاً.

كان الجَدُّ يجلس في منتصف الغرفة، على بُعد خطوات قليلة من التلفاز، يشاهد فيلماً بوليسيًّاً.

ناديتُهُ بصوت مرتفع من الباب "جَدِّي". ولكنه لم يسمع. عندئذ دخلتُ وكرَّرتُ ندائي من وراء ظَهْره، فقفز الجَدُّ هلعاً.

"ماذا تريدين؟"، صاح ونهض، ظنَّاً منه أنني الجَدَّة، ثمَّ عندما رآني، خفَّف من حِدَّته.

"هناك أجنبي يريد التَّحدُّث إليكَ"، قلتُ له.

أحنَى الجَدُّ رأسه، بما يعني أنه عليَّ أن أُكرِّر كلامي.

" هناك واحد من الأجانب تحت، يريد أن يقول لكَ شيئاً".

رافقتِ الجَدَّةُ الأجنبيَّ إلى الأعلى، وعندما رآه الجَدُّ كاد أن ينهض ويذهب ليأخذ المسدَّس من الدرج الأوَّل في الخزانة.

جلسْنا أنا ونينا خارج باب الغرفة. أجلسَتِ الجَدَّةُ الأجنبيَّ على الأريكة - كان يتحرَّك كَمَنْ يحتاط أن يكسر أيَّ شيء، جلس تقريباً على حافَّة الأريكة - ثمَّ تناولتِ الجَدَّة كرسيَّاً، وجلستْ قُرب الجَدِّ، لتضعَ يدَها على كتفه، فقد كانت تخشى أن ينهضَ ويخنقَهُ بيَدَيْه. جلس الأجنبيُّ منتصب الظَّهْر وهو يفرك يَدَيْه.

"تفضَّلْ"، قال الجَدُّ. لم أسمعْ صوتاً قويَّاً هكذا، إلَّا عندما يتحدَّث عن بنيتو موسوليني في النادي الاجتماعي.

تشجَّعَ الأجنبيُّ، وكان من الواضح أنه لا يعرف من أين يبدأ، لكنه ذهب إلى الموضوع مباشرة: "... نعرف أن البعض في أريليانا لا يزالون يملكون أراضٍ ..."، تلعثم. كان يتكلَّم لغتنا بشكل جيِّد.

تلفَّتَ الجَدُّ حوله كَمَنْ يقول: "ولكنْ، ماذا يريد هذا؟".

لكنه قال: "حسناً؟".

لكن الجَدَّة قرصتْهُ من كتفه.

"... وأنتُم أيضاً"، تابع الأجنبي في نَفَسٍ واحدٍ. كانت عيناه تتنقَّلان في جميع أرجاء الغرفة، من دون أن تمرَّا على وجه جَدِّي.

"أنا لا زلتُ الشخص الذي لديه المزيد من الأراضي في أريليانا بعد ذلك الوغد روكّو إمبيلليتّيري. كان أبي يملك ضعف الأراضي التي يملكها أبوه!"، انفجر جَدِّي.

حشر الأجنبي يَدَيْه بين رجلَيْه، وبدا واضحاً أنه لا يعرف أين يضعهما.

ثمَّ تنهَّد وقال: "السَّيْل".

نظر إليه جَدِّي وكأنَّه شخص مُغفَّل. "لكنْ، ماذا يريد منَّا هذا الشخص؟"، سأل الجَدُّ، كما لو أن أريكة خالية قُبالته.

تابع الأجنبي: "سَيْل أوملو".

تظاهر الجَدُّ بعدم سماعه. التفتَ نحو الجَدَّة، وقال مجدَّداً: "ماذا يريد هذا من السَّيْل؟".

أَغمضَ الرجلُ عينَيْه. "يمكن وَضْع جميع الأراضي وراء السَّيْل معاً ... كما في الماضي ...".

الجَدُّ لم يتكلَّم.

"يمكن تقاسُم تكاليف الزراعة ...". أخذ الأجنبي نَفَساً، "... وإعادة الحياة لمزرعتكم". نطق الجملة الأخيرة بسرعة كبيرة، كما لو أنها هربت من فمه، "وإنتاج المعلَّبات".

لم يقل الجَدُّ أيَّ كلمة. كانت الجَدَّة تجلس مستقيمة على شكل خشبة رقّ عجين المعكرونة. كانت تعلم أن كلمة "معلَّبات" تعني إساءة للجَدِّ، لأن الأرض، بالنسبة إليه، تعني، فوق كل شيء، قمحاً وزيتوناً.

استدار الجَدُّ ببطء نحو رأس بنيتو موسوليني الخشبي، ونهض واقفاً على قَدَمَيْه، كما كان يفعل عندما كان عسكريَّاً والجنرال يأمر "استعدّ!". ثمَّ بدأ يصيح بصوت عالٍ، بل عالٍ جدَّاً، باللهجة المحلِّيَّة. لم نكن قد سمعْناه أبداً يصيح بمثل هذه القوَّة، وربَّما حتَّى الجَدَّة. شتم وجدَّف بحقِّ القدِّيسين ومريم العذراء أشياء، لا أستطيع أن أُكرِّرها بدقَّة.

وقفت الجَدَّةُ وراءه، ولفَّت ذراعَيْها حول صدره، كانت متأكِّدة أنه لربَّما يُصاب بسكتة دماغية. وهو كان يصرخ بالعامِّيَّة، وذاك الأجنبي لا يفهم شيئاً، ولكنْ، عندما

صرخ: "انقلع من هذا البيت! الآآآآآآآن!"، لم أرَ أيَّ شخص يندفع بتلك السرعة على السلالم، ثمَّ يفتح الباب، ويختفي. للحظة كاد أن يقضيَ علينا، بما أننا، أنا ونينا، كنَّا مختبئَيْن خلف الباب.

ثمَّ انتهى كلّ شيء.

بقي الجَدُّ جالساً، ومَرفِقَاه مستندان على الطاولة الكبيرة للصالة ورأسه بين يَدَيْه، لم تكن ثورة غضبه قد هدأت بعد. اضطرَّت الجَدَّة لفَتْح الدُّكَّان، وأعدَّت له منقوعاً من أعشاب النَّارِدِيْن والتُّرُنْجَان والزَّيْزَفُون.

"وماذا يمكن أن يكون!"، أردتُ الحديث، لأُخفِّف من وطأة المشكلة، لكن نينا التي تفهمُني حتَّى قبل أن أعيَ نفسي، لكزتْني.

"هس"، قالت بصوت خافت، بينما كنتُ أنظر إليها من الأريكة بعينَيْن قلقَتَيْن، إلى حيث كان يجلس ذاك الأجنبي قبل قليل. "اتركْهُ بسلام".

ثمَّ آويْنا جميعاً إلى الفراش.

ولكنْ، حتَّى نحن، الذين ما زلنا أطفالاً، وبدلاً من أن ننام تلك الليلة، فكَّرنا بالأمر، وناقشناه، فما طرحه الأجنبي كان فكرة جيِّدة، تعني أن الحياة ستعود إلى المزرعة القديمة، وعندها سيتمكَّن الجَدُّ أخيراً من النَّيْل من العمِّ روكّو. لقد كانت الأراضي هناك حقول قمح وحبوب وكروم على مَدِّ النظر، وحقول زيتون مزدهرة و جوز وفول سوداني. بات من الممكن استعادة ذلك، وزراعة الأراضي مجدَّداً، والبدء من جديد. إنه على حقٍّ هذا الأجنبي ، فإذا كان المسؤولون يحظرون بيع منتجات الأرض مباشرة، فمن الضَّروريِّ، إذاً، تحويلها إلى معلَّبات.

بعد أن انتهيْنا أنا ونينا من الحديث، وتمنَّينا ليلة سعيدة لبعضنا لبعض، وقبل أن

أغفوَ، شَدَدْتُ الكيسَ الصغير الذي أحمله حول رقبتي، وسألتُ أُمِّي، فأبدتْ موافقتها، ووصفتُ الفكرة بالرائعة.

في اليوم التالي، أمسى الجَدُّ عصبيًّاً جدًّاً، فبحث عن شيء، ليرميَهُ، وقصد، من دون أن يتناولَ فطوره، مكبَّ النفايات.

لم تقل الجَدَّة شيئاً، إلَّا أن الأمور لم تكن على مايرام. وبالفعل، طلبت منِّي أن أتبع الجَدَّ، لأنها كانت تخشى أن يرميَ بنفسه، في أحد تلك المشاوير. عاد بعد الظُّهْر، وفي صباح اليوم التالي ذهب مجدَّداً إلى مكبِّ النفايات، ولمرَّتَيْن، حتَّى إنه تخلَّف عن موعد النادي الاجتماعي، ما يعني أن أمراً جَلَلاً يجول في رأسه.

تبعتُهُ كجاسوس، ولم يكشفْني قطُّ، ليس فقط لأنه عجوز متهالك، فهو لن يكتشفَني حتَّى ولو كان ما يزال ضابطاً في الجيش. كان يبحث عن أيِّ شيء ليرميَه، أيّ شيء، وتحت أيِّ عُذر. وصل هناك في الأعلى وهو يلهث، ينظر حوله ويرمي إلى الأسفل كيساً نصف فارغ، ثمَّ يقف نصف ساعة من دون أن يحيدَ بنظره عن الوادي.

لم أعرفْ ما عليَّ فعله، فقد داهمَني مَلَل قاتل، لكنْ، كان يكفي أن أنظر إلى الأسفل، لتتفتَّح العجائب في كل اتِّجاه، مربَّعات من الأرض بألف لون، متبوعة بالأرض الوعرة.

في النهاية وبعد أن انتبهتُ إلى كل تلك العجائب، فهمتُ لماذا كان لدى الجَدِّ ذلك الشَّغَف برَمْي الأشياء. ففي ما يرميه إلى مكبِّ القمامة، يكمن حنينه إلى ما تاق إليه، ولم يتحقَّق، ويكفي أن تنظرَ إلى أراضيه، لتُدركَ ذلك. في اليوم الثالث، عدتُ إلى جَدَّتي بالجواب التالي: "جَدَّتي، جَدِّي يعاني من داء الحنين".

غير أن الجَدَّة كانت على دراية بذلك، لأنها أومأت بالإيجاب.

"إنه يعاني من مرض الحَنَق. كم أهدر من نِعَم الرَّبِّ"، قالت، بينما كانت تأخذني بين ذراعَيْها، على الأريكة. كنتُ لا أطيق أبداً هؤلاء الكبار الذين يضمُّونني بين أذرعهم، وبمجرَّد أن أكبر، سأُريهم مَنْ أنا. "بين يوم وآخر سوف يتحطَّم قلب جَدِّك، جرَّاء مواظبته على الذهاب إلى مكبِّ القمامة"، قالت الجَدَّة وهي تُحدِّق في الفراغ.

"ولماذا سمَّم العمُّ روكّو حقولَهُ؟"، سألتُها.

حملقت الجَدَّة بعينَيْها، كأنما تريد أن تقول: "وأنتَ، ما أدراكَ؟"، ولكنها لازمت صامتة.

لعلَّها فهمت أيضاً أن الجَدَّ روى لي كل شيء.

إنه لأمر سيِّئ عندما يصيب المرء داء الحنين إلى الماضي، يكتوي بناره، وما من دواء.

وبالفعل، هيمن القلق، في تلك الأيَّام، على الجَدَّة، ولم تنجحْ محاولتها المضنية في إخفاء ذلك، فقد لاحظناه أنا ونينا، حتَّى إنها صارت تُحضِّر المعكرونة على أصولها، ولا يقول عنها الجَدُّ إنها مُحضَّرة على طريقة المطاعم حين يتناولها.

وبما أنني كنتُ مضطرَّاً للذهاب إلى مكبِّ النفايات، ولكون حنين الجَدِّ مُعدِياً، فإنني، وحين أكون هناك في الأعلى، كنتُ أتحرَّى بناظرَيَّ كل مكان. ولم أعرف أبداً ما إذا كانت أُمِّي ستستغلُّ هذا الوضع، لتجعلَني أعثر وسط هذه القمامة على النصف الآخر من الصورة، إضافة إلى جواب سؤال ذلك الصباح، على حَدٍّ سواء، وبين أكوام الأشياء التي لا نفع لها.

.26

التقيْنا في البرج للمرَّة بعد العشاء، بدلاً عن عادتنا باللقاء عصراً. كنَّا جميعاً هناك: دومينيكو وإنتسوتشو وباسكوينا والتوأم وريفِهْ وماريولينو وأنا ونينا.

كان جوش معنا أيضاً، ويبدو طبيعيَّاً وهو يمشي بجوارنا في الطريق الذي ينحدر إلى الساحة، إلَّا أنه شارد الذهن كما هو حاله دائماً. اقترح ريفِهْ هذه النزهة المسائية، وأخبرنا أن الأجنبي يمكنه أن يأتيَ معنا أيضاً. ذهبنا معاً إلى منزل العمِّ سلفاتور لدعوته. ظلَّ مذهولاً وجامداً في مكانه، فقد اعتقد أنه فخٌّ آخر، وأن ريفِهْ يريد أن يُطلِقَ النار عليه مجدَّداً، لكن العمَّ سلفاتور حثَّهُ قائلاً: "اذهبْ، اذهبْ، يا بنيَّ، لن يُؤذوكَ بعد الآن". اطمأنَّ جوش، لأنه كان واثقاً من أن العمَّ سلفاتور، نظراً لسنِّه، يعرف كل شيء.

أنا أيضاً أدركتُ ذلك، بعد أن دخل جوش إلى حديقة مِنْزاسنيور، وسماعه وهو يعزف، وبعد أن سامحني هذا الذئب ريفِهْ ، وأنه ربَّما ... ربَّما، يمكننا أن نصبح كلّنا أصدقاء، ثلاثتنا.

جاء الليل، وكان الظلام يمدُّ ذراعَيْه عبر نوافذ البرج الخالية من الزجاج.

كنَّا خائفين قليلاً، على الأقلِّ أنا ونينا، أمّا جوش، فلم يكن خائفاً بالتأكيد، فقد عاش فيها لثلاثة أشهر.

صَعِدْنَا إلى الطابق الأوَّل مستعينين بضوء الولَّاعات والمصابيح اليدوية. جلسْنا على الأرض على شكل دائرة، وأشعل ريفِهْ النار لدرء الخوف عنَّا.

بينما كنَّا نصعد، يداً بيد، أنا ونينا، خطرت ببالي جملة قالتْها أُمِّي: الخوف كذبة.

لقد كنَّا على موعد مع رواية قصَّة حقيقية، قصَّة نعرفها جميعاً، حتَّى وإن لم تُرْوَ بعد.

عندئذ، بدأ جوش سَرْدَ قصَّته.

نطق الكلمات، قالها بعفوية مطلقة، كما ببَّغاء الجَدَّة حين يردِّد اسمي: "بييترو"، والذي ما إن يفتح له القفص، حتَّى يتردَّد قليلاً، ثمَّ يُحلِّق بعيداً. كانت قصَّة أسفار، برَّاً وبحراً. قصَّة المشي لمسافات مترامية، بلا ماء ولا طعام ولا متاع. قصَّة مفارقة الوطن والأصدقاء، وفقدان الأُمِّ والأب، والحياة مع الجَدَّة، بعد أن عهدوا به إلى أعمامه الذين رآهم للمرَّة الأولى في يوم اصطحابهم له، ومغادرة البلاد. إنه قصَّة جوع، فُتات خبز، ورشفات ماء.

كنَّا نتحلَّق صامتين حول النار، واللهب يضيء وجوه دومينيكو وإنتسوتشو وريفِهْ وماريولينو وباسكوينا والتوأم.

كانت رؤوسنا منكَّسة، ساهمين بأرضية البرج الضاربة إلى الحمرة. وحده الأجنبي كان يُحدِّق في النار، ويتكلَّم، فيطرد الخوف، غير مكتفٍ بتشتيت الخوف من الظلام في الخارج، بل الخوف الأعظم. فإن كان جوش حَيَّاً، فإننا نحن أيضاً أحياء. معاً، في الليل، حول النار. ومِنْزاسنيور لا تُخيف جوش، ذلك أنه ما عاد يخاف شيئاً.

عندما أنهى جوش قصَّته، نظرتُ إلى ريفِهْ، كانت عيناه تلتمعان.

أيقنتُ حينها أن جوش وريفِهْ صارا صديقَيْن.

حتَّى دومينيكو لم تعد لديه أيّة نكتة ليقولها.

نينا، التي تمتلك شجاعة تضاهي الكبار، كانت أوَّلَ مَنْ تكلَّم: "ما هي الموسيقى التي عزفتَها في تلك الليلة، يا جوش؟". سألتْ.

فكَّر الأجنبي قليلاً، ثمَّ قال: "انتظري لحظة".

نهضَ وتناول ولَّاعة من الأرض، ثمَّ نزل الدرج. سمعناه يخرج من البرج، ويغرق في الظلام.

بقينا متبلِّدين في أماكننا، من دون أن ننبس ببنت شفة. كنَّا نُحدِّق بالنار.

ثمَّ عاد جوش وهو يحمل بيده كرَّاساً بغلاف أحمر، ذلك الذي رأيتُهُ في غرفته. فتحه، وبدلاً عن الكلمات، كانت فيه نوتات موسيقية، والكثير من النجوم المُذَنَّبَة الصغيرة التي تُزيِّن الصفحات.

"هذه هي الموسيقى التي عزفتُها"، قال.

"ولكنكَ عزفتَ من دون الكرَّاس"، قالت باسكوينا.

"عندما كنَّا نعيش هنا في داخل هذا البرج، كنتُ أقرأ هذا الكرَّاس كل يوم، وأعزف الموسيقى في مُخيِّلتي. العمُّ سلفاتور لديه آلة بيانو، وكنتُ أُجرِّبها هناك".

"من أين حصلتَ عليه؟" سألتْ نينا، مشيرة إلى الكرَّاس.

" كانت أُمِّي معلِّمة موسيقى".

"لقد كانت موسيقى جميلة"، قال ريفِهْ الذي أمسى شديد العاطفية. حدَّقْنا فيه جميعاً، فهو ما زال مطلق النار عليه! "ضحكتُ من دون أن أتبيَّن سبباً لضحكي!"

"كانت الموسيقى الوحيدة التي أملكها"، قال جوش.

بقينا نُحدِّق في النار لبعض الوقت، وبطلت أسباب الكلام.

ثمَّ كسرتُ الصمت، مدفوعاً بفضولي الجارف.

"منذُ أن وصلتَ وأنتَ تقرأ كتاباً ...".

لم يسأل جوش كيف عرفتُ ذلك، فربَّما تحايل علينا طوال الوقت.

أومأ برأسه، وقال: "إنها قصَّة هجرة النخلة".

نظرت ڤاليريا التوأم إليه بحياء.

"وأيّ قصَّة هذه؟".

"إنها قصَّة شجرة جوز الهند التي سلكت بدايةً البحر، من أستراليا، إلى أن وصلت إلى أمريكا. كانت تُدعى مارتن، وهي أشجع من جميع أشجار جوز الهند. وإذا كانت أمريكا مليئة اليوم بأشجار جوز الهند، فهذا بفضل "مارتن". توقَّف قليلاً عن الكلام، ثمَّ تابع: "أنا أريد أن أصبح مثل مارتن، شجرة على شاطئ بعيد".

.27

لقد شُفيَ الجَدُّ، وأصبح فجأة مرحاً، وما عهدتُهُ إلَّا جلفاً وفظّاً في كل السنوات التي عرفتُهُ فيها.

استيقظ في صبيحة أحد الأيَّام مفعَماً بالنشاط، حتَّى إنه بدا أصغر سنَّاً من الجَدَّة. هناك ما يدعو للدهشة من قوَّة الحياة.

كان يمكنني حتَّى الغناء بصوت خفيض، والصفير ودقّ ألف إيقاع مختلف داخل المنزل، دون أن يعترض. حتَّى إنني جرَّبتُ ذلك بينما يتناول طعامه، فلم يوحِ بأنه تبيَّن ما أقوم به، فانتابَني الخوف من أن شيئاً ما سيحدث.

لم يعد يعاني الجَدُّ من الحُمَّى، وباتت شهيَّته مفتوحة على الكلام. قالت الجَدَّة: "أأأأجل، كان عليكَ أن تراه وهو يغازلني في شبابه"، لكن تلك القصص لم تكن تعني لنا شيئاً. وصارت الجَدَّة تُخرِج صوراً، التُقطت في اليوم الذي تَقَدَّم فيه جَدِّي بطلب يدها، وبَدَوَا مُسنَّيْن في الصورة أيضاً، كأن ملابسهما تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، لكنني ونينا لم ننبس بكلمة، لئلَّا نُزعجها.

كان الجَدُّ يتمتَّع بطاقة كبيرة جدَّاً، حيث إن الكثير من الأشخاص الذين لم أرَهم من

قبل أبداً (جنوبيون حقيقيون، من شاكلة ريفِهْ وعائلته، وبعضهم أشدّ جنوبية)، جاؤوا إلى المنزل، كي يتحدَّثوا معه.

كانوا يُغلقون الباب على أنفسهم في الصالة لساعات، وبحُجَّة جَلْب الكعك المالح والبسكويت أو شراب الكرودينو(31)، كان يُؤذَن لنا بالصعود.

بيبّينو، الذي نادراً ما يُفارق المقهى، بات يمضي ساعات وساعات مع الجَدِّ.

نينا سمعت بيبّينو يقول: "سأكون سعيداً جدّاً في مساعدتكم في تشغيل مزرعة لوكانيا، يا عمّ نونتسيو. كانت تلك المزرعة تمنح الخبز لنصف عائلات أريليانا ...".

"إلى أن أتى السُّمُّ"، قاطعه الجَدُّ. نظر بيبّينو إليه وهو يرسم ابتسامة عريضة على شَفَتَيْه.

"سيكون لي شرف المساهمة في إعادة الحياة إلى الأراضي وإلى مزرعتكم".

كان يقصد المنزلَ الكثيرُ من الناس، ولم يعد الجَدُّ يخرج الآن، لأنه مشغول بكل هذه الزيارات، وكلَّما التقى بهؤلاء الناس، المعفَّرين بتراب الأرض، المنتعلين أحذية ثقيلة ملطَّخة بالطين الجافِّ، كلَّما ازدادت سعادته.

اقتصر حديثه على الحقول والمحاصيل، عن البذور والشتلات الجديدة، وعن أماكن شرائها، وعن الحراثة وطُرُقها، والأسمدة والمُخصِّبات، والحبوب واستراحة الأرض، عن البذور والتطعيم.

كانوا يبقون حبيسي الصالة، ويحلمون جميعاً بعيون مفتوحة.

وفي النهاية، اضطرَّ الجَدُّ للاعتراف أنّ فكرة الأجانب فكرة رائعة، وقد تكون الفرصة التي انتظرها زمناً طويلاً، يعادل عمراً كاملاً، حتَّى وإن جاءت مغايرة لما تخيَّله في لياليه المؤرِّقة التي لا عدَّ ولا حصرَ لها، مؤمناً هذه المرَّة بضرورة إنتاج وبيع المعلَّبات.

إنه العالَم الجديد، ولا يمكن حتَّى لعجوز كالجَدِّ تجاهله.

في إحدى الأُمسيَّات، قام الجَدَّان بدعوة رئيس البلدية، ابن عمِّنا نونتسيو، لتناوُل طعام العشاء.

إن مجرَّد رؤيته مع الجَدِّ على الطاولة نفسها، يُعتبر حَدَثاً استثنائيّاً.

وبينما كانوا يأكلون لحم الضأن المشوي في الفرن، طلب الجَدُّ من نونتسيو رسميَّاً قائمة تضمُّ أسماء كل أولئك الذين ما زالوا يمتلكون أراضيَ في أريليانا على الجانب الآخر من السَّيْل. واحتفاء بهذه المناسبة، ذهبت الجَدَّة إلى المخزن، لتجلب مشروب الغرابّا الفاخر، وشربا وحدهما نصف الزجاجة.

بعد أسبوع عاد ابن العمِّ نونتسيو، وهو يحمل مجلَّداً خاصَّاً، يحتوي على قائمة بأسماء كلّ أصحاب الأراضي التي تقع في سهل أوملو.

بدأ جَدِّي يراجع القائمة كل يوم، ويدعو أولئك المُلَّاك، وأكثرهم لا يتذكَّر أراضيه تلك، بعد مرور كل تلك السنين التي اشتغلوا فيها عمَّالاً مياومين لدى العمِّ روكّو.

فاق عدد الأشخاص الذين ما زالوا يمتلكون قطعة أرض في أريليانا كل التَّوقُّعات.

وكان السؤال الأوَّل الذي يجابه به جَدِّي، أمام كأس من النبيذ الأحمر: ما هي الخسارة التي تجب مواجهتها؟ فلا أحد في أريليانا يثق بأحد.

"لا بُدَّ وأن هناك خدعة ما"، قال بيشولينو عندما حان دوره. كنَّا أنا ونينا نُصغي إليهما من خلف الباب. بيشولينو الذي لم يتوقَّف أبداً عن العمل في أرضه، بات يعاني الآن من القانون الذي يُلزِمُهُ بإنتاج نصف الكمِّيَّة، وهو ممَّا لا يمكن السماح باستمراره.

كان الجَدُّ يُجيبه كما يُجيب الآخرين: "بالنسبة إلى الخسارة، فقد خسرنا كل شيء. وإذا تحرَّك كل واحد منَّا حسب مصالحه، سنظلُّ في مكاننا. أمَّا إذا اتَّحدْنا، فيمكننا

أن ننتصر عليهم: بدلاً من أن نبيعَ محاصيلنا، سنبدأ في إنتاج المعلَّبات، وما نُنتجه سنقوم بتعليبه". نظر بيشولينو إليه باهتمام، كان يعرف رأي الجَدِّ بالمعلَّبات، مثل جميع الرجال المُسنِّين الذين اشتغلوا في الأرض دائماً، ولكنه اطمأنَّ حين رأى الجَدَّ يبتسم بسخرية.

"وهذا يعني سحب البساط من تحت العمِّ روكّو أيضاً"، قال بيشولينو.

"سوف نستعيد ما هو لنا فحسب". التمعتْ عينا الشَّابِّ.

توجَّب عليهم جمع مُدَّخراتهم، وتأسيس جمعية تعاونية، وشراء عدد قليل من الحيوانات، أبقار، وخنازير وأغنام. ثمَّ شراء البذور، والبدء في زراعة البندورة، والخوخ، والبصل، وبصل الزيز، والتين، والزيتون، والفلفل، والباذنجان، والكوسا، والكاكي، والجوز، وعنب النبيذ.

ثمَّ إعادة الحياة إلى المزرعة، والبدء بالتعليب، وإنتاج السلامي والأجبان. كانوا يريدون البدء بزراعة الزعفران أيضاً، فالعمُّ روكّو لم يكن قد فكَّر به بعد، وإذا كان ثمَّة شيء يمكن الرهان عليه مستقبلاً، فهو الزعفران. كان الطلب عليه كبيراً، وطقس أريليانا مثالي لإنتاجه. سيبيعونه في جميع أنحاء إيطاليا، وفي جميع أرجاء العالَم. زعفران أريليانا، صاروا يحلمون بعيون يقظة جدَّاً، مُردِّدين ذلك بلهجتهم العامِّيَّة، لأن الأحلام يجب أن تكون بلغة شجاعة، وإلَّا فلن تتحقَّق.

ومع نهاية كل يوم، كان الجَدُّ يقول على الطاولة مساء: "نحن جيش"، ثمَّ يملأ كأساً كبيراً من النبيذ الأحمر. وكانت الجَدَّة تنظر إليه بنظرة خاصَّة تشي بالحُبِّ.

وهكذا، رويداً رويداً، بدأ الناس في البلدة بالتفكير بإمكانية الحياة بلا استغلال، يكفي تجاوُز مجرى السَّيْل، والعبور إلى أراضٍ، لم تتبادر إلى أذهانهم منذُ عقود.

كانوا يتكلَّمون، في الساحة، والمقهى، وعلى طريق أبْيَا، وفي الفيلَّا، وفي أثناء الكلام، كانوا ينقلون عدوى الحماسة فيما بينهم، وتنغرس معها الشجاعة في نفوسهم.

في النهاية، نجح هذا الرجل العجوز - جَدِّي "المَلَّاك"- أن يُوفِّق بين أناس لم يؤمنوا يوماً بتعاضُدهم. وانضوى تحت جناح الجمعية التَّعاونيَّة كلٌّ من إيجيديو الصّحفيّ ونينو الصَّيدليّ، وأصحاب حقول القمح، ووالدَي دومينيكو وإنتسوتشو، ومُلَّاك حقول الزيتون، والطبيب فيتّي، الذي وضع حقل الجوز الكبير تحت تصرُّف الجمعية التَّعاونيَّة، وكذلك الجزَّار، ووالد باسكوينا، وبيبّينو، أشرك مزارع الكروم في أليانيكو، وكذا فعل القاضي لوبيانو - الذي كانت عائلته في ما مضى تُنتج أفضل أنواع النبيذ. حتَّى فرانكو، والد ريفِهْ، وافق على العمل في ظلِّ الجميعة التَّعاونيَّة، لم تكن لديه أرض، لكنْ، لديه ذراعان قويَّتان. ثمَّ إن السهل الذي كان يوماً حقول قمح الجَدِّ، بهكتاراته الثلاثين، حياة أبيه وجَدِّه، حياته هو. هذا السَّهْل، جنباً إلى جنب مع حقول الآخرين الأصغر مساحة، شكَّلت أربعين هكتاراً، إنها أراضٍ شاسعة.

بعد أربعة مواسم، أو ربَّما حتَّى ثلاثة، كانوا سيبدؤون في التعليب والبيع. إذا كان العمُّ روكّو النذل قد تمكَّن من ذلك، فإنهم سيتمكَّنون من ذلك أيضاً.

(31) كرودينو، هومشروب غير كحولي، بدأ إنتاجه في إيطاليا منذُ عام 1964، وأصبح شائعاً جدَّاً، ويتمُّ تناوله قبل وجبات الغداء والعشاء بقليل، كفاتح للشَّهيَّة.

.28

كما بدأت، انتهت الاجتماعات في بيت الجَدَّيْنِ في اليوم الذي أمسك فيه الجَدُّ سمَّاعة الهاتف، واتَّصل بصهره، ذلك القذر الصغير، كما كان يصفه.

كادت نينا أن تلامسَ السماء السابعة من الفرح، وأنا كذلك، فبعد أكثر من شهر ونصف بقليل، سنرى أبي مرَّة أخرى.

عندما أنهى الجَدُّ المكالمة، قال: "على الأقلِّ، سيكون لدى ذلك الكسول بْيَاجُو عملٌ يقوم به". لكنْ، لم يكن صحيحاً أن أبي كسول، لم يكن ذنبه إن كان قد فَقَدَ وظيفته.

سَمِعَتْهُ الجَدَّة وصرخت من خلفه ببعض الكلمات باللهجة العامِّيَّة، التي لم نفهمها، لا أنا ولا نينا، ولكن الجَدَّ صفق الباب، وذهب إلى النادي الاجتماعي، بعد غياب طويل. قبل ذلك ناداني، وأمرني بالخروج معه، كان يريد محادثة صديقي، الشَّابِّ الأجنبي.

دُهِشتُ، ولكنْ، لا مزاح مع الجَدِّ، لذا ذهبْنا معاً إلى منزل العمِّ سلفاتور، وبينما كان العجوزان يتكلَّمان عن هذا وذاك، صَعِدْتُ أنا إلى الأعلى. عندما نزلْنا، كان جَدِّي واقفاً على الجانب الآخر للطاولة. "أيُّها الصَّبيُّ"، قال لجوش، "هذا المساء، أريد أن أتكلَّم مع أعمامكَ لدى عودتهم من الحقل". كان أمراً عسكريَّاً.

أومأ جوش برأسه مُوافِقاً.

"عندما تصل الشاحنة وينزل العمَّال المياومون منها، قُلْ لأقربائكَ إني بانتظارهم عند النافورة، في ساحة الساعة. هل فهمتَ؟".

"فهمتُ"، أجاب جوش.

"أنتَ ستذهب معه"، أمرَني، "حالما يصلون، تعالَ إلى النادي، وأَخبِرْني".

ثمَّ ابتسم الجَدُّ، وبحياء، ابتسم جوش، عندها ابتسمتُ أنا أيضاً.

"هاتِ يدكَ"، قال الجَدُّ، "سنتصافح كشخصَيْن بالغَيْن"، ومَدَّ يده إلى جوش.

عندما عدتُ إلى البيت، اتَّصل أبي، وكان سعيداً جدَّاً. أنا ونينا بقيْنا على الهاتف

معه لساعَتَيْن تقريباً، لم نتمكَّن من التَّوقُّف عن الكلام، كنَّا جِدّ سعداء، لأننا سنراه مرَّة أخرى. لم يستطع تصديق ما يجري، ليس لأجل العمل بجِدِّ ذاته (يبدو لي أنه لم يكن نشاطه المفضَّل)، ولكنْ، لفكرة أنه سيبقى معنا، مع أنه هو الذي أرسلَنا إلى هناك، ولأنه سيأتي إلى أريليانا، حيث كانت بالنسبة إليه، مثل أرض الميعاد عند اليهود.

وبعد يومَيْن استقلَّ أبي الحافلة اللَّيليَّة مُتَّجهاً نحو "تيرّونيا"(32).

عندما التقيْنا، وكان يحمل حقيبة يد، أحسستُ بالخجل: لقد تغيَّر قليلاً، لكنني تغيَّرتُ أكثر منه. وبالفعل، عندما دخل البيت كان أوَّل ما قالَه هو: "لقد أصبحتَ شابَّاً يافعاً، يا بِيْ، يجب أن أجلبَ سُلَّماً لأعانقكَ". لا أدري ما إذا كنتُ تغيَّرتُ، فلم يكن قد مضى سوى شهرَيْن على فراقنا.

أمَّا هو، فقد ظهر كرشه، ويبدو بعض الشيء وكأنه حامل، لكنني لم أبحْ له ذلك، فلربَّما أحرجتُهُ. أمَّا نينا، فكانت على النقيض منِّي، لم تخجلْ، وقفزتْ إلى رقبته. كان أبي سعيداً، ثنى ركبَتَيْه، وهي لا تزال تتشبَّث برقبته، ووضع الحقيبة على الأرض، ثمَّ ضمَّها بقوَّة، وبدآ يتبادلان القبلات، ويلعبان.

اضطررتُ للخروج، لأن جرعات العاطفة المفرطة تخنقني إذا استمرَّت أكثر من اللَّازم.

انعطفتُ عند الزاوية، وذهبتُ لأزورَ العمَّ سلفاتور، الذي لم أزرْهُ منذُ وقت طويل. كنتُ مشتاقاً لرؤيته، ومتأكِّداً من أنه بمفرده، لأننا سمعْنا، أنا ونينا، في ذلك الصباح، ريفِهْ والأجنبي يخرجان معاً. مَنْ يدري أين ذهب هذان الاثنان من دون أن يُخبراني بأيِّ شيء؟ لكني لم أكن غيوراً، أعرف أنهما كانا يريداننني معهما، لكنهما بحاجة الآن للبقاء بمفردهما، ليتصالحا جيِّداً.

كان العمُّ سلفاتور على ما هو عليه يُحدِّق في الحائط، ويمكن للمرء أن يرى بالعين المجرَّدة أنه ينهار بشكل متزايد، حتَّى إنه نسي العُكَّاز داخل المنزل، أو أن شخصاً ما سرقه، لأنه لم يكن هناك.

لمستُهُ من كتفه، ولكنه استمرَّ في التحديق أمامه من دون أن يتوقَّف عن الابتسام. مَنْ يدري ماذا يدور في ذهن رجل عندما تكون أيَّامه معدودة؟ ثمَّ قال دون أن يلتفتَ: "لقد عدتَ، يا جوش. هل أحضرتَ كل شيء؟".

"أنا لستُ جوش، يا عمُّ سلفاتور. أنا بييترو، ألم تعد تعرفني؟".

أدار رأسه قليلاً نحوي، وقال: "اقتربْ، عيناي ليستا ...". لقد أمسى أيضاً شبه أعمى.

عندئذ، اقتربتُ منه، مرَّر يده على كل وجهي، في نوع من المداعبة الطويلة التي لا تنتهي أبداً. لكنْ، لم يكن من الممكن اعتباره حالة ميؤوساً منها بعد، لأنه استخدم اليد الصحيحة، تلك التي تحوي الأصابع الخمسة.

"عرفتُكَ الآن ..."، قال بعد بُرْهَة من الوقت، وهو يُمسِّدني بيده الخشنة كالطوب. "أخيراً عدتَ". كان صوته خافتاً للغاية، ولم يُعجبْني ذلك كثيراً.

"أنتَ مَن اتَّخذ حفيداً آخر، يا عمُّ سلفاتور ... يجب أن أُخبركم، لقد شعرتُ ببعض الاستياء". ضحكتُ، وإلَّا لصار حزيناً.

"ويليام في أمريكا ... هل سمعتَهُ، أنتَ؟ هل هو بخير؟ ماذا يقول؟ هل هو مجتهد في المدرسة؟".

"نعم، يا عمُّ سلفاتور، هو بخير، ويُحيِّيكَ كثيراً. يقول إنهم سيأتون جميعاً عمَّا قريب لزيارتكَ".

"إيه، لقد أصبحتَ مُسنَّاً جدَّاً. ما الداعي لمجيئهم؟ إنها رحلة بلا جدوى ... قُلْ لهم أَلَّا يُزعِجوا أنفسَهم ...". ولكنْ، فجأة استعاد حيويَّته. "حسناً! ها هو البيت على ما

يرام، لم يكن أبداً نظيفاً بهذا الشكل". ضحك وحده. "كل شيء في مكانه، ولا شيء مُنْتَظَم!". غمرتْهُ السعادة، فهي مقولة يُكرِّرها دائماً.

"أنتُم الأقوى في كل أريليانا، يا عمُّ سلفاتور، لا أحد يمكنه أن يتفوَّق عليكم". حتَّى الأكاذيب، في بعض الأحيان، تكون جيِّدة لرَفْع المعنويات.

ثمَّ خطرت ببالي فكرة.

"لماذا لا تروون لي رحلتكم بالباخرة؟ منذُ سنوات وأنتُم تريدون أن تروووها لي ... أبي هناك، لدينا ما يكفينا من الوقت".

"أيّ رحلة، يا ويللي؟". أصبح جادَّاً.

"تلك الرحلة التي قمتُم بها إلى أمريكا في شبابكم. عندما تعلَّمتُم كيف تحلمون ... هيَّا، يا عمُّ سلفاتور، رحلتُكم بالباخرة ... ابذلُوا بعض الجهد، لقد حدَّثتُمُوني عنها مئات المرَّات".

وعاد إلى التحديق بالحائط بجدِّيَّة بالغة، وكأنه يبحث عن شيء أمامه. ثمَّ همس كَمَنْ يفشي بسرٍّ: "أنا لا أذكر أيَّ رحلة بالباخرة، يا جوش ...".

طفتْ مرَّة أخرى ابتسامة على وجهه دون سبب. لقد أصبح وضعه سيِّئاً تماماً.

"حسناً، أنا سأروي لكم رحلتكم تلك بالباخرة، وهكذا سوف تستعيدون ذاكرتكم".

"ها هو ذا، أحسنتُم، أَخبِرْني، لأن الذاكرة اليوم لا تعمل كما يجب ...".

"لقد كنتُم في ريعان الشباب، ومَنْ يعرفكم الآن ما كان ليتعرَّف عليكم حينها، وفي حقبة ما قبل التاريخ تلك، كنتُم في منتهى الشجاعة، لا تهابون شيئاً ولا أحداً. كنتُم تملكون بيوتاً حجرية في أريليانا، وسافرتُم وحدكم للبحث عن حظِّكم وراء البحار. في كل ليلة من الليالي الأربعين التي استغرقتْها الرحلة، كنتُم تستلقون على ظَهْر الباخرة

للنوم، لأنكم لم تملكوا المال للحصول على مقصورة، كان يأتي نيزك من السماء من أجلكم فقط، ويتبعكم في البحر طيلة الليل. أنتُم كنتُم تظلُّون مستيقظين، وكل ليلة تبوحون بهمومكم للنيزك، فقد تركتُم عائلتكم وأصدقاءكم وبيوت أريليانا الحجرية، وكنتُم تخشون ألَّا تجدوا شيئاً على الجانب الآخر من المحيط. كان النيزك يُصغي ويبتسم ويقول لكم إنه لا داعي للقلق، ستجدون أجمل أرض في العالَم، وسيُحالفكم الحظُّ ... وفي فجر كل يوم جديد، ينير لكم أجمل الوعود، ويقول لكم إن الخوف ليس سوى كذبة ...".

انتبهتُ أنه قد غفا، اللعنة، أنا قلق بشأن ذلك العجوز. هززتُهُ من كتفه، ففتح عينَيْه، وابتسم حين رآني. بدا سعيداً. "يا لها من قصَّة جميلة"، قال.

"إنها قصَّتكم، يا عمُّ سلفاتور".

"إنها قصَّة جميلة حقَّاً"

"إنها قصَّتكم، أقول لكم".

"أنا لا أتذكَّر أيَّ شيء عن هذه الباخرة. ولكنْ، أودُّ كثيراً لو أسافر من أحد الموانئ ...".

"ستسافرون في يوم ما، ياعمُّ سلفاتور. لا تَقلقوا".

ثمَّ نادتْني نينا من النافذة.

استدرتُ، كانت خلف النافذة تبتسم. ودَّعتُ عندئذ العمَّ سلفاتور، وعُدتُ إلى أبي، وقد زال خجلي.

واصلتْ نينا القفز حوله وحَضْنَهُ. أنا أيضاً كنتُ أتمنَّى ذلك، لكني كنتُ كبيراً جدَّاً. مع ذلك، لعبْنا قليلاً معاً ثلاثتنا، وكان ذلك جميلاً، لأنه أظهر بأننا لم ننفصلْ عن

بعضنا البعض أبداً، ولا أن الوقت الذي فرَّق بيننا كان بطيئاً جدّاً. جلبتْ لنا الجَدَّةُ الخبزَ والطماطمَ، لنتناوُل وجبة خفيفة، بينما كنتُ ألعب مع أبي لعبة صفعة الجندي. كنتُ أصفعه بقوَّة، وهو يصفعُني بودٍّ.

في حوالي الساعة السابعة، أتى جوش ليناديَني، وعندئذ تذكَّرتُ ما قاله لنا الجَدُّ.

توجَّهْنا إلى الساحة لانتظار الشاحنة التي كانت تُقلُّ العمَّال المياومين في آخر النهار، الشُّبَّان والمُسنِّين، كحيوانات في حالة مُزرية، يعودون إلى مآويهم بعظام مُهشَّمة.

عندما وصلت الشاحنة، كانت مقطورتها ممتلئة. ودخان عادمها الأسود يملأ الساحة.

كان الأكثر شباباً يقفزون منها، والأكبر عمراً يتعلَّقون بأيديهم وينزلون ببطء.

انتظرنا الأجانب.

وبينما كان جوش يقترب منهم، ليتحدَّث إليهم، هُرعت أنا إلى النادي عند جَدِّي.

عندما انعطفْنا في الشارع الذي يؤدِّي إلى ساحة الساعة، كان الأجانب قد وصلوا إلى النافورة.

كان جوش مُنحنياً، يشرب الماء، والرجال واقفين، مُعفَّرين بالتراب، يتحدَّثون فيما بينهم. وشمس الحقول قد زادت بشرتهم دُكْنَة.

لم يكن هناك أحد في الساحة، كان الجَدُّ لا يريد أن يَكشف أمرَه أحدٌ.

"مرحباً"، قال من بعيد، وكان غريباً حقّاً أن يُبادرَهم الجَدُّ بالتَّحيَّة.

رفع الأجانب أيديهم، وأومؤوا باحترام. كانت لديهم طريقة لطيفة في التعامل، لا تعوزها الأناقة، حتَّى وإن كانوا مُتَّسخين ومُتعرِّقين. تبادلْنا أنا وجوش النظرات.

عندما كنَّا على بُعد خطوَتَيْن، قال الجَدُّ: "أنا مَدين لكم بالشُّكر".

سأل أصغرهم "ماذا؟"، ولكن أكبرهم سنَّاً فَهِمَ ورفع يَدَيْه. "لا داعي للشُّكر"، قال، "هذا واجبنا".

"في كل هذه السنوات، لم أتمكَّن من ذلك أبداً. كان يتوجَّب عليَّ أن أُشارك الآخرين، ولكني لم أشأ ذلك". كان يبدو كما لو أنّ جَدِّي يُكلِّم نفسه، ولكنه كان يتكلَّم مع الأجنبي.

"لم يكن هناك موظَّفون مسؤولون من قبل. الآن، من الأفضل العمل سويّاً"، قال الرجل.

"تصنيع المعلَّبات"، قال الجَدُّ. وبينما يتكلَّم، كان يضحك. لم يعتقد أن الأرض ستصبح بالنسبة إليه شيئاً آخر غير القمح والزيتون. لكن الجَدَّ كان ينظر إلى الأجنبي كَنِدٍّ له. رَجُلٌ لرَجُلٍ.

"ربَّما لن يكون بالأمر السَّيِّئ، يا عمّ نونتسيو"، قال عمُّ جوش.

عندئذ، مرتاباً حدَّق الجَدُّ مباشرى في عينَيْه، وسأل: "ما الذي تريدونه بالمقابل؟".

هزَّ الرجلُ رأسَهُ، وأجاب: "لا تَقلقُوا، يا عمُّ نونتسيو".

"حتماً تبحثون عن شيء بالمقابل". هذه هي الطريقة التي يرى بها الجَدُّ الأمور.

فكَّر الأجنبيُّ بالأمر، وقال: "يكفينا وعدٌ واحد فحسب".

"تفضَّلوا".

"عندما تنتهون من تسوية الأمور، تأخذوننا للعمل معكم".

أومأ الجَدُّ برأسه.

"لا يمكننا البقاء مع العمِّ روكّو لفترة أطول، إنه يعاملنا كالحيوانات، ولا يعطينا حتَّى طاسة ماء".

مدَّ الجَدُّ يده، كما فعل مع جوش. "حينها أَحضِروا معكم الآخرين أيضاً. نحن بحاجة إلى سواعد قوية".

شدَّ الرجل على يده.

"فلنذهب الآن"، قال لي، "رَافِقْني إلى النادي، أنا عجوزٌ، وقد أتعثَّر". ذهبْنا، نحن في طريقنا، والأجانب في طريقهم.

(32) "تيرّونِهْ" هو اسم يشير إلى أصل طبقة الفلَّاحين المرتبطين بالأرض. واعتباراً من منتصف القرن العشرين، بدأ استخدامه بنبرة مهينة من قبَل الإيطاليِّيْن في الشمال، لوصف سُكَّان جنوب إيطاليا، بعد الهجرات الكبيرة من قبَل هؤلاء الأخيرين نحو المراكز الحضرية في الشمال. ومن هنا كلمة "تيرّونيا"، أي أرض الفلَّاحين.

29.

كان أبي يفيض سعادة، لم يحتكمْ يوماً على هذا القَدْر الكبير منها، كما لنا أن نتذكَّر، لدرجة ظننتُ فيها أنه قام بزيارة أُمِّي في المنزل الجديد.

مَنْ يعلم؟ إذا فتَّشتُ حقيبته من دون أن يكتشفَني كلبون، لعلِّي أعثر أيضاً على النصف الآخر من الصورة، وربَّما، خلفها، يوجد جواب سؤالي. حاولتُ، ولكنْ، لم يكن هناك شيء.

ربَّما هو سعيد، لأنه يعيش بجسده في بلده، وليس في المُخيِّلة والوجدان فحسب. لا بُدَّ أن فكرة العمل أنها منحت أبي الكثير من الطاقة، لأنه عاد كما كان من قبل،

يعانقُنا دائماً، ويُدغدغُنا، ويرمي بـ نينا، لتُحلِّقَ في الهواء، يُمسك بي من ذراعي، ويدور بي، وعندما يقول أحدهم شيئاً يضحك، ولا يتكلَّم في موضوع العمل.

كانت نصف البلدة في حالة غليان تلك الأيَّام. واجتمع الكثير من العمال القادرين على أداء الأشغال المنوعة للغرض ذاته. بدا وكأنه لم تعد هناك حاجة لطلب أيِّ شيء من أيِّ أحد، وكل ما ينبغي أن يوجد مُتوفِّر.

الجَدُّ والجَدَّة، أبي والآخرون كانوا يُمضون كل أيَّام الأسبوع، من الصباح إلى المساء، بما في ذلك يوما السبت والأحد، في الأراضي وراء السَّيْل. وقد وضعتِ الجَدَّة أيضاً يافطة لطيفة على باب المحلِّ تقول:

مُغلَق حتَّى إشعار آخر

كانت قد أملتْها عليَّ، وأنا كتبتُها، وضحكْنا كثيراً، إلى أن أصابتْني الحزقة.

كان بيبّينو، صاحب البار، يبدو وكأنه قد عاد إلى صباه.

أشرف الجَدُّ على الأشغال، وتمكَّن، بمساعدة دومينيكو وإنتسوتشو وأبيهما، الذين يُتقنون كل شيء، وبقوَّة سواعد فرانكو وأبي، من تجديد الحقل القديم في غضون ما يزيد قليلاً عن أسبوعَيْن.

أنا وريفِهْ اِسْتَأْذَنَّا الجَدَّيْن، ليأتي جوش معنا أيضاً، ليساعدَنا على الأقلِّ، وليقومَ أيضاً بشيء مختلف عن روتينه اليومي. أراد العمُّ سلفاتور بدوره أن يكون معنا، لكنه عجوز، وكان ما يقصُّه عليه جوش عند عودته للمنزل يكفيه، كي يحلم.

قاومت الجدران الحجرية للمزرعة كل تلك السنين، وكذلك العوارض الحاملة

للسقف، التي استبدلوا التالف منها، وقاموا بتغطيتها بحجر الأردواز. والأرضية كانت صامدة أيضاً، باستثناء الأماكن التي تساقطت فيها المياه من الثقوب في السقف، بينما فَقَدَ الطوبُ الأحمرُ لونَهُ، فقامت الجَدَّة وفيلومينا، مع زوجة القاضي لوبيانو ونساء أخريات من البلدة بكَشْطِهِ، وَجَعَلْنَهُ يعود جديداً.

فصَّل النَّجَّارون في الفناء الكبير أبواباً ونوافذ جديدة، وثبَّتوها جميعاً في أماكنها.

حتَّى القاضي لوبيانو نفسه ارتدى بدلة شغل، وقام برفقة الجزَّار، والد باسكوينا، وفنِّيُّو الكهرباء، بإصلاح الشبكة الكهربائية المحترقة بالكامل. أمَّا المطبخ وشبكة المياه، فقد نَجَتْ بأعجوبة. استمتع القاضي بعملية سَحْب كل تلك الكابلات التي تجري داخل الجدران، وهو يُكرِّر "كم هي طويلة هذه الأسلاك، إنها لا تنتهي أبداً". وكانت الجَدَّة تراقبه وهو يعمل، ولم تكن مستمتعة مثله، أبداً.

ساعدناهم أنا ونينا أيضاً، رفقة جوش وريفِهْ والتوأم: كنَّا نستمتع جدَّاً في ربط الأنابيب وسحب الأسلاك الكهربائية ودقّ المسامير، لتثبيت إطارات الأبواب وتركيب المصابيح الكهربائية. كان جوش قويَّاً وسريعاً، وبينما يعمل، كان يتحدَّث أحياناً بلُغته، صاحب المقهى بيبّينو، يسخر منه، فنضحك.

وحين ينتبه جوش للأمر، يضحك هو بدوره أيضاً.

لم تكن المزرعة تبدو حقيقية لشدَّة جمالها.

فور الانتهاء من العمل، حاول والد إنتسوتشو تشغيل الموقد. كان موقداً ضخماً، وناره تشتعل بزخم كبير.

كان الجَدُّ يشعُّ فرحاً.

تأثَّرت أُمِّي عندما اصطحبتُها في جولة عبر كل غرف المزرعة، وهذا أمر نادر الحدوث. تذكَّرتْ طفولتها حين كانت تصحب الجَدَّ، ويسمح لها بإطعام الماعز.

كانت المزرعة أصغر من مزرعة العمِّ روكّو، وينقصها قسم الإنتاج الصِّناعيِّ كاملاً، لكنهم كانوا سيبنونه على مراحل. ورغم ذلك فهي هائلة فعلاً: جدران مُغطَّاة بالحجر وبلاط فخاري على الأرضية، وخشب وحجر أردواز على السطح.

ثمَّ جاء دور المقصَّات، وكان هذا مشهداً رائعاً.

بعد انتهاء العمل في المزرعة، تناول كل مَلَّاكي الأراضي، حتَّى أولئك الذين يملكون قطعة أرض صغيرة، المقصَّات، ارتدوا القفَّازات، واصطفُّوا في طابور واحد، وقصُّوا معاً الأسلاك الحديدية الصَّدِئَة التي كانت لا تزال تَفْصِلُ حقلاً عن الآخر.

لقد أصبحتْ أرضاً واحدة مُترامية من أربعين هكتاراً.

وتوجَّب عليهم تعزيقها وتنظيفها وحَرْثها وتخصيبها وتسميدها، ومن ثمَّ إعادة زَرْعها ببذور جديدة.

أعاد مَنْ لا يزالون يمتلكون الآليات، تهيئة الجرَّارات والحصَّادات القديمة، المتوقِّفة لسنين. استغرقوا بعض الوقت لتشغيلها، ولكنها قعقعت وعملت وهدرت، كما كانت من قبل.

ومن دون إضاعة وقت، صَعِدَ بيشولينو ودومينيكو وإنتسوتشو وآباؤهم وأبي وبيبّينو والجَدُّ بنفسه على تلك التنانين الضخمة الصاخبة، وبدؤوا بحَرْث الأرض، "يجب تدليكها مثل امرأة"، قال جَدِّي، أيْ مداعبتها وتحضيرها لاستقبال الشتلات الجديدة.

هي، الأرض، لم تمانع، بل استمتعت، لقد بقيتْ لسنوات طويلة مُهمَلَة تحت المطر والشمس. كانت تريد العودة إلى الحياة.

ذهبتُ إلى مكبِّ النفايات، لأُمتِّع نظري بكل ذلك من الأعلى، ولأوَّل مرَّة أحضرتُ

نينا معي. كان المسار المتعرِّج للسَّيْل لا يزال هناك، حصى بلا حراك. وما كان يُرى في الشمال من ملاءة رثَّة بِرُقَعٍ مختلفة، تحوَّل الآن إلى واحدة من أجمل العباءات البرَّاقة، مُطعَّجة بفعل نفخ الجرَّارات.

طماطم، بصل، زيتون، باذنجان، عنب، جوز، زعفران. هذه هي الكلمات التي تردَّدت في كل مكان.

في إحدى الأُمسيَّات، بعد يوم عمل، اجتمعْنا كلنا لتناول الطعام في المزرعة. كان علينا إيجاد اسم للجمعية التَّعاونيَّة الزراعية الجديدة لأريليانا.

طهت النساءُ الكثيرَ من الطعام، خبزنَ الخبز في فرن القِرْمِيْد، وشَوَيْنَ أضلاع الخروف. فاجأ بيبّينو الجميع، وجلب الـ "نيومّاريد"، وهو طبق لوكاني(33) خاصّ، يتكوَّن من لفائف من أحشاء الضأن والماعز الرضيع مَحشوَّة داخل الأمعاء: وجبة لذيذة يتمُّ تناولها عادة في عيد الفصح.

وبينما كان بيشولينو يشوي الـ "نيومّاريد" على النار، فتح الجَدُّ زجاجة كبيرة، تحوي ليترَيْن من النبيذ الأحمر. جلسْنا خارجاً، في فناء المزرعة، إلى طاولة حجرية كبيرة جانب البئر مع مقعدَيْن طويلَيْن، والعشب الجديد حولنا في كل مكان.

كلَّما كانت تفرغ زجاجات النبيذ الكبيرة، كانت تزداد الأسماء العشوائية للمزرعة التي يقترحها كل واحد من الحاضرين.

تسابقْنا في مَنْ يهرف بأسماء أكثر. كنَّا (أنا، ونينا، والتوأم، وجوفانّينو، وريفِهْ، وجوش، ودومينيكو، وإنتسوتشو) نجلس على العشب، ونأكل الـ "نيومّاريد"، وننفجر ضحكاً لرؤية الكبار وهم يبتدعون تهريفات أكثر منَّا.

وجوش أيضاً كان يهرف بالأسماء، ولكن عدم اتِّزان أسمائه أَضحكَنا كثيراً.

طَلَع إيجيديو الصّحفيّ باسم "تعاونية زيتون وجوز وزعفران". كان الجميع ثملاً تقريباً، فبدؤوا يسخرون منه، ولكنهم سرعان ما أعادوا التفكير بالاسم. في الحقيقة، لم يتمكَّن أحد من ابتداع اسم أفضل. لم يكن اسماً مثيراً للاهتمام، لكنه بسيط ويُعبِّر عن فكرة الجمعية.

ذهب إيجيديو ليُحْضِر لوحاً خشبيًّاً مسنوداً على حائط الإسطبل، جرجره حتَّى الفرن، وقال: هنا، في أعلى اللوح مكتوب "زيتون وجوز وزعفران"، سوف نُعلِّقه عند المدخل، وسيبقى مدفوناً هناك! بدأ الجميع بالضحك، لم يكن القاضي لوبيانو قادراً على التَّوقُّف عن الضحك وهو يُكرِّر جملة "وسيبقى مدفوناً هناك". كان تأثير النبيذ واضحاً عليه.

كانوا على وشك أن يفتحوا زجاجة أخرى للاحتفال بتعميد ذلك الاسم، عندما صَعِدَ أبي على الطاولة، وقال: "بدلاً من ذلك، لماذا لا نُسمِّيها مزرعة روزي؟". روزي هو اسم أُمِّي، حتَّى لو أن اسمها في الحقيقة روزالبا. كان أبي خجولاً بعض الشيء، لذا تكلَّم بصوت خافت، ولقد بدا أنه صَعِد على الطاولة، كي يُسْمِعَ اسمَ أُمِّي للجميع.

لم يتكلَّم أحد في البداية.

كان نينو الصَّيدليُّ أوَّل مَنْ قال "نعم".

وعلى الفور، تبعه الجميع. يقولون: "جميل"... "فكرة جيِّدة"... "مزرعة روزي".

تأثَّر القاضي لوبيانو وزوجته قليلاً، وأخرجا منديلاً أبيض، ولكني أعتقد أن مردَّ ذلك كان النبيذ.

نظرتُ إلى نينا، التي نظرت إلى الجَدِّ. الجَدُّ نظر إلى الجَدَّة، وهي هزَّت رأسها بنعم.

"مزرعة روزي"، هذا هو الاسم الجديد لمزرعة لوكانيا.

قال الجَدُّ بعد بُرْهَة: "أحسنتَ، يا بيا، تعال إلى هنا. إنها فكرة جميلة فعلاً، مزرعة روزي." بينما كان يشير بيده، كما لو أنه يراها فعلاً مكتوبة بأحرف كبيرة فوق البوَّابة، واضحة ومميَّزة، بدا الجَدُّ فخوراً بأبي. هذا كان واضحاً، فقد أصبح عاطفيَّاً، وأنا لم أرَ الجَدَّ عاطفيَّاً أبداً. حتَّى إنه عانقه، وكان أبي سعيداً، وعيناه تلتمعان.

نينا كانت سعيدة أيضاً.

وكنتُ أنا الوحيد الذي لم ترقْ له تلك الفكرة. فلو كانت أُمِّي تريد أن تشعر بأنها مُهمَّة إلى هذا الحَدِّ، فعليها أن تكون معنا هنا. أمَّا هكذا، فمريح جدَّاً لها. ستبقى بعيدة. لم يرقْني أبداً هذا الأمر: لو كنتُ في سنٍّ يسمح لي بشقاوة الأطفال، لتشاقيتُ كثيراً.

بدأ الرجال يتبادلون الأنخاب مجدَّداً، نخب الاسم، ونخب مستقبل المزرعة الجديدة. بعد مضي بعض الوقت، كان واضحاً أنهم قد شربوا كثيراً، إذ إن بعضهم استلقى على العشب، وذراعاه أمام وجهه. لذا اقترحت النساء أنه لا بُدَّ من الانتظار قليلاً قبل العودة إلى البلدة.

كان الكبار، جميعاً، يُدخِّنون السجائر وهم يهيمون في الوادي وما وراء الوادي، هناك في الأعلى، كانوا ينظرون إلى أضواء أريليانا والبرج والساحة، والجَدَاجِد تغنِّي. أخيراً صمت الجميع. كان المكان جميلاً، ويمنح الطمأنينة والسلام مثل مشهد الميلاد. عندما عدْنا إلى المنزل، وقبل أن ننام، دوَّنتُ في دفتري الصغير شيئاً مهمَّاً:" أن نكون شجعاناً في الحياة، أفضل من معرفة الأشياء. العالَم مليء بأناس يعرفون هذا الشيء أو غيره، لكنْ، ليس هناك أشخاص شجعان مثل الأجنبي الضخم، الذي، من دون أن يدري، غيَّر بلدة أريليانا".

تمنَّيتُ ليلة سعيدة لنينا، لكنها كانت قد غرقت في النوم، لقد توتَّرتْ كثيراً ذلك اليوم.

(33) أي من المطبخ المحلِّيِّ لمقاطعة بازيليكاتا، لوكانيا سابقاً.

.30

صبيحة اليوم التالي، سمع الجَدُّ الخبرَ في نشرة الأخبار المحلِّيَّة الأولى، وجاءت الجَدَّة، لتُوقِظَنا. كان قد وصل إلى روتولانو عشرة أجانب آخرين. وجدتْهم الشرطة المحلِّيَّة بينما كانوا يمشون على حافَّة الطريق المؤدِّية إلى مدينة فوجّا.

إذاً فإن الرَّاباتورتيِّيْن والكاباتسابّونيِّيْن كانوا على حقٍّ: سيصل الكثير منهم. إنه شيء لا يمكن تفاديه.

لم نذهب للمزرعة ذاك الصباح، فالجميع قصد البلدية، لذا ذهبنا إلى هناك نحن أيضاً.

عندما وصلْنا، كان ابن عمِّنا، رئيس البلدية، واقفاً أمام باب المبنى. كان من الواضح أنه خائف، فقد تجمَّع لأوَّل مرَّة في الخارج العديد من عمَّال العمِّ روكّو، وكانوا يحملون هِرَاوَاتِهم ومَذَارِيهم في وضح النهار، تلك التي عادة ما كانوا يتسلَّحون بها في أثناء دوريَّاتهم اللَّيليَّة.

اقتربت الرَّاباتورتيَّة من الباب، وهدَّدت نينوتشو (رئيس البلدية) بهِرَاوَة، تحملها بيدها: "لن ننتخبَكَ ثانية أبداً، سترى كيف سيأتي آخرون منهم إلى هنا. عليكَ أن تطردَهم واحداً واحداً، وفي الحال. وهكذا سيُدركون أنهم لن يجدوا مأوى لهم هنا، وإلَّا سنطردهم نحن"، ورُفِعَت الهِرَاوَة.

لم يعرف نينوتشو بماذا يُجيب، لذا دخل وصَفَقَ الباب وراءه.

في الليلة التالية، خرجتْ من بين الحقول إلى البلدة مجموعة كبيرة من الناس. في البداية كان يتقدَّمهم الكاباتسابّونيُّون والرَّاباتورتيُّون فقط. ثمَّ بدأ عددهم يزداد أكثر فأكثر. من الواضح أن الكبار يريدون أن يفعلوا بالمُهاجرين مثلما فعل ريفِهْ مع جوش تماماً.

كانت الجَدَّة قلقة، بينما لم يكن الجَدُّ كذلك. قال: "إن ما يحدث الآن، يشبه ما كان يحدث أيَّام شبابه، فلم يكن يمضي يوم من دون دوريات ليلية".

كانت البلدة كلها مستعدَّة لردّةَ فعل العمِّ روكّو على أعمال مزرعة روزي، لكنه لاذ بالصمت.

حتَّى الكثيرين من أولئك الذين عاشوا دائماً على أكتاف الدولة، اختاروا النزول إلى ما وراء السهل، لغرس وزرع الطماطم والزعفران. كانت تلك الأرض التي تقع على مستوى البرج تتألَّف من أربعين هكتاراً مبقَّعة بقَلَنْسُوَات بيضاء، ورائحة الرَّوْث تصل حتَّى إلى أعلى البرج.

فُتِحَت أبواب بيت الجَدَّة مجدَّداً لأيِّ شخص يريد الدخول، كما كانت من قبل. وهذا كان من أجمل الأشياء بالنسبة إليَّ ولـ نينا. فتلك الأيَّام كانت عيداً دائماً لنا. كنَّا حتَّى لا نغلق الباب، وبإمكان أيِّ شخص الدخول والخروج وقتما يشاء، إذ كان مأوى للجميع. كان العشاء يُقدَّم دائماً في غرفة الطعام، ولم يكن ممكنا بأيِّ حال معرفة كم سيكون العدد. لحسن الحظِّ، كان يوجد في مخزن الجَدَّيْن لوح خشبيّ كبير مع مساند. في البداية، كنَّا ننقله جيئة وذهاباً، ثمَّ سرعان ما تركناه في مكانه (في غرفة الطعام). بينما في النهار، كان الجميع يتناولون الطعام معاً في المزرعة.

سارت الأمور على هذا المنوال لغاية عطلة منتصف آب.

كنَّا نحن الأطفال سعداء، لأن تلك الأيَّام هي أيَّام أعياد جميلة، وقبل حلول الخامس عشر من آب، كان الذُّكُور يتنكَّرون بهيئة ثيران، ثمَّ يحملون أجراساً في أعناقهم، ويقودون موكباً عبر شوارع أريليانا، ويطرقون أبواب البيوت طلباً للطعام والنبيذ. صبيحة يوم الرابع عشر من آب، كانت البلدة كلّها تذهب إلى غابة كيانوزا، حيث يقطع الرجال شَجَرَتَيْن ضخمَتَيْن من قاعدَتَيْهما، تكون إحداهما الذَّكَر، والأخرى الأصغر حجماً الأُنثى، ثمَّ يتمثَّلون رقصة بين الجذعَيْن، تحاكي عملية الجماع، متوسِّمين بذلك عيد الخصوبة، وهو تقليد من غابر الأزمان.

ويُقام مهرجان الألعاب النَّاريَّة منتصف شهر آب ، وينبغي على الجميع، حسب العُرْف في أريليانا، فرقعة أكبر كمِّيَّة ممكنة من المفرقعات، ليُساهمَ كل واحد منهم بقذائفه ومفرقعاته، في قَتْل إبليس، وطالما الأمر يتعلَّق بقَتْل إبليس، فكلّ شيء مُباح.

كنتُ أحبُّ كثيراً عيد منتصف آب، فليس هناك ما هو أجمل من قَتْل إبليس، فهو لا يُوفِّر فرصة واحدة إلَّا ويستقوي عليَّ حين تُصيبني الكآبة، وهذا كله لأنني ما زلتُ طفلاً صغيراً. لكنْ، حالما أكبر، سأُلقِّنه درساً!

وهكذا ذهب الجميع لشراء الصواعق، والمتفجِّرات، وقنابل على شكل البصل، وأسهمٍ نارية، وأقراصٍ متعدِّدة الانفجارات، وقذائف صاروخية، ونوافير ساطعة، وتريك وتراك، وسبطانات وقنابل اتِّساعية: لا بأس بأيِّ شيء ينفجر. نظَّم الكبار رحلات إلى ماتيرا، ووصل بعضهم إلى باري، وكان الرَّاباتورتيُّون يقولون كل عام إنهم سيذهبون إلى نابولي لشراء مفرقعاتهم، ورغم عدم جدِّيَّتهم، والناس يتظاهرون أنهم يُصدِّقونهم. يجب الاعتراف على أيِّ حال، أن الشيء الوحيد الذي يُتقنه الرَّاباتورتيُّون جيِّداً هو تفجير المفرقعات.

أنا لم أذهب إلى أيِّ مكان، ولا حتَّى إلى ماتيرا، لأن الجَدَّيْن كانا يزعمان أنني صغير

جدَّاً، وأبَوَاي لن يسمحا لي بالذهاب حتَّى مع دومينيكو، الذي يُوفِّر النقود طيلة العام، وفي صباح اليوم الرابع عشر من آب، يستقلُّ الحافلة، ليكون أوَّل مَنْ يدخل متجر الألعاب النَّاريَّة في الساعة التاسعة صباحاً.

لكن نقود دومينيكو كانت قليلة دائماً رغم أنه كان يجمعها مع إنتسوتشو. وكحدٍّ أقصى، كانت تكفيهما لشراء الصواريخ المصفِّرة، والأسهم النَّاريَّة التي تترك وراءها أثراً قصيراً، وتنطفئ على الفور، والكثير من مفرقعات الماغنوم، التي تنفجر بقوَّة هائلة، لدرجة أنه في إحدى المرَّات انفجرت واحدة منها داخل مقهى بيبّينو، وأدَّت إلى إصابة العمِّ فينتشينسينو بِصَمَمٍ دائمٍ.

حتَّى نينوتشو، رئيس البلدية ابن عمِّنا، كان يذهب شخصيَّاً إلى ماتيرا، ليشتريَ الألعاب النَّاريَّة للبلدية: كانت جميلة، ولكنها ليس كتلك التي كان يجلبها الرَّاباتورتيُّون.

قرَّرْنا، أنا ونينا والتوأم وريفِهْ ودومينيكو والآخرون صعود التَّلِّ إلى مزرعة روزي. جاء معنا جوش أيضاً، بعد أن أصبح هو وريفِهْ صديقَيْن مقرَّبَيْن. الأيَّام التي أمضيناها معاً لتجديد المزرعة، جعلتْنا لا ننفصل عن بعض.

نينا والتوأم كانوا قد نظَّموا كلّ شيء من أجل أن يبقى العمُّ سلفاتور في الساحة مع بيبّينو. وذهبْنا، أنا وريفِهْ وجوش، إلى أعمام جوش، لنطلبَ الإذن له، كي لا يتناولَ الطعام معهم في الكوخ عند ينبوع ماريا بامبينا، حيث كانوا سيُمضون ليلة منتصف آب، مع أنهم كانوا سيَشوون اللحم هذه المرَّة حسب عاداتهم، وجوش يُحبُّ الشواء كثيراً.

كنتُ أنا وريفِهْ مَنْ فكَّر بالذهاب إلى المزرعة، المكان الأجمل في أريليانا كلّها لرؤية الألعاب النَّاريَّة. فالحقول مظلمة، ومن الوادي تُرَى مسارات الضوء التي تُشكِّلها

الأسهم النَّاريَّة في أثناء انطلاقها من الساحة ورجوعها إلى الأرض. كان دومينيكو وإنتسوتشو يملكان بعض النقود الزائدة من السنوات السابقة، فاشتريا بعض الصواريخ النَّاريَّة الطويلة التي لا تنطفِئ بسرعة، والتي تبدو وكأنها صواريخ حقيقية.

كان جوش وريفِهْ قد تناولا الطعام في ذلك المساء في بيت جَدَّيَّ.

ثمَّ صَعِدْنا إلى المزرعة معاً. كان الجَدَّان، مع الرجال الآخرين، سيظلُّون في الساحة، أو في الساحة العليا، وسيتمتَّعون برؤية الألعاب النَّاريَّة من هناك.

خرجْنا من البلدة على شكل رتل هنود حمر، يتقدَّمه دومينيكو، مع المصابيح والولَّاعات، وبدأنا نسير على الطريق الرئيسة حَذِرِيْن من السَّيَّارات التي عادة ما تسير بسرعة عالية في أثناء الليل في أريليانا، وتُصدر إطاراتُها زعيقاً حادَّاً على المنعطفات، ثمَّ عبرنا الجسر الممتدَّ فوق السَّيْل. كانت هناك رياح باردة ونقية تداعب شُعُورنا. بعد الجسر، سلكْنا الدرب التُّرابيَّ الذي يصعد من الوادي إلى تلِّ المزرعة. حتَّى وقت قريب، كانت الأعشاب الضَّارَّة تنمو على جانبَي الطريق بارتفاع مترَيْن، أمَّا الآن، فقد أُزيلَت بالحصَّادةِ، والأرض المحروثة تعبق برائحة طازجة وطيِّبة.

توقَّفْنا في الفُسْحَة أمام المزرعة، ومن خلفنا البوَّابة المفتوحة مع يافطة "مزرعة روزي".

جلسْنا على العشب جنباً إلى جنب.

كان يُرَى من بعيد برج أريليانا المضاء.

ثمَّ بدأت المفرقعات الأولى: جافَّة دون ضوء. بوم – بوم – بوم ... ها قد بدأت

الحفلة.

تلتْها مباشرة المظلَّاتُ الملوَّنة الأولى والورود الملتهبة: كان خطُّ الضوء ينطلق نحو الأعلى، ويلي ذلك صمت، ثمَّ تتفتَّح المظلَّة في السماء في ألف لون، وحينها فقط يصل الدَّوِيُّ الأصمُّ: دووووم. بينما تضيء وردة النار الحقول. تا – را – تا – را – تا – را – تا – را – تا – را – تا – را - تاااا.

كانت السماء شديدة السواد، صافية ومزدانة بالنجوم، بعد أن نظَّفتْها الرياح من الغيوم.

حين تنطلق القذائف، والورود الملتهبة أو المطر اللَّامع، تصبح السماء مضيئة كما النهار: لم يكن للأشياء السَّيِّئة وجود أبداً، وكان بإمكاننا معا أن نهزمَ ذلك المُقْرِن إبليس.

"الريح تجعل المنظر أكثر إثارة في هذا المكان"، قال دومينيكو، "لأن الألعاب النَّاريَّة تتَّسع هنا، وتتضخَّم أكثر". كان كلامه هذا صحيحاً.

"انتبهْ، لعلَّها تقع فوق رأسكَ"، قال ريفِهْ.

كنَّا مذهولين وأفواهنا منفرجة ونحن نُحدِّق في الخَوَاء، عدَّة بُلهاء مصطفِّين بعضهم جنب بعض، إلى أن نهض دومينيكو، وقال لـ نينا: "ماذا نفعل، إذنْ، يا نينا؟ هل نبدأ نحن أيضاً؟".

قفزت نينا على الفور سعيدة، ثمَّ انضمَّ لها التوأم وباسكوينا، وبدأ الثلاثة معاً بالقفز والصخب.

فتح دومينيكو الأكياس، وبدأ بالتحضيرات مع إنتسوتشو.

زرعوا الصواريخ على الأرض، وربطوا جميع أسلاك مفرقعات التريك - تراك بعضها ببعض حتَّى تدوم فرقعتها طويلاً.

ثمَّ وزَّعوا مفرقعات الماغنوم والولَّاعات على الذُّكُور، وأعطوا للإناث مفرقعات "نجوم الليل"، التي تُصدِر صوتاً كالفُسَاء تقريباً، ومع ذلك كنَّ سعيدات.

لم يشأ جوش إطلاق صاروخ الماغنوم، كان مأخوذاً من الدهشة، ويسدُّ أُذنَيْه. حسب رأيي، كان يفكِّر ببلده، فقد أصبح حزيناً فجأة.

حينها، وضعت نينا يدها على كتفه، رغم أنها تصغره سنَّاً، وطلبت منه ألَّا يقلق، فلم تكن تلك حرباً حقيقية، لكنها معركة ضدَّ إبليس، وإذا ما هزمْناه، ستنتهي، فيما بعد، الحروب الحقيقية.

هزَّ جوش رأسه، وكان يعني أنه لا يُصدِّق ذلك. وفي حين كان كلّ من دومينيكو وإنتسوتشو يتهيَّآن لِلَعِبِ دورهما في صخب الألعاب النَّاريَّة، نهض جوش، ومشى، مُصدِراً صوت صرير من حصى الفناء تحت قَدَمَيْه، وتجاوز بوَّابة مزرعة روزي: بدا واضحاً أنه يريد أن يبقى بمفرده.

أنا وريفِهْ رأيناه يبتعد، ثمَّ أشعل دومينيكو أوَّل الصواريخ المُصَفِّرة، وقال لريفِهْ: "أَطلِقْ أحد صواريخ الماغنوم!"، لم يدعْهُ ريفِهْ يُكرِّر كلامه مرَّتَيْن، أشعل المفرقعة، وأمسكها بيده، وألقى بها في الوادي وهي في طورها الأخير فقط: انفجرت المفرقعة في الهواء، وأصدرت دَوِيَّاً هائلاً.

عندئذ، أطلق دومينيكو سهماً ناريَّاً، فسطع كل شيء بضوء أحمر هائل.

بين انفجار وآخر، كانت تُسمَع خطوات جوش.

ناداه ريفِهْ: "جو، إلى أين تذهب؟ تعال إلى هنا، لنستمتع بالألعاب النَّاريَّة، إنه منظر جميل!".

لكن جوش واصل السَّيْر نحو الجزء الخلفي من المزرعة، حيث يمكن رؤية الطرف الآخر من الوادي، وامتداد أراضينا الجديدة، مستقبل أبي ومستقبلنا أيضاً. في البعيد،

التمعت بلدة روتولانو وبلدة غلافيانو مثل اليراعات.

أشعلْنا كل ما بحوزتنا، فانتشرت رائحة البارود في كل مكان: وجب علينا أن نضمَّ مفرقعاتنا المُصَفِّرة إلى مفرقعات الرَّاباتورتيِّيْن والبلدية وكل الآخرين في البلدة، والقيام بواجبنا على أكمل وجه ضدَّ ذلك الوغد إبليس.

اسودَّت يَدَاي برماد البارود.

حين استدرتُ، لم أر نينا، بينما التوأم وباسكوينا كنَّ هناك، مع "نجوم الليل" في أيديهنَّ. بحثتُ عن نينا، ولم أعثر عليها. أدرك ريفِهْ على الفور، الذي كان مأخوذاً بالألعاب النَّاريَّة، ما كنتُ أبحث عنه، فغمزَني مشيراً بذقنه إلى خلف المزرعة. ثمَّ أشعل دفعة أخرى من التريك -تراك.

عبرتُ البوَّابة، وذهبت لأستطلعَ الأمر.

انعطفتُ من زاوية المزرعة، حيث الهيكل الخشبي للإسطبلات. كان ثمَّة رائحة بنزين، فكَّرت أنها قادمة من الجرَّارات والحصَّادات المتوقِّفة في الهنغار المجاور.

اقتربتُ ببُطء، فرأيتُهما ملتحِئَيْن خلف درابزين الشرفة.

كان جوش جالساً على الدرجة الأولى تحت الرواق، ورأسه بين يَدَيْه، ونينا واقفة على العشب، أمامه، تنظر إليه بصمت. ربَّما لم يكن يشعر حتَّى بوجودها. كانت العَتْمَة والطريق التُّرابيَّة الواسعة، التي تنفصل عن الطريق الإقليمية، وتصل إلى المزرعة، تمتدُّ من خلف كتفَي نينا.

مَنْ يدري ماذا تخيَّلتُ؟!

عدتُ إلى الآخرين، لنُنهي إشعال بقية المفرقعات.

لفحَني فجأة هواء ساخن في وجهي. بقي دومينيكو مع سهم صافر مُطفإٍ في يده، بينما إنتسوتشو يشير بيده نحو البعيد، نحو الحقول.

قال ريفِهْ: " اللعنة، ما هذا؟".

حينها، وفي منتصف ورود النار والمظلَّات التي كانت تنطلق من الساحة، وتضيء السماء، اندفعْنا أنا وريفِهْ ودومينيكو وإنتسوتشو نحو الأسفل عبر امتداد العشب الذي يحيط بالمزرعة. أردْنا استطلاع الأمر.

ركضْنا، ولم يتمكَّن أحدنا من الكلام بسبب اللُّهَاث.

في البعيد، كان منظر الأرض التي تحترق أمامنا رهيباً.

كانت الحرائق لا تزال مُنخفضة، ولكنها مُوزَّعة على كلّ الأراضي، تقتفي مجرى السَّيْل.

"إنهم يُشعلون النار! إنهم يُشعلون النار!"، صرخ دومينيكو، بينما كنَّا نُتابع الجري نحو الأسفل، وكان الهواء الساخن للقَشِّ يحرق جوف أنوفنا.

اضطررْنا للوقوف بعد بضعة أمتار: كانت الريح قوية واللهب يرتفع ويتقدَّم بسرعة مُذهلة.

كان الحريق يلتهم الأرض كلها.

"أشجار الجوز ..."، قال ريفِهْ. "أشجار الجوز ..."، وأشار إليها.

كل شيء يحترق.

ليس أشجار الجوز فحسب، ولكنْ، الكروم وأشجار الزيتون والزعفران أيضاً، كل شيء، إنه الجحيم بعينه.

"إنه إبليس"، قلتُ أنا، "لقد أتى إبليس، لينتقمَ منَّا".

كان بحراً لا نهاية له من البرق الأحمر، بحر ضربتْهُ عاصفة مخيفة.

والألعاب النَّاريَّة تضيء السماء على فترات متقطِّعة بموجات حمراء وصفراء وبيضاء.

سمعْنا في تلك اللحظة انفجاراً هائلاً، كما لو أن شجرة انفلقت إلى نصفَيْن، أو كانفجار قنبلة.

جاء صوت الانفجار من قمَّة التَّلِّ، ونحن في أسفل الوادي الآن، نُعاين ما حلَّ بالمزرعة.

صَعِدْنا بسرعة.

وبينما أركض، لم أكن أفكِّر بشيء، كنتُ أملك في داخلي وجه نينا فقط وأنفاسها داخل أنفاسي، كما نفعل عندما ننام ممسكَيْن بيَدَي بعضنا البعض.

وصلتُ أمام يافطة مزرعة روزي، ماشياً على الحصى.

أتت من الخلف حرارة عالية جدَّاً، ومن وراء المبنى، ومن البعيد أيضاً، كانت الأراضي تحترق.

نظرتُ في كل مكان، ورأيتُ في إحدى الزوايا فاليريا وشقيقتها تحتضنان باسكوينا: كنَّ يبكينَ بحُرْقَة، ولا يعرفنَ ماذا يفعلنَ. ناديتُ نينا بكل ما أُوتيتُ من قوَّة.

"نينا! نينااا!"، لكن صرختي ضاعت بين أصوات المفرقعات القادمة من أريليانا.

عندئذ، هُرعتُ إلى آخر المزرعة، حيث رأيتُها مع جوش. لم أكن مَنْ يركض، بل قوَّة خفية تشدُّني. لم تهنْ عزيمتي، ولم ألهث، كنتُ لا أُقهَر.

نظرتُ إلى الشرفة خلف الدرابزين، لكني لم أجد أثراً لنينا وجوش.

ثمَّة أراض تحترق فحسب.

انتابني رُعب عميق، لدرجة عجزتُ فيها عن شرحه، أعرف فقط أن قَدَمَيَّ بدأتا تنغرسان في الأرض، ثمَّ تبعهما الكعبان، فالساقان، ثمَّ الخصر والكتفان، رأسي فقط بقي في الخارج، ولم يعد بإمكاني أن أتحرَّك.

فجأة، حدث انفجار آخر، أكثر قوَّة، وأكثر قُرباً: دَوِيٌّ قويٌّ جدًّاً.

استدرتُ، فرأيتُ أنه انهيار الجانب الأيمن من المزرعة، حيث توجد الإسطبلات التي التهمتْها النيران بالكامل. هناك، كان كل شيء من خشب، اشتعلت النيران في السقف، وأُضيء الحقل كأنه النهار.

كانت الأبقار والأغنام الحبيسة داخل الحظائر تُطلق صرخات يائسة.

لم يكن بوسعي التَّحرُّك بعد الآن. النيران تلتهم كل شيء.

الجِلْد يحترق، والريح تذرُّ الرماد في العيون.

بإمكاني القيام بشيء واحد فقط. جاهدتُ وقرَّبتُ يدي من صدري، ولمستُ الكيس الصغير الذي يحوي قُصَاصَة الصورة، في رقبتي. شعرتُ حينها أن ذراعاً تسحبُني.

إنه ريفِهْ، أمسكني وجرَّني نحو فناء المزرعة. تركَني هناك واقفاً، وركض ليفتحَ باب الحظيرة، لكنه كان مُقفَلاً.

ارتفعت ألسنة اللهب مرَّة أخرى، وعند هذا الحَدِّ، لم يبقَ شيء غير مُضاء، وكان واضحاً أنها النهاية.

التوأم وإنتسوتشو ودومينيكو كانوا يصرخون: "نينا!!!! جووووش!"، لكنْ، لا حياة لمَنْ تنادي.

صاح ريفِهْ: "سأقوم بجولة في الخلف"، ثمَّ اختفى، وبعد بُرْهَة ظهر من الجانب

الآخر للمزرعة.

بعد فترة سمعْناه يصيح:

"ها هم! ها هم!".

التفتْنا جميعاً نحو تلك الجهة، ورأيناهما.

كان جوش يحمل نينا بين ذراعَيْه.

كانا قد احتميا داخل سقيفة الصفيح المعدنية للجرَّارات والحصَّادات.

ركضْنا كما لم نركض أبداً في حياتنا، منحدرين إلى الأسفل، عبر الطريق التُّرابيَّة، في وسط الأراضي تماماً، التي كانت تحترق، ثمَّ أخيراً الطريق الإسفلتية الإقليمية.

دومينيكو في المقدِّمة، يليه ريفِهْ، ثمَّ أنا ونينا وجوش والآخرون.

كنَّا نركض بكلّ ما أُوتينا من قوَّة، لدرجة أننا كنَّا لا نشعر بشيء، سوى بخفقان القلب في الصدر. كانت الحرارة في وسط النار خانقة، تحرق جلودنا، والسخام يلتصق في حُلُوقنا ويمنعنا من التَّنفُّس.

على الطريق العامَّة، في الاتِّجاه المعاكس، كانت السَّيَّارات القادمة من البلدة تنطلق نحو الريف. كان الناس يصرخون بلهجة لا أفهمها، كما لو أنها همهمة حيوانات خرجت عن طورها، والجميع يحملون صفائح من الماء ودلاء وأحواضاً وأوعية وأيَّ شيء.

وصلْنا إلى الجسر الحجري فوق السهل على آخر نَفَس. أصبحْنا في مأمن عند تلك النقطة، حيث يتفرَّع عن الطريق العامُّ، طريق يؤدِّي إلى البلدة.

لاحقاً، وبعد تأخير جنوني، وصلتْ عربات الإطفاء من غلافيانو. لكن الجميع كانوا قد أحضروا ما بوسعهم، وسكبوا كل ما جلبوه من مياه أريليانا على تلك النيران.

كانت ألسنة اللهب لا تزال عالية، تتنقل بسرعة كبيرة مع الريح.

وصلْنا الساحة.

اتَّكأنا على السور الحديدي، وأخذنا ننظر إلى الأسفل بصمت.

الحقول مشتعلة.

مصابيح السَّيَّارات تظهر وتختفي في المنعطفات مثل الحشرات البرَّاقة.

لم يكن أحد يتجرَّأ على الكلام.

النيران أكلت الأخضر واليابس.

بعد الكثير من الوقت، وبصوت لا يزال يتحشرج في الحَلْق، قال جوش شيئاً ما.

"كان هناك سيَّارة سوداء". لم يجبْ أحد! "سيَّارة سوداء، و رائحة بنزين أيضاً". شممتُ هذه الرائحة أنا أيضاً، خلف المزرعة.

تحدَّثت نينا أيضاً، دون أن تحيدَ بعينَيْها عن الحقول التي تلتهمها النيران.

"لقد أتت سيَّارة سوداء"، قالت نينا بصوت خافت، "نزل منها مجموعة من الأشخاص، واتَّجهوا نحو الإسطبل. ثمَّ عادوا، استقلّوا السَّيَّارة، وغادروا المكان. كانت هناك رائحة بنزين قوية".

.31

لم يتوقَّف دخول وخروج الناس إلى المطبخ والصالون طوال الليل.

جميعهم: رئيس البلدية والمساعد أوَّل والدكتور فيتّي يريدون التَّحدُّث إلى جَدِّي.

حاولت جَدَّتي كل شيء، لكن الجَدَّ أغلق على نفسه باب غرفة النوم، ولم يرغبْ في رؤية أحد. طَرقَتْ الجَدَّة الباب ألف مرَّة، ثمَّ ألف مرَّة أخرى لتراه: كان دائماً مستلقياً، يُحدِّق في السقف والضوء منار. كان يبدو وكأنه ميّت، وهي تُكلِّمه، وتُخبره عن الزيارات، وتجلب له القهوة الساخنة، لكنه لم يكن حتَّى يجيب.

عندما استيقظتُ في الصباح، كانت الساعة تشير إلى العاشرة تقريباً، وكانت نينا قد نزلت إلى المطبخ.

بدأتُ أبحث في الخزانة و الكمودينة، وفي جميع الأدراج، علَّه يكون هناك، صدفةً، النصف الآخر من قُصَاصَة الصورة التي أنقذتْني من الحريق. عثرتُ فقط على منديل قديم مستخدَم ومتصلِّب، لا بُدَّ أنه لجَدِّي. عندئذ نزلتُ أنا أيضاً، كان أبي في المطبخ جالساً على كرسيِّ الجَدَّة، وهو أمر غريب! فلا أحد، عداي وعدا الجَدَّة، يمكنه الجلوس على ذلك الكرسيِّ.

في يد أبي فنجان قهوة بالحليب وهو يتملَّى الفراغ، يهزُّ رأسه ويردِّد بصوت خفيض "هذا غير ممكن ... غير ممكن ... مرَّة أخرى في ليلة منتصف آب ... هذا ليس ممكناً".

فتحتْ الجَدَّة خزانة المطبخ، لكن البسكويت كان قد نفد. عندها، ذهبتْ إلى المستودع، لتجلبَ بعضاً منه.

وهي تهمُّ بالخروج، وصل الدكتور فيتّي. " نقلهم الإسعاف إلى مستشفى ماتيرا"، قال، "واحد منهم فقط حالته خطيرة: لديه كسر في الجمجمة وثلاثة أضلاع مكسورة".

ثمَّ صَعِدَ، قرع على باب غرفة الجَدَّيْن، وعرَّف عن نفسه. كان الوحيد الذي سمح له الجَدُّ بالدخول.

"مَنْ؟"، سألتْ نينا، لكن أبي لم يشأ الإجابة. كنَّا، بالنسبة إليه، أطفالاً، ولا يمكننا أن نستوعبَ ما حصل.

عندما عادت الجَدَّة، بالبسكويت الملفوف في منديل، سألناها ما الذي يعنيه فيتّي، فمن المؤكَّد أنها كانت تعرف كل شيء. لكنْ، وبما أن أبي قال "لا شيء"، فقد عاملتْنا الجَدَّة كأطفال صغار، أعطتْنا البسكويت، وكفى.

اغتسلْنا قليلاً وبسرعة، فلا أحد سيُلاحظنا في ذلك اليوم (أُمِّي فقط، خلال كل أوقاتنا في الحمَّام، لم تتوقَّف عن الغمغمة "اغسلوا وجوهكم جيِّداً، والأُذنَيْن، وكذلك الرقبة، في الليلة الفائتة توسَّختُم بالسَّخَم". كادت أُمِّي أن تُصاب بجلطة في الليلة الفائتة، عندما رأت النيران، ولبُرْهَة كاد أن يُغمَى عليها خوفاً من أن يصيبَنا مكروه ما)، ثمَّ خرجْنا وذهبْنا إلى مقهى بيبّينو، لأنه إذا أردتَ أن تعرف شيئاً، فما عليكَ إلَّا أن تذهب إلى هناك.

وبالفعل حصلْنا على ما نبتغيه، فقد كانوا هناك لا يتكلَّمون سوى عن هذا الموضوع: في الليل، بعد أن احترقت الأراضي والمزرعة، قامت مجموعة من الأشخاص بنصب كمين للأجانب في أثناء عودتهم من الحقول، بعد أن ساعدوا، مثل الجميع، في إطفاء النار.

أخذوهم إلى زقاق مسدود، وانهالوا عليهم ضرباً بالعصي.

السِّتَّة جميعهم، بمَنْ فيهم النساء.

الشُّبَّان منهم قاوموا، لكنهم لم يُسبِّبوا إلَّا في ازدياد الوضع سوءاً فحسب، وواحد منهم يصارع الموت في المستشفى. لقد ضربوهم وهم يُردِّدون أهازيج تُحرِّض على العنف، أهازيج ضدَّ المهاجرين. حتَّى النساء تعرَّضنَ للضرب، لكنْ، لحسن الحظِّ،

تمكَّنَّ من العودة لمنزل لوبيانو.

لم يكن أحد يفكِّر بعدالة الأمر: كان الجميع في مقهى بيبّينو مقتنعون بأن مَنْ حرق الحقول هم الأجانب.

لا بُدَّ من كبش فداء، لأن المصيبة لا تأتي من تلقاء نفسها، هناك دائماً مَنْ يأتي بها.

خرجْنا أنا ونينا من المقهى، ووقفْنا في مكان يطلُّ على الساحة.

لم تعد الأرض وراء السَّيْل خضراء وصفراء، بل أصبحت سوداء، ولا يزال يتصاعد منها الدخان. كانت مثل موقد كبير، خمد للتَّوِّ جمرهُ المكوَّن من كل ما زُرِع من عنب وقمح وجوز وزيتون وزعفران.

المزرعة أيضاً دُمِّرَتْ. ما لم يفعله الزمن، فعلتْهُ النار في ليلة واحدة. كان لا يزال هناك جدران حجرية، لكن السقف والأبواب والنوافذ اختفت، ولم يعد هناك لا حظيرة للتبن ولا إسطبل ولا حتَّى حيوانات. ومن الجرَّارات والحصَّادات، بقيت هياكل متفحِّمة، يصعد منها الدخان، وكلّ ما حولها خراب.

أنا ونينا لم نعرف أين نذهب.

لذا صَعِدْنا البرج الذي لا أحد يعرف ما شهده عبر القرون؟ ولم يتكلَّم أبداً.

تسلَّقناه.

داخل الغرفة الكبيرة، في الطابق الأوَّل، وجدنا هناك ريفِهْ والتوأم وجوش جالسين على الأرض: كانت قد خطرت لهم نفس فكرتنا.

انفجرنا ضاحكين جميعاً، وعلى الأقلِّ خَفَّتْ كآبتُنا قليلاً.

بعدها بيومَيْن سمعنا صفَّارات إنذار رجال الشرطة، فهُرعنا نحن الصغار خارج منازلنا، حيث كنَّا نعتزل: فلم يكن أحد يرغب باللعب بعد الحريق. الجَدَّة أيضاً هُرعت خارج المَتجَر لمعرفة ما يحدث. ورويداً رويداً، هُرع خارجاً كل مَنْ في الجوار.

كانت هنالك ثلاث سيَّارات، سيَّارة المساعد أوَّل أومبرتو وأُخريَيْن لزملاء له أتوا من ماتيرا.

توقَّفوا في الساحة الصغيرة أمام قصر القاضي لوبيانو، وأطفؤوا صفَّارات الإنذار.

نزل منها ستَّة عناصر، مطرقي الرؤوس وأيديهم على مسدَّساتهم. وبينما كان ريفِهْ يحملق بهم، نظر دومينيكو إليهم بتَحدٍّ وهو مستند إلى الجدار. كان جوش يجلس القُرْفُصَاء بالقُرب من منزل الكاباتسابّونيِّيْن، الذين يسكنون الساحة الصغيرة نفسها، ونينا وباسكوينا تقرضان أظافرهما، أمَّا التوأم، فكانتا في البيت، وكنّ يجهلنَ ما يدور هناك.

قرع الدَّرَك على البوَّابة بلطف. انتظروا قليلاً، ثمَّ دخلوا سِتَّتَهُم معاً. في هذه الأثناء، تجمَّع الكثير من الناس هناك، وكل واحد منهم كان يُدلي بتصريحاته.

بعد عشر دقائق، خرج رجال الدَّرَك.

أومبرتو في المؤخِّرة، وفي الوسط النسوة الأجنبيات يمشينَ برؤوس مطأطئة، واحدة تلو الأخرى، وأيديهنَّ مقيَّدة بالكَلَبْشات. كانت العجوز تبكي، لقد عادت كما كانت، سُلَحْفَاة عجوز منهارة، الشَّابَّتان مُلازِمتان الصمت. انقبض قلبي لمظهر العجوز ذلك، حسبتُها لا تُقهَر، لكن ما حصل كان شديد الوطأة عليها.

ثمَّ، بسرعة، وضع أحد رجال الدَّرَك يده على رأسها، ودفعها إلى داخل السَّيَّارة. وفعل الشيء نفسه مع الشَّابَّتَيْن. ثمَّ شغَّلوا صافرات الإنذار، وانطلقوا.

بدأت امرأة من الرَّاباتورتيِّيْن، واقفة في الخلف، تروي ما حدث: "ذلك الصباح، بعد

الفجر بقليل، ذهب رجال الدَّرَك إلى حقل العمِّ روكّو، وألقوا القبض على الأجنبي الوحيد الذي لم ينتهِ إلى المستشفى. بينما وضعوا الجرحى تحت حراسة شرطيٍّ يقف خارج قسم الإنعاش". هزَّ الحاضرون رؤوسهم، بدوا راضين.

"لقد أخذت العدالة مجراها"، قالت الرَّاباتورتيَّة.

"لقد نالوا جزاءَهم"، قال أحد الكاباتسابّونيِّيْن.

لم يتكلَّم أحد آخر.

نحن الأولاد، تبادلْنا النظرات: لماذا الكبار يبدون أغبياء إلى هذا الحَدِّ؟

كل القرية تعرف أن الأجانب في تلك الليلة كانوا في الكوخ الحجري لنافورة ماريا بامبينا، في الجهة الأخرى من البلدة، يَشوون اللحم. وإذا كان هناك مَنْ ليس له علاقة بالحريق، فسيكونون هم بالتأكيد.

"فلنذهب حالاً، ولنُخبر رئيس البلدية والمساعد أوَّل عن تلك السَّيَّارة التي كانت خلف المزرعة! يمكن أن تكون سيَّارة العمِّ روكّو! ثمَّ رائحة البنزين. من المؤكَّد أن الأجانب لا علاقة لهم بالأمر!"، قالت نينا.

"هُسْ!" لكزتُها. عندما ذكرت اسم العمّ روكّو، التفت الجميع ينظرون إليها. رفعتْ نينا ذقنها، كما لو أنها تقول: فليهتمُّوا بأنفسهم.

هزَّ جوش رأسه، "ليس لدينا دليل"، قال بصوت خفيض.

"لكن أقاربكَ ليس لديهم سيَّارة"، أجابت نينا.

"هذا فقط ما رأيناه أنا وأنتِ"، قال جوش متفادِياً النظر إلى عينَيْها.

"ولماذا يجب أن نكذب؟!".

"نحن بحاجة إلى أدلَّة حقيقية، وإلَّا سوف لن يصغوا لأقوالنا أبداً"، قال دومينيكو.

وبالفعل، هذا ما حصل.

.32

منذُ إلقاء القبض على أقاربه، بدأت الوحدة تعتصر جوش.

حتَّى إنه كاد أن يصبح مختلَّاً، وبدأت تُراوده أفكار مثل: طالما وصلت الأمور هذا الحَدِّ، فمن الأفضل لو يدخل السجن، وهكذا ينسى كل شيء.

لحسن الحظِّ، كنَّا هناك لنحميَهُ. فلم يكن ينقصنا إلَّا أن يقوم المجانين من الكاباتسابّونيِّيْن والرَّاباتورتيِّيْن باقتياده إلى أحد الأزقَّة وضربه حتَّى الموت.

كل ما نقوم به كان بالتنسيق بيننا، دومينيكو وإنتسوتشو والآخرين، بما في ذلك الإناث: كنَّا على الأقلِّ نرافقه، فنكون أقلَّ قلقاً عليه.

مع ذلك، فإن عقله، في الحقيقة، بات مشوَّشاً، فقد بدأ يتتبَّع أثر العمِّ روكّو.

كان يتمركز في الساحة، وعندما يرى العمَّ روكّو قادماً، سواء مشياً على الأقدام أو بسيَّارته المازاراتي، كان يحاول اللحاق به. لقد فَقَدَ عقله تماماً. ثمَّ بدأ جوش يقول إنه، في إحدى الأُمسيَّات، فَقَدَ آثر العمِّ روكّو في ساحة الساعة، وبعد قليل رأى أربعة ظلال خلف إحدى النوافذ في قصر مِنْزاسنيور. وحسب رأيه، كان ذاك العمَّ روكّو وحرَّاسه الشَّخصيِّيْن.

لم نجد طريقة لإقناعه باستحالة الأمر. كان واثقاً من أنه رآهم، وكرَّر هذا مراراً.

"نعم، وكيف لا؟!"، قال ريفِهْ، "لقد ذهبوا لسرقة أرواح الأشباح!".

"يبدو أنه من الأسهل القول إنهم خرجوا من رأسكَ"، قالت باسكوينا.

"منذُ زمن طويل، لا يعيش أحد هناك، ولا حتَّى الأشباح"، أردف دومينيكو، والذي كان يقول إنه لم يُصدِّق أبداً قصَّة مِنْزاسنيور، لكنه لم يدخل ذلك القصر أبداً.

على أيَّة حال، كان قد مضى يومان منذُ أن حبس جوش نفسه، ليلاً نهاراً، في اللَّامْيُون، تحت بيت العمَّة كونتشيتّا، مقابل قصر مِنْزاسنيور بالضبط، وكان يرفض أن يخرج.

لقد مسَّه هَوَسُ معرفة كل شيء حول موضوع الحريق.

العمُّ سلفاتور، في المقابل، كان في عالَم آخر، أكثر ممَّا هو في هذا العالَم، و يجد صعوبة حتَّى في الكلام. مَنْ يعرف أين اختفى صوته المخملي؟! فإن تكلَّم، فإنه يتكلَّم مع ويليام فقط، مع صورته المؤطَّرة؛ في النهاية، فهو يعرفه بهيئته هذه فقط.

ثمَّة صورة أخرى مُعلَّقة في تلك الغرفة، التي كانت عبارة عن مطبخ وصالة معاً، وهي صورة للعمِّ سلفاتور مع زوجته تحت جسر بروكلين، ومن خلفهما كلّ ناطحات سحاب مدينة نيويورك. لكنه كان صغيراً جدَّاً، لدرجة لا يمكن معها البتُّ إذا ما كانت صورته أم لا، إنّما يمكن التأكيد بأنه يشبهه. كان بشوشاً جدَّاً، وينضح حيوية: يحتضن بيد تلك الفتاة الخجولة، ويرفع باليد الأخرى درَّاجة سباق هوائية، كي يتباهى بنفسه ليس إلَّا. كان العمُّ سلفاتور قد مسَّتْهُ اللوثة أيضاً، ربَّما بسبب الهواء في ذلك البيت، كان يقول إن بيللي حفيده يزوره، يأتيه في الليل، ويعود صباحاً إلى أمريكا.

في صباح اليوم الثالث من تمركزه، ذهب جوش ليُحضِر ريفِهْ، ثمَّ جاءا معاً، ليجرَّاني من سريري. كان قد رأى مرَّة أخرى تحرُّكات داخل قصر مِنْزاسنيور.

"لقد حلمتَ به"، قال ريفِهْ، بينما كنتُ أتناول طعام الفطور، وكان جوش يقضي على بسكويت جدَّتي. مَنْ يعرف منذُ متى لم يأكل؟!

"أنا لم أحلم به، أقول لكم إني رأيتُهُ"، أصرَّ جوش.

"كيف رأيتَهُ في العَتْمَة ؟"، أجاب ريفِهْ.

" كانوا يحملون مصابيح يدوية، رأيتُهم خلف النافذة. ظلُّوا لبعض الوقت داخل غرفة في الطابق العلوي، ثمَّ اختفوا".

"ومَنْ هم؟"، سألتُهُ.

"الشبح فورماجينو أبو الجبن؟"، قال ريفِهْ.

"كلَّا، كانوا حقيقيِّيْن مثلي ومثلكم"، أجاب جوش، بينما الجَدَّة تصبُّ له مزيداً من الحليب. كنَّا نتكلَّم بصوت مُنخفض، كي لا ندعها تسمعنا، رغم أنها تعاني من ضعف في سمعها.

"حقيقيون؟! كيف؟! لا يمكن لأحد أن يعيش هناك، ذلك المكان مسحور".

"إنه العمُّ روكّو وحرَّاسه الشَّخصيِّيْن. أُقسم لكم بذلك"، قال جوش.

.33

كان جوش يعدُّ خطَّة لتسلُّق البوَّابة، والدخول إلى قصر مِنْزاسنيور، لكن الكثير من الناس يمرُّون من هناك، ويجب إلهاء العمَّة كونتشيتّا التي تجلس دائماً على كنبة في الرواق المقابل.

جاءت فيلومينا بحثاً عن جوش، هي والجَدَّة، لأن العمَّ سلفاتور لم يكن على ما يرام. انتشر الخبر فوراً عبر البيوت الحجرية في البلدة، امرأة من الرَّاباتورتيِّيْن كانت تتجوَّل مردِّدة: "لقد جلب الأجانبُ المرضَ، ونقلوه إلى العمِّ سلفاتور. سيقتلوننا واحداً تلو الآخر، أمراضهم معدية".

وجدوا العجوز فاقداً الوعي على الكرسيِّ، وعُكَّازه بين يَدَيْه، واعتقدوا أنه أَسلم الروح، وانقضى الأمر، لكن الأمر لم ينقضِ. فالجَدُّ، والذي كان سوداويَّاً دائماً إزاء هكذا أمور، طلب من أبي أن يذهب ويُحضِر الأب يوستاكيو، لأن الجدَّ لا يريد أن تكون له أيَّة علاقة مع الأب يوستاكيو. لكنْ، بعد ذلك، اضطرَّ القسُّ إلى العودة إلى البيت، فالعمُّ سلفاتور لم تكن لديه أيَّة رغبة في تسليم روحه. كان المزاح الثقيل يروق لذلك العجوز: حالما وصل الدكتور فيتّي، استعاد نشاطه، كما لو أن شيئاً لم يحدث. كان في منتهى الرشاقة.

عندما وصلْنا أنا وريفِهْ وجوش، كان العمُّ سلفاتور مستلقياً على السرير في الغرفة التي في الطابق الأرضي. كان هناك الدكتور فيتّي الذي طلب من الجَدَّة إعطاءه حقنة (الجَدَّة دائماً ما تعطي الحُقَنَ للجميع في البلدة)، فالدكتور فيتي طاعن في السِّنِّ، ولا يمكنه ذلك بسبب رعشة في يَدَيْه. كانت الجَدَّة أيضاً مُسِنَّة، بل أكثر منه، ولكن يَدَيْها لا ترتعشان.

"لقد أخفتُمُونا، يا عمُّ سلفاتور"، قالت الجَدَّة.

"وماذا يمكن أن يكون؟"، أجاب هو، وكان مليئاً بالحياة، متأهِّباً، يريد النهوض من السرير، لكن الجَدَّة والدكتور فيتّي منعاه من ذلك، "على الأكثر، سأقوم برحلة إلى العالَم الآخر ... لقد عملتُ في أمريكا!".

"لا، يا سيِّد!"، صرختْ جَدَّتي، فهي تعرف كيف تدير النقاش عندما يتعلَّق الأمر بالحياة، "عليكم أن تعيشوا بعدُ أكثرَ بكثير، بما أنه لديكم ولداً يجب أن ترعوه.

خاصَّة وأن جميع أقاربه في السجن"، ثمَّ هزَّت رأسها.

سعل جوش عند الباب، فمن غير المعروف إن كانوا يلوكونه بالسوء، لذا كان من الأفضل أن يعلموا أنه هناك. وبالفعل، استدارت الجَدَّة، ورأتْنا، وانتبه العمُّ سلفاتور لوجودنا، فالسُّعال أحياناً يستجلب الطالع الحسن.

"تعال، تعال إلى هنا"، قال العجوز.

كان جوش خجولاً، ومن الواضح أنه لا يرغب بالظهور أمام الجميع، ولعلَّ تلك الشيخوخة تُؤثِّر على مشاعره.

"تعال، تعال إلى هنا!"، أصرَّ العمُّ سلفاتور.

حينها، عَوَجَ جوش جسده، وذهب. عندما يخجل، يصبح أكثر اعوجاجاً. "تعال إلى هنا، تيرادّوو!"، كرَّر العمُّ سلفاتور. عند هذا الحَدِّ، انفجر ريفِهْ ضاحكاً، لأن هذا التعبير يُستخدَم لمناداة البغال. مَنْ يدري ماذا دار في رأس العمِّ سلفاتور؟ انثنى جوش على السرير، والعمُّ سلفاتور المستند على وسادة، دسَّ يده في شَعْر جوش، وبعثره. "لقد كبرتَ، يا بيللي. كيف تسير الأمور في أمريكا؟ ألا تزال جَدَّتُكَ تنتظرني هناك، إيهِ؟ أَخبِرْها أني سآتي عمَّا قريب، ينبغي عليَّ إنهاء أمر صغير هنا ... ماذا تريد أن تشرب، كازوزة؟".

"حسناً، سأُخبر جَدَّتي بذلك"، أجاب جوش. ذُهِلْنا أنا وريفِهْ، لم نكن نعرف أن هذَيْن الاثنَيْن كانا يتكلَّمان بهذه الطريقة.

" هل أخبرتَ جَدَّتَكَ أن تحفظ لي الحساء ساخناً، لأني سآتي لاحقاً؟".

"كما دائماً".

"برافو، لأنني سأنتهي من هنا قريباً. أَخبِرْ جَدَّتَكَ أن تتزيَّن، سأُرافقها هذا المساء للرقص في مانهاتن، سنقبض اليوم الراتب".

"حسناً، سأقول لها أن تتزيَّن، لأنكما ستخرجان". ذانكَ الاثنان أصابتْهما لوثة حقَّاً.

"سنتناول طعام العشاء أوَّلاً، ثمَّ إلى الرقص. سنذهب إلى مانهاتن!".

"العشاء، ثمَّ الرقص"، كرَّر ذاك اليتيم جوش، وفي هذه الأثناء، غفا العمُّ سلفاتور.

"أخيراً، سرى مفعول الحقنة"، قال الدكتور فيتّي، الذي كان لا يزال واقفاً خلف الطاولة، ويستمتع بالمشهد - إذا لم أتمكّن حقَّاً من العثور على ما يمكن أن أفعلهُ حين أكبر، فأظنُّ أنه يمكنني العملُ كطبيب، إنها مهنة ممتعة حقَّاً.

"لم يشأ أن يغفوَ"، قالت الجَدَّة، "لكنْ، الآن، من الأفضل أن يرتاح".

نظرْنا إليه جميعاً باهتمام، فعيناه مغمضتان، ولا يمكن أن يرانا، ووجهه نحيل جدَّاً، يشبه تينة جافَّة، لكنْ، بيضاء، ومن حبَّة التين هذه برز أنف كبير مقوَّس نحو الأسفل، عروقه ناتئة، وببشرة شفَّافة مثل ورق الأرز. لم تكن صورة جميلة تماماً، لكنه كان نائماً.

طهى جوش أيضاً كيلوغرامَيْن من المعكرونة مع البطاطا والفاصولياء الخضراء، كان هذا هو الحَدّ الأدنى، بالنسبة إليه، فقد أكل وحده نصف كيلو غرام من القِدْرِ مباشرة. أمَّا العمُّ سلفاتور، فكان يواصل نومه، لذا ذهب كل واحد منَّا إلى بيته.

كان العمُّ سلفاتور يستيقظ بين الفينة والأخرى، ثمَّ يعاود النوم.

علَّقت الجَدَّة زجاجة من الغذاء السائل الذي يدخل في الذراع عبر أنبوب رفيع، ثمَّ ذهبتْ. جلسْنا نحن حول الطاولة نلعب أو نتحدَّث، بينما العمُّ سلفاتور يواصل النوم على السرير، كما لو أن شيئاً لم يكن.

إنها المرَّة الأولى التي تُقام فيها حفلة في بيته، ومن دون علْمه. الحياة كلّها تناقضات.

لكنْ، من الواضح أن جوش كان قلقاً بشأن العمِّ سلفاتور وأقاربه، وبشأن قصر مِنْزاسنيور.

نادت الجَدَّة من البيت بصوت عالٍ، مثلما ينادي الجميع على الأطفال عندما ينبغي عليهم العودة لتناوُل الطعام. وبالفعل، كان وقت العشاء.

كاتينا بقيت هناك، لتُحضِّر بعض اللحم للصَّبيِّ، والمرق للعجوز.

قبل مغادرتنا، طلب جوش بصوت منخفض، منِّي ومن ريفِهْ، أن نلتقي في الساعة العاشرة بعد العشاء، هنا في منزل العمِّ سلفاتور. كان يرغب بكل شيء، ما عدا أن يستيقظ العجوز النائم.

.34

عند الساعة العاشرة تماماً، كنَّا أنا وريفِهْ هناك. مَدَدْنا رؤوسنا إلى الداخل، والعمُّ سلفاتور لا يزال يشخر مثل قطار، فمه مفتوح، وأجزاء من جسمه ظاهرة.

قالت كاتينا إنه لم يرغب في تناوُل الحساء، لكنه شرب قليلاً من البابونج. في تلك اللحظة، وصلت الجَدَّة أيضاً، فأخبرتْها كاتينا أن العمَّ سلفاتور، وقبل أن يُعاوِد النوم، كان سعيداً، وواعدها في ماديسون سكوير، لأنه - كما قال - يوجد محلٌّ هناك يُقدِّم أفضل بيتزا مارغريتا في مانهاتن.

ودَّعْناهم، وخرجْنا، ثمَّ توجَّهْنا نحو البوَّابة السوداء.

تركت البوَّابة ليلاً انطباعاً سيِّئاً، أو شيئاً من هذا القبيل، حتَّى إنها ظهرت أكثر علوّاً. نظرتُ إلى الأعلى، لكنْ، لم يكن هناك وجوه بيضاء مع مصابيح يدوية بعد. لحسن الحظِّ، لم يكن يمرُّ أحد من هذه الطريق إلَّا ما ندر.

آوت العمَّة كونتشيتّا إلى سريرها منذُ وقت ليس بقليل، وتحت رواق منزلها كان هناك كرسيٌّ فارغ بذراعَيْن مع وسائد بالية.

"لندخل"، قال جوش.

"أنتَ مجنون"، أجاب ريفِهْ. "أنا لن أدخل إلى هناك أبداً". حينها نظر جوش إليَّ، لكني كنتُ أعتقد أن ريفِهْ مُحقٌّ تماماً.

"ولكنْ، لا يوجد شيء في الداخل! كيف يمكنكم أن تُصدِّقوا أن امرأة قُطِعَتْ إلى نصفَيْن؟"، قال جوش بصوت منخفض.

كان سؤالاً جيِّداً، لكنني، على أيِّ حال، كنتُ أتغوَّط في ثيابي من الخوف. مجرَّد فكرة رؤية الضوء الصغير ثانية تُرعبني، يكفيني أنْ رأيتُهُ مرَّة واحدة، ولم أنم لثلاثة أيَّام.

"كلَّا ... لا يمكننا الدخول ... إنه ممنوع بموجب القانون"، تمتمتُ حين لم أجد عذراً أفضل. شتَّان بين دخول العمِّ روكّو صدفة، وبرفقة ثلاثة سفَّاحين أيضاً، وما ننوي فعله نحن. لم أجد الشجاعة للدخول إلى أيِّ مكان، حتَّى إنني توخَّيتُها، الشجاعة، في كل مكان، لكنْ، بالفعل، لم أتمكَّن من العثور عليها.

حينها أدرك جوش أنه ما من شيء سينفع معنا، فاقترب من البوَّابة، وفي لحظة واحدة -أُقسِمُ بالعذراء - صار هذا الأرنب في القمَّة من جديد، تماماً كما فعل في ذلك الصباح، عندما أنقذ دوناتينو.

إنّما الآن، فالوقت كان ليلاً، والكلّ يعرف أن مِنْزاسنيور تعمل في الظلام فقط.

تبادلْنا أنا وريفِهْ النظرات، وبقيْنا بلا حراك.

أشار لنا جوش من الأعلى، لكننا كنَّا هناك بأفواه فاغرة، وأنوفنا مثبَّتة إلى الأعلى، ولم نكن قادرين على الحركة بسبب الخوف. حينها هزَّ جوش برأسه، ونزل من

الجانب الآخر للبوَّابة.

خلال لحظة، كان داخل الفناء.

عبرَ الحديقة، وكأنه لا يوجد شيء أبداً. لا أعرف ماذا يضع هؤلاء الأجانب في رؤوسهم، لكنْ، ليس الخوف حتماً.

اقترب جوش من البوَّابة، فقال ريفِهْ بصوت عالٍ ما كنتُ أفكِّر فيه:

"والآن، أين يظنُّ أنه ذاهب هذا الغبي؟ بالتأكيد إنها مقفلة".

لكنْ، وبخلاف ذلك، عندما دفع جوش البوَّابة بقوَّة، انفتحت.

التفت إلينا مرَّة أخرى، فتظاهرْنا بالبلاهة.

حينها دخل.

كلّ شيء ممكن إذا كنتَ لا تعي ما تفعله، وأُقسِمُ أن ذاك الأجنبي كان غير واع البتَّة. أنا وريفِهْ وجدْنا أنفسنا وحيدين هناك، في منتصف الطريق، وكي نبتعد عن القصر، ذهبْنا واختبأنا داخل مستودع العمَّة كونتشيتّا. من الأفضل أخذ الحيطة، فربَّما تخرج مِنْزاسنيور، وتُقرِّر أن تستهدفَنا بالخطأ. كنَّا نتناوب على التَّجسُّس من ثقب الباب.

بعد وقت قليل، خرج جوش مثل سِنّور، يحمل بإحدى يَدَيْه شيئاً، يشبه وعاء أبيض.

عندئذ، خرجْنا ببطء - حتَّى لو أن ذلك لم يكن من الحكمة بشيء - على أيِّ حال، لم يكن هناك ضجيج، ولم يكن أحد يمرُّ من هناك.

عَبَرَ جوش الحديقة. كان يقف ووجهه بين قضيبَيْن من قضبان البوَّابة. أمَّا ما يحمله

في يده، فكان صفيحة.

أومأ لنا بالاقتراب منه، كان يريد أن يُكلِّمنا.

"الغُرف هناك مليئة بصفائح البنزين"، قالها من داخل البوَّابة، "عليكم أن تدخلا، أنتُما أيضاً، توجد رائحة بنزين قاتلة هناك في الداخل".

"صفائح بنزين؟". كنتُ أتخيَّل أيَّ شيء في قصر مِنْزاسنيور، عدا البنزين.

"أجل، ألم تفهم؟!"، احتدَّ جوش، ورفع الغرض الذي كان يحمله بيده. كانت صفيحة كبيرة مكتوب عليها 35 ليتراً.

بدا جوش وكأنه ممسوس.

" تعالوا إلى الداخل! تحرَّكوا ... يا مُخنَّثين!". كان قد تعلَّم تلك الكلمة من ريفِهْ.

"أنتَ مُخنَّث"، ردَّ ريفِهْ على الفور، وكان يريد ضربه، ولكن قضبان البوَّابة منعتْهُ.

"هذا غير قانوني، لا يمكن اقتحام حُرمة المنازل"، قلتُ. لا أعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً، لكنه بدا لي منطقيَّاً.

"ولكنْ، أيّ قانون؟"، قال جوش، "هناك في الداخل توجد أدلَّة تُثبت أن لا علاقة لعائلتي بالحريق". ثمَّ رجع واقترب من البوَّابة.

لا أعرف عندها ماذا جرى لي! لكنني بدأتُ في تسلُّق البوَّابة، فكل شيء مقبول، عدا أن أبدو مُخنَّثاً أمام ريفِهْ. استجمعتُ شجاعتي، وتضرَّعتُ إلى الله أن يبعدَ عن عيني رؤية أيَّة شموع، وأيَّة أضواء، وأيّ لهب ومصابيح، وإلَّا لما تمكَّنتُ أبداً من تسلُّق البوَّابة.

عندما وصلتُ أعلى البوَّابة، لم يعد أمامي إلَّا النزول إلى فناء القصر، فالتراجع لم يعد ممكناً. عندئذ رسم ريفِهْ علامة الصليب، وقبَّل إصبعه، وصَعِدَ هو أيضاً. لم يكن

يمكنه البقاء وحيداً. شجاعة الآخرين مُعدِية.

عبرْنا الحديقة المليئة بالأعشاب والنباتات الطويلة مثل قطَّتَيْن، ووصلْنا عند جوش الذي دفع البوَّابة، ودخلْنا. كانت المرَّة الأولى التي ندخل فيها إلى منزل مِنْزاسنيور. كان من الأفضل عدم التفكير بالأمر، وإلا لكنتُ تغوَّطتُ في ثيابي.

داخل القصر مُعتِم.

لكنْ، هناك بالفعل رائحة بنزين لا تُصدَّق، تتغلغل إلى الأنف، وتصل مباشرة إلى الدماغ.

اعتادت عيوننا على الظلام رغم أن دموعنا كانت تسيل بسبب البنزين، وبدأنا نرى ما حولنا. كانت رَدْهَة القصر ضخمة، يوجد فيها خزَّانات وأرائك وسجَّاد وخزَّانات أدراج لِمِنْزاسنيور، لكن كل زاوية مليئة بصفائح بيضاء مُنضَّدة بمحاذاة الجدران.

"لنصعد إلى الأعلى، لقد عاينتُ هذا المكان، لا شيء سوى البيدونات"، همس جوش. كان يُسمِّي الصفائح بيدونات! - حسناً، لم يكن باليد حيلة.

لم أكن قد رأيتُ من قبل درجاً بهذا الاتِّساع، ربَّما الظلام ما يُضخِّم الأشياء، كان الدرج من المَرمَر، فلم يصدر أيُّ ضجيج في أثناء صعودنا - كنَّا محظوظين في ذلك، على الأقلِّ.

في الأعلى، يوجد ممرَّان، أحدهما على اليمين والآخر على اليسار، وفي كل واحد منهما توجد ثلاث غرف تُطلُّ على الفناء الخارجي، وثلاث غرف أخرى تُطلُّ على الداخل.

اتَّجهْنا إلى اليمين. في أحد الغرف المُطلَّة إلى الداخل، لا بُدَّ وأن أباجور الباب كان معطوباً، حيث إن بعض الضوء تسرَّب إلى الممرِّ، وقلَّل من حجم الخوف. اقتربْنا

ببطء شديد، ونظرْنا إلى الداخل. الأباجور مفتوح، يتسرَّب منه ضوء مصباح الشارع. لا شيء: الغرفة خاوية سوى من شَبَك عليه فراش، وكمودينة وثُريَّا قديمة مُعلَّقة على سلسلة طويلة في مُنتصف السقف. ثمَّ ذهبْنا لاستكشاف الغُرف الأخرى. لا شيء، ما عدا أَسِرَّة قديمة مُغَبرَّة وخزَّانات مُهترئة وكراسٍ وأرائك.

لم يكن هناك شيء في الممرِّ الأيسر، تشجَّعْنا وتابعْنا السير نحوه. كنَّا قد دخلْناه لتوِّنا عندما تهيَّأ لي أنني سمعتُ صوتاً ما. توقَّفْنا.

وضع جوش إصبعه على شَفَتَيْه.

صوت، مُجدَّداً.

كان يصل من نهاية الممرِّ.

عاودنا التَّحرُّك بحذر إلى الأمام. لم تكن الأصوات تصل من الغرف المُطلَّة على الحديقة. في أثناء مرورنا، فتحْنا الأبواب دون إحداث ضجيج، لكنها كانت خاوية.

عند منتصف الممرِّ تقريباً، لاحظْنا أن الباب الأخير كان مُوارِباً، وأن الضوء ينفذ من تلك الغرفة التي تطلُّ نحو الداخل.

لقد وقعْنا في مأزق حقيقي. إن هذا الضوء ليس إلَّا مِنْزاسنيور- كنَّا قد رأيناه ثلاثتنا. لا مفرَّ، إذنْ! إنها مسألة وقت فحسب.

تسمَّرْنا أنا وريفِهْ في مكاننا، بينما وصل جوش لعند الباب، ونظر إلى الداخل من الفراغ بين الباب وعِضَادَتِهِ. استدار، وأومأ لنا أن ننضمَّ إليه، شبكنا أنا وريفِهْ أيدينا مثل فتاتَيْن صغيرَتَيْن، وتوجَّهْنا نحوه.

كان يتناهى صوت رجل عن قُرب.

تارة يُسمع بوضوح، وتارة يختفي.

وبما أننا كنَّا قد وقعْنا في مأزق، وانتهى الأمر، فلم يعد هناك ما لا يمكننا فعله. تقدَّمْنا ببُطء شديد، لنرى ماذا في داخل الغرفة من الشَّقِّ الذي ينفذ منه الضوء، ولوَهْلَة كدتُ أُصاب بجلطة.

كان العمُّ روكّو هناك، جالساً خلف طاولة كبيرة، ويُكلِّم شخصاً، لم نتمكَّن من رؤيته. لم يكن هناك أثر لمنزاسنيور - على الأقلِّ في المكان الذي كنَّا فيه.

" ... وهذه لكَ"، قال العمُّ روكّو، ثمَّ فتح دِرْجاً في الطاولة، وأخرج منه كيس قمامة.

أخذ الشخص الجالس على الجانب الآخر من الطاولة الكيس، وفتحه، كان مليئاً برِزَمٍ من الأوراق النَّقْدِيَّة، مُحزَّمة بأربطة مطَّاطيَّة. بدأ الشخص في عَدِّ النقود، ولم يكن ينتهي من العَدِّ، فالمبلغ كبير بالفعل.

لكنه، عندما انتهى من العَدِّ، قال: "هذا لا يكفي".

غضب العمُّ روكّو. "لم يبدُ لي أنكَ اعترضتَ عندما كان ضرورياً تنظيم الأشياء وقتها"، قال العمُّ روكّو بصوته العميق ذاك.

"لأنني لم أظنّ أن الأراضي كانت مشمولة أيضاً ... نحن تكلَّمنا عن المزرعة والإسطبلات والجرَّارات ... كانت الأراضي كثيرة ... والعمل لا ينتهي. كنَّا قد اتَّفقْنا ألَّا نحرق الأراضي". لقد بدا لي ذلك الصوت مألوفاً، لكنني لم أكترث لذلك.

"أظنُّ! ... أظنُّ! ... ماذا كنتَ تظنُّ؟"، صاح العمُّ روكّو، وتردَّد صوته في كل القصر. "عندما تعمل معي، إمَّا أن تُنفِّذ الأشياء بجدِّيَّة أو لا تُنفِّذها، وكفى!". كان يمكن التَّكهُّن، من الطريقة التي يتكلَّم بها، أنه يمكنه أن يصفع الشخص الآخر، لأنه يعامله مثل صرصار. ضرب بقبضته الطاولة مرَّتَيْن أو ثلاث مرَّات، وهكذا هدأ. "الآن، خُذْ هذه النقود، وانصرِفْ. لقد انتهت هذه القصَّة، ولا أريد أن أسمعَها مرَّة أخرى".

عندئذ، نهض ذلك الشخص، أخذ الكيس، وذهب نحو العمِّ روكّو.

في تلك اللحظة، انشقَّت الأرض، وابتلعتْني إلى الأبد. هناك، توقَّفتُ عن أن أكون طفلاً.

ضغطتُ على الكيس الذي أحمله حول عنقي، وناديتُ أُمِّي، ولكنها لأوَّل مرَّة لم تُجبني. حاولتُ أن أناديَها مرَّة أخرى. لا فائدة. كانت أُمِّي قد تخلَّت عنِّي، وأنا في أمسِّ الحاجة إليها.

كان نينوتشو، رئيس البلدية، يقف أمام العمِّ روكّو.

شدَّني جوش وريفِهْ من قميصي، وهربْنا، كان يمكننا تصديق كل شيء إلَّا ما كنَّا قد رأيناه لتوِّنا. هناك أشياء لا يجب على المرء أن يراها أبداً.

زحفْنا في الحديقة مثل ثلاثة فئران، وتسلَّقنا مرَّة أخرى البوَّابة الخارجية.

اختبأنا داخل مستودع العمَّة كونتشيتّا. كانت قلوبنا لا تزال تنبض في حلوقنا بدلاً من صدورنا.

بعد فترة قليلة، خرج نينوتشو، ابن عمِّنا، من باب القصر. عبر الحديقة ركضاً. فتح البوَّابة الخارجية بالمفتاح، نظر حوله، وتسلَّل إلى الشارع الفارغ. وحين وصوله إلى أوَّل زقاق، انعطف يساراً، ثمَّ اختفى.

على الجانب الآخر من القصر، الموازي لساحة الساعة، سمعْنا صوت سيَّارة يتمُّ تشغيل مُحرِّكها. كان لا بُدَّ من وجود ممرٍّ آخر من ذلك الجانب، حتَّى نحن لم نعلمْ بوجوده.

لم يغمضْ لنا جفن تلك الليلة. يا ليتها كانت مِنْزاسنيور، وأُقسِمُ على ذلك، فعلى الأقلِّ، لكنَّا عرفنا أين ننظر. إنما ذلك المشهد كان مثل ألف طعنة خنجر من ألف جهة مختلفة، وأغرقنا في فوضى عارمة. للحظات قليلة خلتْ، كان كل شيء بسيطاً، ثمَّ لم يعد بإمكاننا العودة إلى الوراء.

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ بمجرَّد سماعي جلبة الجَدَّة بينما كانت تستعدُّ لفَتْح المتجر.

كنتُ بحاجة للتَّحدُّث مع أُمِّي، بما أنها لم تُجبني في الأمس.

أغلقتُ على نفسي باب الحمَّام، ثمَّ ناديتُها، ولكنْ، بلا جدوى. ثمَّ ناديتُها مرَّة أخرى. لم أكن أعرف ماذا أفعل. دسستُ يدي تحت قميصي، وأمسكتُ قُصَاصَة الصورة التي أحملها في رقبتي. لقد أنقذتْني من النار، وحمتْني مئة مرَّة حتَّى الآن. كنتُ بحاجة إلى أُمِّي، لم أحتجْها أبداً بهذا القَدْر. كل شيء ينهار، لم أكن أعرف ماذا أفعل وهي تتظاهر بالبلاهة. ربَّما غيَّرت مسكنها مرَّة أخرى، وأخذت طفلاً آخر، طلب منها أن تتخلَّى عنِّي.

قطعتُ الخيط من رقبتي، ثمَّ خرجتُ من الحمَّام. أخذتُ الكيس مع قُصَاصَة الصورة، ووضعتهما في أوَّل درج من خزانة الملابس. لم تعد تلزمني هذه السخافة. إذا كانت أُمِّي لا تريد أن تراني، فهي الخاسرة: لقد أمستْ عجوزاً متداعية، بينما أنا في مقتبل حياتي. وإذا عادت في يوم من الأيَّام لتبحثَ عنِّي، سأُريها مَنْ أكون.

كانت نينا تنام وعيناها نصف مغمضَتَيْن، ولم تكن تعلم أن العالَم، هناك في الخارج، قد انهار. ذهبتُ إلى المطبخ، سألتْني الجَدَّة إذا ما كنتُ قد سقطتُ عن السرير، لأنها لم ترَني يوماً على قَدَمَيَّ في وقت مُبكِّر كهذا. ثمَّ وصل الجَدُّ أيضاً ليتناول القهوة،

بينما أبي كان لا يزال نائماً.

في تلك الليلة، بينما كنتُ أتقلَّب في فراشي، كنتُ قد وعدتُ نفسي أن أنتظر قبل إخبارهم، أن أستشيرَ قبلاً ريفِهْ وجوش، وأن نُقرِّر معاً ما يجب القيام به، إذا ما كان يجب أن نكشف السِّرَّ أم لا. لكن الجَدَّيْن كانا موجودَيْن، والخنجر ينغرس أكثر فأكثر في داخلي. عندها، لم أتمكَّن من الانتظار، وبينما كان الجَدَّان يضعان قليلاً من السُّكَّر في الفناجين، تكلَّمتُ ورويتُ لهم كل شيء. بكل التفاصيل. عن العمِّ روكّو وعن نينوتشو، رئيس البلدية، عن صفائح البنزين، عن الكيس المليء بالنقود، عن الأراضي، عن كل شيء.

بقيا صامتَيْن، وبلا حراك. كانا هناك، ولكنْ، كما لو أنهما غائبان.

"أُقسِمُ بمريم العذراء، لقد رأيتُهُ بأُمِّ عينَيَّ"، كرَّرتُ، ثمَّ انتابَني الخوف، وخشيتُ من أنني ربَّما قتلتُهما بذلك الخبر. لكن الجَدَّة عثرت بالصدفة على الأريكة تحت ردفَيْها، وسمحتْ لنفسها أن ترتاح، والجَدُّ، عاد أخيراً إلى نفسه، وأخذ رأسه بين يَدَيْه. كان ينظر إلى الأسفل، ومَرفِقَاه مسنودان على الطاولة.

"رأيتَهُ بأُمِّ عينَيْكَ ... بأُمِّ عينَيْكَ ... نينوتشو ...؟"، كرَّرت الجَدَّة، وكان واضحاً أنها استهلكت كل الكلمات.

بدا الجَدُّ وكأنه بلع لسانه.

"ليس بعينَيَّ فحسب، لقد رآه ريفِهْ وجوش أيضاً، وإذا كنتُما لا تُصدِّقانني، سأذهب حالاً، لأناديَهما، وسوف يُخبرانكما بذلك، هما أيضاً".

حينها، راودني الشَّكُّ أن الجَدَّيْن قد انتقلا إلى العالَم الآخر، لأنهما أغمضا أعينهما، وبقيا بلا حراك.

بعد فترة، فتح الجَدُّ عينَيْه. نهض واقفاً، وقال: "كلَّا، لا حاجة لذلك".

"يجب أن نذهبَ ونُخبرَ المساعد أوَّل أومبرتو حالاً بالأمر، يجب أن يقبضوا على الاثنَيْن!". كنتُ مقتنعاً بما قلتُهُ، كقناعتي بأن اسمي هو بييترو. كانت الجَدَّة لا تتكلَّم، والجَدُّ يهزُّ رأسه، ولا يتمكَّن من ضبط نفسه. كان أكثر شحوباً من الجَدَّة، ذانكَ الاثنان كانا يخيفانني لشدَّة ألمهما. أمَّا أنا، فقد كان لدي كل الليل لامتصاص الصدمة، بينما هما قد علما لتوِّهما بالأمر.

"لن يقبضوا عليه أبداً ..."، فتح الجَدُّ راحَتَيْه، وكانت تلك دعوة للذهاب بين ذراعَيْه. كنتُ أعرف ذلك حتَّى لو أنها مرَّت سنوات كثيرة منذُ آخر مرَّة. هل خَرِفَ تماماً؟ هل عاد للوراء بالسنين؟ أيّا يكن، لإرضائه، أذعنتُ لطلبه. "لقد حدث نفس الشيء منذُ سنوات طويلة ..."، قال. لو أن الجَدَّ لم يكن ذاك الذي أعرفه، لقلتُ أيضاً إن عينَيْه كانتا قد ابتلَّتا بالدموع قليلاً. لكن هذا لم يكن ممكناً. "العمُّ روكّو سوف يفوز دائماً في أريليانا". كان صوته هادئاً، غريباً، لم أره بهذا الهدوء أبداً. ثمَّ التفت نحو اللوحة الصغيرة المُعلَّقة في المطبخ، وطلب منِّي أن أقرأ ما كان مكتوباً عليها. لم أكن أرغب بذلك، لكن الجَدَّ أصرَّ. وهكذا قرأتُ:

" المسيح لم يصلْ إلى هنا أبداً، ولا الزمن أيضاً، ولا الأمل، ولا المنطق، ولا التاريخ.".

بينما كنتُ أقرأ، كان الجَدُّ يهزُّ رأسه موافِقاً، وينظر في الفراغ. لو لم أكن بين ذراعَيْه، لقلتُ إنه كان شبحاً.

"تماماً، مثلما تقول أنتَ، يا بييترو. هكذا تماماً ... هنا، في الجنوب، لن يتغيَّر أيُّ شيء أبداً ... العدالة لا تنتمي إلى هذه الأرض". كانت نبرة صوته رقيقة جدَّاً.

وأنا لم أعد أرى شيئاً من الغضب.

نزلتُ، لم أكن أريد أن أبقى بعد بين ذراعَيْه.

كان يثير فيَّ الاشمئزاز لضعفه وشيخوخته. كان جَدِّي امرأة، بخلاف ما يقال عنه. هو وأُمِّي، كانا خيبتا أمل.

"ولكنْ، عن ماذا تتحدَّث!"، بدأتُ أصرخ. "هؤلاء مُجرمان، لقد أحرقا أراضيكَ والمزرعة التي تحمل اسم أُمِّي! يجب أن يُودَعا السجن!". كنتُ قد خرَّبتُ كل شيء.

"بييترو ..."، صرخت الجَدَّة، ووقفتْ في الوسط، وبالصوت الغائب والمرعب للجَدِّ نفسه، تابعتْ: " ... لم تعد هناك أراضٍ، المزرعة احترقتْ، والحيوانات ماتتْ، والماكينات دُمِّرتْ". توقَّفتْ عن الكلام، كانت تبدو وكأنها تبكي هي الأخرى. سَحَبَتْ منديلاً من صدرها، وتمخَّطت. "إنها كالمرَّة السابقة ... العمُّ روكّو سيفوز دائماً. هذه المرَّة نينوتشو، في المرَّة السابقة شخص آخر ...". ثمَّ حدَّقت في الجدار، وأضافت بحدَّة: "وفي كلّ الأحوال، لم يعد ذاك حفيدي!".

"لم يكونوا الأجانب!"، صرختُ، وفي تلك اللحظة، ظهرتْ نينا على الدرج. كنتُ أُحدِثُ صخباً كبيراً.

"لا يهمّ مَنْ فعل ذلك!"، صاح الجَدُّ، كان على وشك أن يغضبَ، "لا يهمُّ بعد الآن! طالما يوجد أجانب في مكان ما، سيكون الذنب دائماً ذنبهم!".

" ليس عدلاً!"، صرختُ وبصوت أعلى، "ليس عدلاً!".

توقَّف الجَدُّ عن الكلام. كان يُحدِّق في الفراغ أمامه، يضغط بيَدَيْه على حافَّة الطاولة كأنهما كمَّاشتان. لم أكن لأحصل على شيء منه بعد الآن.

لم أعد أريد أن أتقاسم شيئاً مع هذين الخرقَتَيْن. لستُ حفيدهما، لا يمكنني أن أكون ابن ابنتهما. أُمِّي خرقة أيضاً. أنا أكره جَدَّيَّ، لأنه ينقصهما الشيء الوحيد الذي يجعل من الرجل رجلاً: الشجاعة. أعرف ذلك مذ كنتُ في الرابعة من عمري، وذلك بفضل راهبة روضة الأطفال. هذان الكائنان العجوزان يستحقَّان تلك الحياة المثيرة للاشمئزاز التي عاشاها، لأنهما كانا من الجبناء الذين لا قيمة لهم، وكانا على استعداد أن يتركوا أيَّ مستبدٍّ يسحقهما.

أردتُ أن أُخبر أبي بذلك، لكنه كان قد حبس نفسه في الغرفة، لأنه كان مكتئباً

للغاية. مع ما حدث لمزرعة روزي، كان عمله قد أصبح رماداً، ومستقبله كذلك. كنتُ أعرفه جيِّداً، يجب أن تمضيَ أيَّام قبل أن تراه مُعافى ثانية، وأنا لا يمكنني بالتأكيد انتظاره.

أطبقتُ الباب خلفي، وهربتُ.

ذهبتُ لأنادي ريفِهْ وجوش. قرَّرنا معاً أن نحكي كلّ شيء للمساعد أوَّل أومبرتو.

وجدناه في مكتبه يُحضِّر القهوة، ويُدخِّن سيجارته الأولى في ذلك الصباح، حتَّى ولو كان على الجدران يافطة تقول "ممنوع التدخين".

أسعدتْهُ رؤيتنا، أعتقد أنه لم يكن يتلقَّى العديد من زيارات الأولاد. حتَّى إنه جعلنا نجلس كلٌّ على كرسيٍّ، مثل الأشخاص المُهمِّين.

جلس هو في مكانه، واستمرَّ في تدخين السيجارة، وفي بَثٍّ سُحُب من الدخان وارتشاف القهوة.

لم يكن ثمَّة وقت نُضيِّعه: "علينا أن نُخبر حضرتكم بأمر هامٍّ، ونريد أن نتقدَّم بشكوى رسمية"، قلتُ أنا. ضحك المساعد أوَّل، ثمَّ سحق عقب السيجارة في المنفضة.

"أنتُم في المكان المناسب. فلنسمع".

تشجَّعتُ: "نحن نعرف مَنْ أشعل النار في الأراضي"، قلتُها بنَفَس واحد، "ونريد إبلاغ السلطات".

ضحك المساعد أوَّل مجدَّداً: "لكنّنا نعرفه نحن أيضاً"، أجاب، وكانت إجابة لم أتوقَّعها. ثمَّ نظر إلى جوش: "وفي الحقيقة، كنَّا قد ألقيْنا القبض عليهم".

كان الأجنبي على وشك أن يهبَّ على قَدَمَيْه، وكان من الواضح أنه يريد أن يلكمه

في وجهه. أمسكناه أنا وريفِهْ.

"أنتم مُخطئون، نحن لدينا الأدلَّة!"، قلتُ أنا، وكنتُ واثقاً من أني سأُثير مفاجأة كبيرة، لكنْ، لم يهتزّ جفن للمساعد أوَّل.

"توجد صفائح بنزين كثيرة في قصر مِنْزاسنيور، وفي الواقع، نحن كنَّا في المزرعة ذلك المساء، وكانت هناك رائحة بنزين، ممَّا يعني أنهم، قبل الألعاب النَّاريَّة لعيد منتصف آب، كانوا قد رشّوا البنزين في كل مكان، ونحن نعرف أيضاً أن مَنْ نظَّم كل شيءّ هو العمُّ روكّو بمساعدة رئيس البلدية، الذي كان دوره ألَّا يُخبر أحداً، وهو ابن عمِّي أيضاً، بل لم يعد كذلك بعد الآن".

لكن أجفان المساعد أوَّل لم تهتزّ، وأنا كنتُ مؤمناً أن ردَّة فعله ستكون ممَّا لا يمكن توقُّعه، لكنه لم يُحرِّك ساكناً. "آه، أنتُم بالفعل تعرفون الأمور جيِّداً ... لكنْ، كيف تعرفون كل هذه الأشياء، أنتُم الثلاثة؟".

بدأ يُغضِبُني هو أيضاً الآن، حتَّى إنه أشعل سيجارة ثانية، بدلاً من أن يهرع حالاً بسيَّارة النجدة، ويُلقي القبض على ذَيْنكَ الاثنَيْن. "نعرفها لأننا شاهدناها! لقد دخلْنا إلى منزل مِنْزاسنيور!"، أجبتُ أنا.

"آه ... برافو!"، هتف المساعد أوَّل، "في منزل مِنْزاسنيور ... وهل كان لديكم إِذنٌ للدخول؟ هل دَعَتْكم هي، عن طريق الصدفة؟ هل تعلمون أن تلك ملكية خاصَّة؟". كان يحاول أن يخدَعَنا، ويريد أن يرى تقبُّلنا.

"نحن قُصَّر!"، هتفتُ، "نحن تحت السِّنِّ القانونية، لا شيء يمكنه أن يحدث لنا".

لكن أومبرتو بدأ يضحك، وحيث إنه كان بديناً ويُدخِّن، فقد ضحك مثل أولئك البُدن الذين يُدخِّنون، وبين فترة وأخرى، يتطاير اللُّعاب من فمه، وكان علينا أن نحتميَ بأذرعنا. باختصار، شيء مُقزِّز.

"لدينا الأدلَّة!"، كرَّرْنا، هذه المرَّة ثلاثتنا معاً، "الآن، عليكم الذهاب إليهم، وإلقاء القبض عليهم!".

لكنْ، كلَّما تكلَّمنا أكثر، كان يضحك أكثر، مع مزيد من السُّعال، وكنَّا نضطرُّ لحماية أنفسنا من رذاذ لعابه.

"إذنْ، فلنفعل هذا"، قال عندما تمالك نفسه، والطريقة التي أصبح بها جدِّيَّاً فجأة، جعلتْهُ يبدو شبيهاً، لأوَّل مرَّة، بِدَرَكِيٍّ.

"لنقل إنكم ستنسون السبب الذي أتيتُم لأجله إلى هنا. وتنسون أيضاً ما قلتُمُوه لي ...". توقَّف قليلاً. "وإذا أحسنتُم التَّصرُّف، سوف أنسى ذلك أنا أيضاً. اتَّفقْنا؟".

"كلّا!"، صرختُ أنا، "أنتم لا تفهمون، الأجانب لم يفعلوا أيَّ شيء! هم أبرياء!". عند هذا الحَدِّ، غضب المساعد أوَّل.

"أنتَ الذي لا يفهم، يا صغيري. إذا لم تتوقَّف، سأضعكم ثلاثتكم في سجن بوتِنْسا للأحداث، لأنكم انتهكتُم ملكية خاصَّة".

ثمَّ رتَّب هندامه، وهدأ بعض الشيء. " انسوا كل شيء، و لن أحتجزَكُم". مدَّ يده، "اتَّفقْنا؟".

لم نكن لنصافح يد ذلك الخنزير حتَّى أمواتاً. نهضْنا، وغادرْنا.

.36

في ظهيرة ذلك اليوم نفسه، ودون أن يقول أيَّ شيء لأيِّ شخص، رحل العمُّ سلفاتور. كان جوش هو الذي وجده، بعد الغداء، ممدَّداً بطوله على سرير مشابه

للأَسِرَّة العسكرية، كان في الطابق الأرضي.

عندما فَهِمَ ما حدث، لم يعرفْ ماذا يفعل. بقي معه لفترة غير قليلة من الوقت، قام بغلي الماء للشاي، وغسل كأسَيْن - كانتا نظيفَتَيْن أساساً، لكنه أراد أن يتأكَّد. وضع ملعقَتَيْن صغيرَتَيْن من السُّكَّر في كأسه، وواحدة في الأخرى، ثمَّ سكب الشاي، شاي بالنعناع الذي كان يُحبُّه العمُّ سلفاتور. حرَّك الملعقة لإذابة السُّكَّر، ثمَّ ذهب وسأل العمَّ سلفاتور إذا ما كان يريد القليل منه، لعلَّ وعسى. لم يُجبْهُ. حينها كرَّر سؤاله ثانية، واكتفى بذلك.

كان العمُّ سلفاتور مُستلقياً على السرير الصغير، مُغطًّى بلحاف منقوش بمُربَّعات ورأسه مُسنَد على وسادَتَيْن، يبرز منه فقط ذلك الأنف الكبير الذي يبدو كشراع جرَّاء شدَّة شفافيَّته. بدا وكأن العمَّ سلفاتور ينظر إلى نقطة مُعيَّنة في السقف، بينما جوش يعرف أنه لا ينظر إلى أيِّ شيء. ثمَّ انتهى من ارتشاف الشاي، وجاء ليُخبر الجَدَّة، فلم يكن يوجد في أريليانا مَنْ هو أفضل منها لإخباره.

كانت الجَدَّة في المطبخ، وأنا ونينا هناك أيضاً، مع أني كنتُ لم أزلْ في ذروة غضبي. رَمَتْ نينا بنفسها على الجَدَّة، فأجمل ما في الظلم أنه يُقرِّبنا بعضنا من بعض. لم تقل الجَدَّة شيئاً، مرَّرتْ يدها على شَعْر الأجنبي، ثمَّ خرجتْ وذهبتْ وحدها إلى منزل العمِّ سلفاتور.

ظلَّ جوش مسمَّراً في مكانه، داخل المطبخ، حيث كان قد أكل في بداية ذاك الصيف من القِدْرِ مثل شخص ميت من الجوع، وكان ينظر إليَّ وإلى نينا، حيث كنَّا قد تعانقْنا حينها على أريكة الجَدَّة. بعدها قام جوش بفعل شيء، لم يفعل مثله منذُ وصوله إلى أريليانا، ولم تستطع نينا أن تحيدَ بعينَيْها عنه، لأن هذا ما يحدث عندما يبكي أحدهم، نريد أن نرى تعابير وجهه، فهي، بصدق، تكون غريبة.

عندما ذهبْنا أنا ونينا وريفِهْ والتوأم وباسكوينا إلى منزل العمِّ سلفاتور لوداعه، كان

الجميع يتحدَّث عن الجنازة التي ستُنظَّم له.

لم نكن نرغب بالبقاء هناك.

لكننا لم نعرف ماذا نفعل، كانت معنوياتنا في الحضيض. حينها قال ريفِهْ: "فلنذهب إلى المدرسة القديمة"، وهكذا ذهبْنا إلى هناك.

بما أن عدد التلاميذ قد تناقص كثيراً بسبب الهجرة، فإن المدرسة الابتدائية الوحيدة المتبقِّية كانت في غرفة للبلدية، كي يُوفِّروا في مصاريف التدفئة وجميع الفواتير الأخرى.

كانت المدرسة قريبة من الملعب الرِّياضيِّ، على مدخل البلدة. ذلك المبنى، والذي كان شكله كما يُفترَض أن تكون عليه المدارس، مع البوَّابة، والاستقبال، والنوافذ الواسعة، وكل الأشياء الأخرى، أصبح الآن مجرَّد ذكرى مدرسة. إنه لأمر محزن بعض الشيء عندما تصبح الأشياء ذكرى بحَدِّ ذاتها، لأنه لا يمكنكَ تغييرها بعد الآن. كانت تلك المدرسة، حيث درس فيها جَدَّيَّ أوَّلاً، ثمَّ أبي وأُمِّي أيضاً: كانت الآن فقط الزمن الذي توقَّف.

دخلْنا، وكان ذلك غريباً، لأنه في كل السنوات التي ذهبتُ فيها إلى أريليانا، لم نزرْها أبداً أنا وريفِهْ، حتَّى لنُدخِّن سيجارة أو لنرميَ الحصى على النوافذ. كانت البوَّابة مكسورة، والنوافذ مُحطَّمة، وأبواب القاعات بلا مقابض - لقد سرقوها، وكذلك المراحيض ومغاسل الحمَّامات، وحتَّى الشَّطَّافات في حمَّامات المُعلِّمين. تخيَّلتُ معلِّمة اللغة الإيطالية بينما تتشطَّف، ممَّا رفع من معنوياتي قليلاً.

في أحد الممرَّات، كان هناك كراسٍ ومقاعد متناثرة في كل مكان، مقاعد مُكدَّسة كيفما كان، مُلقاة هنا وهناك، أشبه بروضة أطفال بعد يوم من دون معلِّمات. صَعِدْنَا إلى الطابق الأوَّل، وكل شيء داخل غرف الدراسة لا يزال مُرتَّباً، كما لو أن

التلاميذ قد انصرفوا لتوِّهم، بعد أن رتَّبوا كراسيهم خلف الطاولات.

دخلتُ إلى أحد الصفوف، المكتوب خارجها (ف ب)، بينما ريفِهْ وجوش يُطلقان الصرخات، كي تتردَّد بقوَّة داخل المساحات الفارغة، لتُشعِرَ بوجودهم.

ثمَّ فعلتُ شيئاً لا تعرفه إلَّا نينا. في ذلك الصَّفِّ المهجور والساكن، مع المنضدة المرتَّبة والمليئة بالغبار، والضوء الزائغ الذي يدخل من النافذة، وينير حُبيبات الغبار التي تتطاير في الهواء، جلستُ على الكراسي، كرسيَّاً تلو الآخر، جرَّبتُها جميعاً، وعلى كل مقعد، كنتُ أتظاهر بأنني طفل مختلف، وأحياناً حتَّى طفلة، لأنني كنتُ بحاجة أن أشعر بأنني حَيٌّ. ثمَّ بدا لي وكأنني أرى أُمِّي، لأنه، في الحقيقة، كانت قد درستْ في تلك القاعات.

في النهاية، نهضتُّ وذهبتُ إلى المنضدة، وتظاهرتُ أيضاً أنني معلِّم. لم تكن المنضدة ملساء ونظيفة، بل مَكسوَّة بعلامات كثيرة محفورة بالسكاكين، ثمَّة أسماء لأناس، وبعض التواريخ والكتابات. كُتبت كلمة "ليبرتاس"، التي قال جَدِّي إنها تعني في إحدى اللغات القديمة "حُرِّيَّة"، ولكنها، في الحقيقة، كانت شعار حزب سياسي. ثمَّ لاحظتُ علامات أخرى محفورة على بعض المقاعد أيضاً، وحينها بدأتُ أفكِّر: الله يعلم متى حُفرت! ربَّما قبل الحرب، وربَّما بعدها، وربَّما لاحقاً بعد أن تمَّ إغلاق المدرسة ... من المؤكَّد أنها قديمة.

وبينما كنتُ أتجوَّل بين المقاعد، شعرتُ بألم في بطني، وبدأتُ أرتعش، مثلما يحدث عندما أُصاب بالحُمَّى، وترتفع حرارتي إلى تسع وثلاثين درجة. لذا اضطررتُ للجلوس.

كنتُ قد رأيتُ شيئاً، لم أكن لأفكِّر أبداً أن أراه، أُقسِمُ بالله. لكنتُ تخيَّلتُ كل شيء

ما عدا ذاك.

على أحد تلك المقاعد حُفِرَ هناك لقبٌ لأُمِّي، بوضوح.

صحيح أنها كانت المدرسة التي دَرَسَتْ فيها هي أيضاً، لكنْ، مع ذلك فإن العثور على أثر منها، كان هديَّة لا تُصدَّق، وأنا الذي كنتُ قد ظننتُ بها سوءاً. ماما، أنا آسف، وجدتُ نفسي أقول ذلك. أنا طفل شَكَّاك.

مرَّرتُ إصبعي على المقعد.

كان مكتوباً بالضبط: روزي + بيا.

روزي أُمِّي، وبيا أبي. كانا، بلا شكٍّ، هما الاثنَيْن.

روزي + بيا.

شعرتُ أنني مشحون بطاقة كبيرة، مُحَمَّلة بكثافة حيوية، لا يمكن تفسيرها. لم أتذكَّر حتَّى المرَّة الأخيرة التي شعرتُ بها بكل هذا الانتعاش والرغبة بعمل أشياء كثيرة.

لقد كانت كثيرة، لدرجة أنني لم أكن أعلم أين أُدوِّنها لأتذكَّرها جميعاً، وكاد دماغي ينفجر لروعتها. كل ما كان يُسبِّب لي الحُمَّى في الأشهر الأولى التي انتقلتْ فيها أُمِّي إلى بيت آخر، كل تلك الأشياء السَّيِّئة: اختفت في تلك اللحظة كلها، وإلى الأبد.

عندئذ بدأتُ أقفز وأرقص مثل الأبله داخل تلك القاعة، الاثنان الآخران كانا قد

صَعِدَا إلى الطابق الثاني، كنتُ أسمعهما يمشيان فوقي، ويُحْدِثان ضجيجاً كبيراً، لقد وجد كلاهما الآخرَ، هذان الاثنان، هذا كلّ شيء. وهكذا يمكنني أن أرقص وحدي بين المقاعد، وأكون في سعادة وسلام، لأن السعادة تنمو بإفراط، إن لم يكن هناك مَنْ ينظر إليكَ، لأننا ننظر إلى أنفسنا بشكل فعلي، ولم يكن يوجد شيء أفضل من ذلك في العالَم. هكذا تحوَّلتُ إلى مهرِّج، وقمتُ باستعراض ممتع وأنا أدور حول نفسي وأقع على الأرض. كنتُ أستدير إلى اليمين، فتأتيني صفعة من اليسار، أسحب إصبعي فأضرط، أُمسك بيدي فأصاب بصعقة كهربائية. باختصار، أشياء تغميكَ من الضحك.

في زاوية قريبة من الخزانة، كان ثمَّة مكنسة لا تزال هناك في الأعلى، أخذتُها وبدأتُ أرقص وأدور حول نفسي. رقصتُ الفالس والمازوركا، كذلك التَّرَانتيللا والروك أند رول، ورقصة كنتُ قد رقصتُها مع ميكيلا، وأخرى مع لينيتّا، لأنني فارس، ويجب أن أُتيح فرصة الرقص لكل الفتيات. لكن أكثرها جمالاً رقصة التانغو، التي تركتُها لأُمِّي، فقد كانت تُحبُّ الرقص كثيراً، وفي تلك السنة، في أثناء عيد الوحدة، لم تُوفِّر رقصة منها، فأبي لم يكن موجوداً، وعليه كان من الأفضل استغلال ذلك طالما لا يرانا أحد.

و بينما أقودها جيئة وذهاباً، وعندما تميل إلى الخلف، وأسندها بذراعي، اصطدمنا بالخزانة القديمة.

فُتِحَ الباب، وسقطت منها بعض الأشياء وسط كمِّيَّة هائلة من الغبار.

أضاءتْها أشعَّة الشمس القادمة من النافذة، فبدت كسحابة عملاقة من غبار الطباشير.

ثمَّ تلاشت السحابة، وظهرت على الأرض كمِّيَّة من الأشياء المبعثرة عديمة الفائدة، ممحاة بدائية، وطباشير بيضاء وأوراق مصفرَّة. وشيء آخر.

أعرف الآن أنه يصعب تصديق ذلك، لكنْ، عند تلك اللحظة، اتَّسعت عيناي مثل باب مَرْأَب بيتنا في ميلانوكس.

لأنني كنتُ أعرف أن ذلك سيحدث عاجلاً أم آجلاً، وأنا مُحقٌّ في بحثي الدائم عنها، في كل مكان، ولفترة طويلة ترقَّبتُها في كل مكان، وعندما وجدتُها، تعرَّفتُ عليها حالاً.

كانت القُصَاصَة هناك، أمام عينَيَّ، وكما تخيَّلتُها دائماً.

تحت كل تلك الطباشير وتلك الأوراق المُصفرَّة، كان يتوارى شيء ما.

وعندما تنادي عليكَ الأشياء، فإنها تنادي عليكَ.

وعندما تكون هناك، فهي تكون هناك لأجلنا.

ولا يهمُّ إذا ما كانت هناك منذُ ثانية واحدة أو منذُ الأزل.

رويداً رويداً اقتربتُ منها، لم أكن أريد أن أُحْدِثَ ضجيجاً.

جثوتُ على ركبَتَيَّ، نظَّفتُها من الغبار والأوساخ.

ثمَّ أمسكتُها أخيراً بيدي.

رفعتُ ذراعي، وعرضتُها على أشعَّة الشمس.

وكنتُ مُحقَّاً، لأن ذلك الشيء في وسط الخردة، تركتْهُ أُمِّي لأعثرَ عليه، كان بالضبط ما كنتُ أبحث عنه طوال حياتي. صَدِّقوا أو لا تُصَدِّقوا.

ذاك الذي كنتُ أحمله كان قُصَاصَة الصورة.

لكنّني كنتُ خائفاً. فقد كان هناك شيء ما يجب التَّحقُّق منه.

حينها استجمعتُ كل شجاعة العالَم، وقلبتُ القُصَاصَة.

بسرعة خاطفة. لم أكن راغباً أن أُصاب بالخيبة، فَمَنْ يدري؟!

بلى.

كان هناك كتابة بالحبر الأزرق.

ومن دون أن أقرأها، أخذتُ تلك القُصَاصَة، ووضعتُها في جيبي.

.37

في صباح اليوم التالي، أتى جوش، ليُوقِظَني قبل الفجر.

كان قد دخل عندما كانت الجَدَّة تُحضِّر القهوة، صَعِدَ إلى غرفتي، لأجدَهُ جانب السرير.

كنتُ مُغمِضاً عينَيَّ، لأجعل النعاس يُصدِّق أنه خدعني.

عندما لمس كتفي، أدرتُ رأسي فرأيتُهُ. كنتُ أنتظر أيَّ شخص، ما عداه هو.

لكنه كان قد أصبح فرداً من العائلة، ولم يعد يُفاجِئني.

كانت نينا تواصل نومها، عندما تنام تلك الفتاة، لا تُوقِظُها حتَّى قذائف المدافع. نظر جوش إليها، وكان هناك شيء غريب في عينَيْه، كما لو أنه يفتقدُها، حتَّى وهو يراها. شعرتُ بالغَيْرة، لأنها أختي، دون أن تعيَ أنه ينظر إليها، أنا فقط كان يمكنني النظر إليها.

على أيّة حال، أشار لي جوش بالنهوض، فنهضتُ.

لم أكن أستطيع الخروج بالسروال الدَّاخليِّ، لذا ارتديتُ الشورت وقميص الرجل

العنكبوت.

وبينما نجتاز المطبخ، سألتْنا الجَدَّة فيما إذا كنَّا نريد تناول طعام الفطور، لكنّي أجبتُ بأن لدينا شيء مهمَّاً لفعله، حتَّى لو أنني كنتُ لا أعرف الأمر - ولكنْ، ليس هناك حاجة دائماً لمعرفة كل شيء.

عندما خرجْنا، كانت لا تزال ظلمة، والهواء بارداً.

الشمس لا تزال متأخِّرة، وجوش اقترح: "دَعْنا نذهب لعند ريفِهْ". كان ذلك واضحاً أيضاً، لكنْ، في بعض الأحيان، يتطلَّب الأمر الشجاعة.

وهكذا كرَّرتُ أنا أيضاً: "فلنذهب لعند ريفِهْ".

عندما وصلْنا إلى اللَّامْيُون، كان ريفِهْ يستعدُّ للخروج إلى المراعي. كان يرتدي زيَّ الراعي، ما يعني زيَّه المعتاد، ولكنْ، مع وشاح أحمر حول عنقه، وهو يلزم للخراف، لأن الأحمر هو لون الأمْرْ.

ثمَّ سلكْنا ثلاثتُنا الطريقَ المُؤدِّية إلى مزرعة العمِّ روكّو، وكان الجزء بعد السَّيْل يُرَى من الأعلى أسود وقاحلاً. ولكنْ، قبل أن نصلَ إلى السَّيْل، دخلْنا إلى الكوخ، كي يأخذَ ريفِهْ مفاتيح قفل حظيرة الخراف، ويُطلِق سراح الكلب لوبو.

كان مشهد خروج الخراف جميلاً. فإذا لم يكن الإنسان ينعم بالسرور، يكفيه أن يطلق سراح أحد ما، لتتحسَّن حالته على الفور.

وهكذا، بينما كانت الخراف سعيدة تهرع خارجاً، بشكل عشوائي، متَّجهة إلى حيث يعلم الله! وفي كل ذلك الصخب، ونحن نواصل السير، قال جوش: " سأرحل".

لم أفهم، لا أنا ولا ريفِهْ، حتَّى إننا لم نكترث للأمر، لأنه، في أغلب الأحيان، عندما يتكلَّم ذلك الأجنبي، لا يُفهَم منه شيء. أحياناً نتظاهر بالفَهْم، كيلا نُشعِره بأنه مختلف.

لكنْ، في تلك المرَّة، كان بالفعل لديه ما يقوله، وهكذا في خضمِّ صخب الخراف التي كانت تثغو بلا انتظام، كرَّر قائلاً: "سأرحل"، وكان يعني بهذا أنه سوف يذهب من أريليانا ومن لوكانيا، ومن تلك التلال والحقول الصفراء، ومن تلك السوداء والقاحلة، ومن كل ما تبقَّى.

باختصار، كان سيرحل، وكفى.

"سأعود إلى بلادي".

لم نسألْهُ بالتأكيد كيف سيفعل ذلك. كانت بلاده بعيدة، ولا يمكن الوصول إليها مشياً على الأقدام، عليه على الأقلّ أن يستقلَّ الحافلة. وهو لا يملك نقوداً، وأهله في السجن، في أقلِّ تقدير كان لا يزال يملك قَدَمَيْن وساقَيْن قويَّتَيْن، وماذا يمكنكَ أن تملك أفضل من ذلك في الحياة؟!.

وهكذا أجبْنا بـ "نعم" ونحن ننظر أمامنا، حيث يجب الاستمرار في مراقبة الخراف، حتَّى لو كان لوبو الكلب المُطيع هناك.

تابعْنا السَّيْر ثلاثتُنا جنباً إلى جنب، والخراف أمامنا، حتَّى وصلْنا إلى تلَّة، يُرى منها، بوضوح، خطُّ السَّيْل الذي يمرُّ هناك في الأسفل، وما بعده، حيث توجد أرض مُتفحِّمة.

بعد فترة قليلة من المشي، جلسْنا على قمَّة تلك التَّلَّة، وبقيْنا صامتين لوقت طويل.

نحن الثلاثة. نحن، جنباً إلى جنب. نحن الثلاثة.

ننظر إلى الأسفل، إلى ما كان بالإمكان أن يكون ولم يكن.

نهض جوش.

ودَّعَنا. ثمَّ، كما لو أن شيئاً لم يحدثْ، باشر المشي.

انحدر إلى أسفل التَّلَّة، نحو وادٍ صغير، وتابع صعوداً باتّجاه قمَّة تلَّة أخرى تقع جانباً.

ثمَّ وصل إلى قمَّة تلك التَّلَّة الأخرى، وتوقَّف. لم يلتفتْ. بدأ بالنزول، وأصبح نقطة.

ثمَّ حتَّى تلك النقطة اختفت: لقد ذهب.

بقيْنا وحدنا أنا وريفِهْ.

بقيْنا وحدنا مجدَّداً أنا وهو، كما دوماً، كما حين كنَّا صغاراً، ولكنْ، الآن ينقصنا شيء ما، بل أكثر من مجرَّد شيء ، ولهذا النقص أن يتواصل إلى الأبد، فعندما تصل الأشياء لا تفارق بعدئذٍ.

لم تلحظ الخراف أيَّ شيء، كانت ترعى. وبالنسبة إليها، الأمر سيَّان.

كِلانا أنا وريفِهْ نعرف ذلك، علينا أن نجدَ طريقة أخرى، لنكون معاً. لكن ذلك

يتطلَّب وقتاً، ونحن الآن نملك الكثير منه. سيكون لدينا الكثير من فصول الصيف لنقضيَها معاً.

بدأت الخراف في النزول نحو السَّيْل الجافِّ.

توقَّف لوبو بانتظار ريفِهْ.

كان على ريفِهْ أن يستمرَّ في رعي حيوانات العمِّ روكّو. ذلك الوغد العمّ روكّو.

وبما أنه مضى وقت غير قليل دون أن نتكلَّم، نظر إليَّ كَمَنْ يقول: "حسناً، ماذا تريد أن تفعل؟".

لكن الشيء الوحيد الذي كان يمكنني فعله هو الذهاب.

وهكذا غادرتُ.

.38

في الطريق إلى البيت، لم أتوقَّف للحظة عن اللعب بقُصَاصَة الصورة التي أودعتُها جيبي منذُ ظهيرة يوم أمس.

كان الصيف قد شارف على الانتهاء، وقد بدا طويلاً كحياة بأكملها. كان يمكن التَّنبُّؤ بأنّ الخريف على الأبواب، فالشمس لم تعد تُشرق مُبكِّراً جدَّاً.

وصلتُ بيت الجَدَّيْن مع مطلع الفجر، ونينا لا تزال نائمة.

كانت جميلة، لا تعلم أن جوش قد رحل.

جلستُ بجانبها، وفكَّرتُ مرَّة أخرى بتلك الكتابة على المقعد، روزي + بيا. لقد أعدَّتْ لي أُمِّي مفاجأة جميلة حقًّا، وأنا كنتُ قد ظننتُ بها السوء!

ذهبتُ لأفتح الدُّرجَ الأوَّل من الكمودينة، ببُطء شديد، كي لا أُوقِظَ نينا.

أخذتُ الكيس القماشيَّ الذي يحتوي على قُصَاصَة الصورة: كان فأل خير لأُمِّي، ولا يزال يحتفظ برائحتها حتَّى لو أنني كنتُ أحمله معي. لقد حان الوقت لفَتْحه.

ثمَّ أخرجتُ القُصَاصَة الأخرى من جيبي.

بدأ قلبي يخفق بسرعة كبيرة. كنتُ أشعر به في حلقي.

جلستُ على سريري، تشجَّعتُ، ووضعت قُصاصَتَيّ الصورة واحدة بجانب الأخرى، وغطَّيتُهما بيَدَيَّ.

كانت النوافذ الخشبية مُغلَقة، الضوء يصل من الباب.

وبحركة مُفاجِئة رفعتُ يدي عن الصورة.

وكادت تكون خيبة أمل كبيرة.

لأن القُصَاصَتَيْن لم تكونا مُتطابقَتَيْن تماماً. بل على العكس، كانت واحدة مُلوَّنة والأخرى بالأبيض والأسود، وأقلّ حجماً أيضاً.

في القُصَاصَة التي تعود لأُمِّي، توجد طفلة بمعطف أصفر فاقع جميل، سرقت العيون "البيرتوسيد" من نينا، مع البرج في الخلفية. وفي القُصَاصَة الأخرى، طفلة ثانية، بذراع مرفوعة، تنظر لشخص، يُمسك بيدها، لكنه لا يُرَى، لأنه تمَّ قَصَّه من الصورة.

لكن الأشياء لا ينبغي، بالضرورة، أن تملك أطرافاً مُتناظرة بدقَّة تامَّة. فكَّرتُ. أليس

كذلك؟

ربَّما حتَّى إن شيئَيْن مختلفَيْن قليلاً يكونان أفضل معاً.

أعرف أنني يجب أن أقلبهما، وأقرأ جملة أُمِّي، إلَّا أن الشجاعة ما والت تنقصني.

أحدثتُ بعض الضَّجَّة، لأن نينا استدارت وفتحتْ عينَيْها. كم هي جميلة، نينا!

عندئذ، التقطتُ القُصَاصَتَيْن بسرعة، ووضعتُهما في جيبي.

حرَّكت نينا يدَها، لتحميَ نفسها من الضوء، وتثاءبتْ.

"ماذا تفعل؟".

"لا شيء، أنا جالسٌ هنا"، أجبتُ.

مدَّتْ ذراعَيْها، وتمطَّت. "أنتَ تجلس هنا، وتُراقبني بينما أنام؟".

"أجل".

"أنتَ في مُنتهى البلاهة".

في تلك اللحظة، ظهر كلبون على باب الغرفة، يعلم الله من أين أتى! فقد مضى وقت، لم يأتِ لرؤيتي.

توقَّف عند العتبة. حدَّق بنا وهو يهزُّ ذيله.

بدا سعيداً.

استدار نحو الدَّرَج، تحرَّك بضع خطوات، كانت مخالبه تُتكتك على الأرضية.

ثمَّ توقَّف وعاد إلى باب الغرفة، وعاود هَزَّ ذيله.

لقد فهمتُ: يريدني أن أتبعَهُ.

نظرتُ إلى نينا، لكنْ، بالنسبة إليها، فكلبون لا يعنيها.

عندها اقتربتُ منها، وطبعتُ قبلة طويلة على جبينها. كانت، على أيِّ حال، لا تزال تحلم تقريباً. لكنها ابتسمت، كما لو أن أُمِّي مَنْ قبَّلتْها تلك القبلة.

"أنا ذاهب لأقوم بجولة"، قلتُ.

"إلى أين؟".

"في الجوار".

"متى ترجع؟".

"لاحقاً".

تبعتُ كلبون، ونزلْنا الدَّرَج.

مررْنا أمام جَدَّتي التي كانت تُحضِّر الطعام في المطبخ، ثمَّ خرجْنا إلى الشارع.

سطع ضوء الشمس أخيراً، وبدأت الأشياء تستعيد ألوانها.

يتقافز كلبون من السعادة وهو يهزُّ ذيله بسرعة كبيرة.

يقف وينتظرني ريثما أُوافيه، ثمَّ يركض أمامي.

كنَّا نتَّجه خارج البلدة، حيث تبدأ الحقول.

الطريق نفسها التي عُدْتُ منها لتوِّي، من هناك، حيث رحل جوش، وتابع ريفِهْ عمله.

وصلْنا إلى التَّلَّة نفسها التي كان جوش قد أصبح فيها نقطة غير مَرئيَّة.

جلستُ على أرضها، في قمَّتها، ونظرتُ إلى الوادي.

ابتعد كلبون، وبات يلعب بمفرده، يشمُّ الأزهار، يعدو، يحاول أن يمسك بفراشة طائرة. كان العالَم يُولَد، للمرَّة الأولى، في تلك اللحظة تماماً، والأشياء تتَّخذ أشكالها مع الضوء، وأُقسِمُ أنها لم تكن جميلة هكذا أبداً. كان الليل قد ولَّى، وكل شيء كان واعداً.

غمرتْني بالسعادة، لا أعرف كيف ولماذا، أعرف فقط أنها المرَّة الأولى في حياتي، والمرَّة الأولى لا تُنسَى أبداً.

عليَّ أن أتحلَّى بالشجاعة.

عليَّ أن أقلب القُصَاصَتَيْن، وأقرأ الجملة.

مَنْ يعرف أيَّ مُفاجأة، أعدَّتْها لي أُمِّي!

حينها، أخرجتُ القُصَاصَتَيْن من جيبي، ووضعتُهما على العشب.

كانت هناك طفلتان سعيدتان تنظران إلى الأمام، وتجهلان ما ينتظرهما. الجزء الذي كانت تحمله أُمِّي دائماً معها كان باهتاً أكثر ومُهترئ الحوافِّ، وأكبر بقليل من الجزء الآخر.

نظرتُ إليهما.

تشجَّعتُ.

حبستُ أنفاسي، وقلبتُهما بسرعة.

ثمَّة كتابة بالقلم الأزرق خلف القُصَاصَة الجديدة، وبخطٍّ أنيق ومُبتكَر.

خفتُ أن أقرأها، لكنني فعلتُ ذلك لاحقاً.

ربَّما الأمر مختلف بعض الشيء عمَّا تخيَّلتُهُ، جرَّاء كل ما مضى من زمن.

سيُعلِّمونكَ ألَّا تُشرق. لكنكَ ستفعل.

كانت جملة جميلة جدَّاً. ثمَّ قرأت الجملَتَيْن معاً: فوتوكول أريليانا. أريليانا، ماتيرا، 13 آذار/ مارس -197، سيُعلِّمونكَ ألَّا تُشرق. لكنكَ ستفعل.

لم تكونا تتطابقان مع بعض كثيراً، وكلاهما مكتوبتان بالحبر الأزرق.

أدركتُ حينها أن تلك العبارة هي، بحقٍّ، كل ما كنتُ أحلم به حتَّى لحظة قراءتي لها، وأنّني لن أستطيعَ أن أحلمَ بشيء أفضل منه. هذا هو الجواب الذي لم تمتلكْ أُمِّي الوقت الكافي لتهبَني إيَّاه قبل أن تنتقلَ إلى مكان آخر. وأخيراً جعلتْني أعثر عليه.

كان كلبون في أسفل التَّلَّة، قد بدأ يتقافز.

يهزُّ ذيله، يُلقِي بنفسه على الأرض، يلتفت نحوي، ثمَّ يُعاوِد القفز.

وحدث في تلك اللحظة أنّني رأيتُها.

في اللحظة التي تجاوزتْ فيها الشمسُ خطَّ الأفق، وهزم الضوءُ العتمةَ وغمرَ كل شيء.

في الوادي، بجانب كلبون، كانت أُمِّي هناك.

ترتدي فستاني المفضَّل، ذاك الأبيض بزهور عبَّاد الشمس الكبيرة. شَعْرها الأجعد الذي يعكس الشمس يجعلها تبدو كلُبْدة الأسد تماماً.

نظرتْ إليَّ، وابتسمتْ لي من بعيد.

كان كلبون يسحبها من ذيل فستانها، لأنه يريد الركض والمضي قُدُماً واللعب. حينها رفعتْ أُمِّي ذراعها، ولوَّحتْ لي.

كانت وسط التلال، وكل شيء من حولها أخضر ومليئاً بالزهور.

شَابَ ملامحَها الحزنُ، وبدا أنها تُفضِّلني على كلبون، ثمَّ حوَّلتْ ناظرَيْها بعيداً، وأدارت ظَهْرها. وبتُّ أرى شَعْرها الأجعد فحسب.

كان كلبون ينبح، ويقفز في كل مكان، يريد الاستمرار بالمشي في الوادي.

انتظرتْهُ أُمِّي.

ثمَّ تبعتْهُ.

كان فستانها الأبيض يتطاير في مهبِّ ريح أواخر آب.

عندئذ، بقيتُ وحدي. لا أعرف ماذا أفعل، وهكذا قرأتُ العبارة مرَّة أخرى.

سوف يُعلِّمونكَ ألَّا تُشرق. لكنّكَ ستفعل.

وهذه هي، صَدِّقوا أو لا تُصَدِّقوا، كانت اللحظة التي تذكَّرتُ فيها سؤالي أخيراً،

الذي وجَّهتُهُ لأُمِّي في ذلك اليوم، والذي كان يغيب عن بالي في كل مرَّة. لكنْ، الآن ليس هو الوقت المناسب لأقولَه لكم، وإلَّا سينتهي بي الأمر إلى الشعور بالوحدة أكثر ممَّا أنا عليه. ثمَّ إن تلك الشمس التي كانت تُشرق، بدت أجمل من كل ما شاهدتُهُ في حياتي قطُّ، كانت وعداً للبدء بشيء جديد. كنتُ أريد أن أُشرِقَ، أجل.

ما يمكنني قوله هو أنني لن أترك هذه الحياة تمرُّ دون أن تمرَّ أوَّلاً من خلالي. إنها مسألةُ أولويَّةٍ، لا أعرف إن كنت قد أوضحتُ.

لنفعل؟

ملاحظة المُؤلِّف

العبارة التي تتردَّد أكثر من مرَّة في الرواية، والتي وهبتُها العنوان أيضاً، هو النسخ الخاطئ لمُقتطف من "رسائل لوثرية" لبيير باولو بازوليني (إنياودي، 1976)، التي تقول ما يلي: "الأناس الفانون لا يملكون، بالتأكيد، مرحلة مشرقة من الشباب: وها هم يُعلِّمونكَ ألَّا تُشرق. إنما أنتَ، فسوف تُشرق، يا جينّاريللو".

هذا الكتاب هو مُحصِّلة شَغَفِي بالجنوب، الأرض التي أتحدَّر منها، وأُحبُّها. لكنه نتاج بعض الدردشات أيضاً حول الجنوب، ماضيه وحاضره ومصيره، الذي تبادلتُهُ صدفة مع باحث كبير مختصٍّ بوسط وجنوب إيطاليا، كاتب - وصديق عزيز -، راحل، أليسّاندرو ليوغراندي. هو وعمله، أريد أن أتذكَّره هنا، وأشكره.

جوزِبِّه كاتوتسيلا: كاتب وصحفي إيطالي من مواليد عام 1976، تخرج من كلية

الفلسفة في جامعة ميلانو وقدّم أطروحته عن مسألة العقل والمنطق في فلسفة نيتشه.

كتب كاتوتسيلا العديد من قصائد النثر والمجموعات القصصية والروايات الاستقصائية والمقالات الصحفية ونشر في أهم الجرائد اليومية في إيطاليا. تعنى كتاباته بالأزمات الإنسانية كالهجرة، والقضايا الوطنية كالمافيا، والمثاقفة بهدف بناء جسور التواصل بين حضارات العالم وثقافاته المعاصرة. عمل مستشاراً للعديد من دور النشر من أهمها «فلترينيللي» وهي إحدى كبريات دور النشر الإيطالية وأعرقها. وحالياً يعمل كسفير للنوايا الحسنة للأمم المتحدة.

حازت روايته "لا تقولي إنك خائفة" على جائزة "لوستريغا" للشباب، أهم جائزة للأدب في إيطاليا وترجمت لأكثر من أربعين لغة، وصدرت الطبعة الأولى في اللغة العربية عام 2016 - ط2: 2017 - ط3: 2019.

كلمة الغلاف

أريليانا، "خمسونَ منزلاً من الحجارةِ ومئتا نسمة"، هي البلدةُ التي يقضي فيها بييترو ونينا إجازتهما مع جدَّيْهِما، في صيفٍ فقدا في بدايتهِ أمَّهُما. عطلةٌ لا تشبهُ سابقاتِها، حيثُ السَّيلُ الذي لم يَعُدْ سَيْلاً، والقصرُ المهجورُ، والبرجُ النورمانديّ، وغطرسة العمّ روكّو، ملاّك الأراضي الأرعن الذي حكمَ على البلدةِ بالفقر والتخلُّف. ثمَّ اكتشاف عائلةٍ من المهاجرينَ مختبئةً داخل البُرج، وانقسام الأهالي بين رافضٍ لها وغاضبٍ على تواجدِها الغامض بينَهم، لكنَّ ذلك، هو ما سيُشعِلُ فتيلَ التَّغيير ويزرعُ بذورَ الأمل في الجنوب.

وفي خضمِّ تماهي الأحلام بالتَّوتُّرات الجديدة، يعبرُ بييترو من الطفولة إلى المراهقة، ويُخبرنا صوتُه، كيف يتمُّ التغلُّب على الموتِ والخيانةِ والظُّلم، وكيف تطفحُ تلك

المرحلة بالرِّقة والبهجة رغم كلِّ الآلام. ومن خلال هذا الصَّوت العفوي، السَّاخر والحَكيم، يكتبُ كاتوتسيلا روايةً قويَّةً وناجعَةً، روايةٌ مليئةٌ بالظِّلال والأضواء، بالمأساةِ والضَّحك، ولكنها بسيطةٌ مثل كلِّ الأشياء التي تسبر الأعماق.